كليلة ودِمنة

عبد الله بن المقفع



تحقيق

عبد الوهاب عزام وطه حسين

كليلة ودِمنة

كليلة ودِمنة

تأليف
عبد الله بن المقفع

تحقيق
عبد الوهاب عزام وطه حسين



هنـــداوي

كليلة ودِمنة

عبد الله بن المقفع

رقم إيداع ١٥٩٤١ / ٢٠١٤
تدمك: ٦ ٠٧٧ ٧٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

المحتويات

التَّصدير ٧
المقدمة ١١
باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع ٤٥
باب توجيه كسرى أنو شروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب ٥٣
باب برزويه الطبيب ٦١
باب الأسد والثور ٧٣
باب الفحص عن أمر دمنة ١٠٧
باب الحمامة المطوقة ١٢٣
باب البوم والغربان ١٣٧
باب القرد والغيلم ١٥٣
باب الناسِك وابن عِرس ١٥٩
باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند ١٦١
باب مهرايز ملك الجرذان ١٧٧
باب السِّنَّور والجرذ ١٨٥
باب الملك والطير قبرة ١٩١
باب الأسد وابن آوى ١٩٧
باب السائح والصواغ ٢٠٥
باب ابن الملك وأصحابه ٢٠٩
باب اللبؤة والشعهر ٢١٥
باب الناسك والضيف ٢١٩

التَّصدير

للدكتور طه حسين[1]

هذه طرفة قيمة تُهديها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر إلى قرَّاء العربية، فتمتِّع بها عقلهم وذوقهم وشعورهم وحسَّهم معًا، وتقديمها إليهم في هذه الأيام المظلمة المُؤلمة التي قلَّما يظفر الناس فيها بهذا المتاع الممتاز الخالص الذي ينعمون به في أيام السلم، فضلٌ يضاف إلى فضل، وإحسانٌ يُضافُ إلى إِحسَانٍ.

في هذه الأيام التي لا يلتقي الناس فيها إلَّا تحدث بعضُهم إلى بعضٍ عن آلام الحرب وآثامها، والتي لا يخلو الناس فيها إلى أنفسهم إلَّا فكروا في سيئات الحرب وموبقاتها، والتي لا يصبح الناس فيها ولا يمسون إلَّا على أنباء، منها ما يسرُّ ولكنه سرور فيه حمرة الدم وريح الموت، ومنها ما يحزن ويسوء؛ ولكنه حزن لا كالأحزان؛ حزن عميق كثيف مطبِق، يُعرف أوله ولا يُعرف آخره.

في هذه الأيام التي يُحاول الناس فيها أحيانًا أن يفِرُّوا من أنفسهم، وأن يفزعوا إلى القراءة وإلى غيرها من وسائل المتاع العَقلي؛ لعلهم يجدون فيها راحة من أنباء الحرب

[1] القاهرة في ٥ أبريل سنة ١٩٤١.

وخطوبها الباهظة، فلا يقرءون إلَّا ما يتصل بالحرب، ولا يجدون من لذات الفن إلَّا ما بينه وبين الحرب سبب قريب أو بعيد.

في هذه الأيَّام المُؤذية المُضنية يحمد الناس لمطبعة المَعارف ومكتبتها أن تقدِّم إليهم هذه المتعة القديمة الجديدة، التي مضت عليها القرون والقرون، وستمضي عليها القرون والقرون، وهي محتفظة دائمًا بشباب نضر غض لا يعرض له الذواء، ولا يدركه الذبول، وهم ينظرون فيها كما تُقدَّم إليهم الآن، فيجدون لذة لأبصارهم، ولا يكادون يقرءون فيها؛ حتى يجدوا هذه اللذة الفنية الممتازة النقية التي تخرجهم من هذه البيئة الثقيلة البغيضة التي يُكره الناس على الحياة فيها الآن؛ فهي منفذ يخلصون منه بين حين وحين ساعة من نهار أو ساعة من ليل إلى جوٍّ نقيٍّ طاهرٍ فيه للقلب رضًا، وفيه للعقل غذاء، وفيه للحسِّ راحة، وفيه للنفس رَوح.

ويروقني أن أرى في هذه الطبعة الجديدة من كتاب «كليلة ودمنة» رموزًا سامية صادقة لمعانٍ ساميةٍ نحبها أشد الحب، ونطمح إليها أشدَّ الطموح.

ففي هذا الكتاب حكمة الهند، وجهد الفرس، ولغة العرب، وهو من هذه الناحية رمزٌ صادقٌ دقيقٌ لمعنًى سامٍ جليل، هو هذه الوحدة العقلية الشرقية التي تنشأ عن التعاون والتضامن وتظاهر الأجيال والقرون بين أمم الشرق على اختلافها، والتي حققتها الحضارة الإسلامية على أحسن وجه وأكمله أيامَ كانت هذه الحضارة حية قوية مؤثرة في حياة الأمم والشعوب، والتي نُريد الآن أن نردَّ إليها قوتها الأولى وجمالها القديم.

هذه الحكمة الخالدة الساذجة التي أفاضها روح الهند، ونقلها عنهم جهد الفرس، وصاغها في هذه الصورة العربية الرَّائعة ذوق العرب، وتوارثتها الأجيال بعد ذلك، فنقلتها من بيئة إلى بيئة، ومن شعب إلى شعب، حتى جعلتها جزءًا من التراث الإنساني الخالد، هذه الحكمة في صورتها العربية رمزٌ لما نحبُّ أن يكون من تعاون الأمم الشرقية على إشاعة البر والتقوى، وإذاعة الخير والمعروف، ومقاومة الإثم والعدوان.

وفي هذه الطبعة التي تقدِّمها مطبعة المعارف ومكتبتها إلى الناس رمزٌ آخرُ صادقٌ دقيقٌ لمعنى آخر سامٍ جليل، نُحِبُّه أشد الحب، ونطمح إليه أشد الطموح، وهو هذا التعاون المنتج بين قديمنا العربي القيِّم ونشاطنا العصري الخصب؛ هذا الجهد الذي أنفقه ابن المقفع في نقل «كليلة ودمنة» إلى العربية، وهذه الجهود التي أنفقها المسلمون بعده في درس الكتاب وتصحيحه وتنقيحه والاستفادة منه والانتفاع به لم تذهب سدًى، بل لم تنقطع ولم تقف عند حدٍّ محتوم، ولكنها اتصلت بين الأجيال، يضيف إليها كل جيل ما

قصرت عنه الأجيال الأُخرى؛ حتى وصلت إلينا فلم نُعرض عنها، ولم نزهد فيها، ولم نأخذها كما هي في قناعة وكسل وفتور، وإنما أقبلنا عليها مشغوفين بها راغبين فيها، وأخذنا نضيف إليها ما عندنا كما أضاف إليها الذين سبقونا ما كان عندهم.

فالجهد القيِّم الذي بذله الأب شيخو حتى أخرج للناس أقدم نسخة ظفر بها لم يقف عند الحد الذي وصل إليه الأب شيخو، ولكن زميلي الدكتور عبد الوهاب عزام يضيف إليه جهدًا جديدًا قيِّمًا، فينشر نسخة جديدة أقدم من نسخة الأب شيخو بأكثر من قرن من الزمان، ويمكِّن التاريخ الأدبي والنقد الأدبي من أن يُعيدا نظرهما في هذا النص القديم، ويستخلصا منه نتائج جديدة لها قيمتها وخطرها. ومن المُحَقَّق أنَّ هذا الجهد الذي بذله الدكتور عبد الوهاب عزام لن يقف عند هذا الحد، ولن ينتهي إلى هذه الغاية؛ فقد كان يُريد — وكانت مطبعة المعارف ومكتبتها تريد معه — جمع أكثر عددٍ ممكن من النسخ المخطوطة لهذا الكتاب، ومُعارضتها، والموازنة بينها، واستخراج أصح نص ممكن من هذه المعارضة والموازنة، فحالت الحربُ بينهما وبين ما كانا يريدان، ولكنها لم تمنعهما من أن يُقدِّما إلى النَّاس أقدم نص لهذا الكتاب عُرِف إلى الآن.

والحرب منقضية يومًا ما، والسلم مقبلة يومًا ما، وجهود الذين يحبون العلم ويعملون على إحيائه وتنميته وإذاعته إن وقفت الآن فهي مُستأنَفة غدًا أو بعد غدٍ، وما أَشُكُّ في أنَّ الدكتور عبد الوهاب عزام سيستأنف الجد والبحث، وسيجمع النسخ المخطوطة التي لم يظفر بها بعد، وسيمضي في المُعارضة والمُوازنة، وسيتقدم بنص «كليلة ودمنة» إلى الصحة والدقة والقِدَم خطوات أبعد من هذه الخطوة البعيدة التي خطاها بطبع هذه النسخة، وما ينبغي أن نُسرف في الطمع، ولا أن نتعجل الزَّمن، ولا أن نجاري طموحنا الجامح، ولا أنْ نغض مما يُتاح لنا من التوفيق والفوز؛ فليس قليلًا، بل كثيرٌ جدًّا أن يخطو الدكتور عبد الوهاب عزام، وتخطو معه مطبعة المعارف ومكتبتها، فإذا خطوتهما تقدم كتاب «كليلة ودمنة» نحو الصحة والدقة والقِدَم أكثر من قرن من الزمان.

وفي هذه الطبعة رمزٌ آخرُ صادقٌ دقيقٌ لمعنى آخر سامٍ جليل، نحبه أشد الحب، ونطمح إليه أشد الطموح، وهو التعاون المنتج بين علمائنا الشرقيين المحتفظين بشخصيتهم، وبين علماء الغرب الذين برَّزوا فيما حاولوا من البحث العلمي؛ فقد أصبحت العزلة العلمية سخفًا لا يطمع فيه إلَّا الذين قصُرت هممهم، وفترت عزائمهم، وضعُفت عقولهم عن فهم الحياة كما ينبغي أن تُفهم، وأصبح الجهد العلمي حظًّا شائعًا بين الأمم المتحضرة جميعًا، قوامه التعاون الصادق بين العلماء مهما تختلف أوطانهم وأجناسهم

وبيئاتهم. وقد بذل الدكتور عبد الوهاب عزام في هذه الطريق جهدًا قيِّمًا حقًّا، فهو لم يقف — وما كان له أن يقف — عند الجهود الشرقية الخالصة التي بُذِلت لنشر هذا الكتاب، ولكنه ألمَّ بالجهود التي بذلها الأوروبيون والأمريكيون منذ عرفوا «كليلة ودمنة»، فأصلح منها ما أصلح، وقوَّم منها ما قوَّم، وأضاف إليها ما أضاف، وعرض ذلك علينا في مُقدمته الممتعة مع هذه الأمانة الساذجة المتواضعة التي تليق بالعُلماء، والتي لا يليق غيرها بالعلماء، ويكفي أن الذين يقرءون هذه المُقدمة سيحيطون إحاطة دقيقة شاملة بكل الجهود التي أُنفِقت حول هذا الكتاب منذ أخذه الفرس عن الهند إلى أن وصلت إلينا طبعته الأخيرة في هذا العام.

وفي هذه الطبعة رمزٌ آخرُ صادقٌ دقيقٌ على سذاجته ويسره لمعنى سامٍ جليلٍ نحبه ونؤثره، وتطمئن إليه نفوسنا اطمئنانًا فيه كثيرٌ من الدعةِ والحنان؛ فمطبعة المعارف ومكتبتها إنما عُنيت بنشر هذه الطبعة، وأنفقت في ذلك ما أنفقت من جهدٍ ومالٍ، واحتملت فيه ما احتملت من مشقةٍ وعناءٍ، لم تصرفها عنه الحرب، ولم تصدها عنه الظروف التي تصد أمثالها عن أمثاله، ووفِّقت فيه إلى ما وفِّقت إليه من الإجادة والإتقان، فعلت هذا كله لسبب يسيرٍ ولكنه خطير، فهي تُريد أن تحتفل بمرور نصف قرن على إنشائها، وهي لم تجد إلَّا هذا العمل العلمي الأدبي الفني وسيلة إلى هذا الاحتفال؛ وهي بهذا تحيي ذكرى منشئ المطبعة ومكتبتها، فتسجِّل وفاء الأبناء البررة للأب العطوف، وهي بهذا تحيي هذا الجهد المتصل الذي أُنفِق في غير ضعفٍ ولا مللٍ أثناء نصف قرن في نشر العلم وإذاعة الثقافة في الشرق العربي كله. وهي بهذا — آخر الأمر — تحيِّي هؤلاء القرَّاء، أو قُل هذه الأجيال من القرَّاء الذين اتصلوا بها منذ نشأت، والذين عرفوا العلم والثقافة من طريقها، تحيِّيهم لأنهم وفوا لها كما وفت لهم، وتحيِّيهم لأنهم يثقون بها كما تثق بهم، وهي حين تهدي إليهم هذه التحية الرَّائعة تنبئهم في ظُرفٍ وخفةٍ بأنها ستمضي في مستقبل الأيام — كما مضت من قبل — في طريقها إلى نشر العلم والأدب والثقافة، متوخيةً ما يجبُ أن يتوخاه الناشر الأمين من العناية بالدقة العلمية والجمال الفني، والحرص على إرضاء العقل والذوق والشعور جميعًا.

وأظنُّ أني لا أتجاوز إرادة القرَّاء إذا أهديت إلى مطبعة المعارف ومكتبتها وإلى الدكتور عبد الوهاب عزَّام تحية ملؤها التقدير والإعجاب والأمل.

المقدمة

للدكتور عبد الوهاب عزام[١]

(١) القسم الأول: طبعات الكتاب وأصولها

(١-١) لماذا نُعنى بهذا الكتاب؟

كأني ببعض من يطَّلِعون على هذه الطبعة لكتاب «كليلة ودمنة»، أو يسمعون بها، يقولون: ما لهذا الكتاب يُعنى به، ويُبذل في تصحيحه وتوضحيه ومُقابلة نسخه وبيان تاريخه هذا الجهد العظيم، وتُنفق على نشره هذه الأموال الكثيرة، وهو كتاب تكرر طبعه في الشرق والغرب، وتوالت طبعاته في مصر منذ عهد محمد علي باشا إلى اليوم، واتخذته وزارة المعارف كتابًا مدرسيًّا، فلا تجد في مصر عالِمًا ولا مُتعلِّمًا إلَّا اطَّلع عليه وقرأه كله أو بعضه؟ وإني أعجل الجواب لهؤلاء فأقول: قليلٌ من الكتب نال من إقبال الناس وعنايتهم ما نال هذا الكتاب؛ فقد تنافست الأمم في ادِّخاره منذ كُتِب، وحرصت كل أمة أن تنقله إلى لغتها؛ فليس في لغات العالم ذات الآداب لغة إلَّا تُرجِم هذا الكتاب إليها، وبحقٍّ عُنيت الأمم بهذا الكتاب العجيب الذي يحوي من الحِكم والآداب وضروب السياسة وأفانين القَصص ما يملأ القارئ عِبرة وإعجابًا وسرورًا.

[١] القاهرة، في ١٠ مارس سنة ١٩٤١.

والأمم العربية أولى أن تُعنى بهذا الكتاب في لغتها، وأجدر أن تهتمَّ بتأريخه وتوضيحه ونقده لأسبابٍ عدة:

أولها: أن النسخة العربية أصلٌ لكل ما في اللغات الأخرى — حاشا الترجمة السريانية الأولى — فقد فُقِد الأصل الفهلوي الذي أُخِذت عنه الترجمة العربية، وفُقِد بعض الأصل الهندي الذي أُخِذت عنه الترجمة الفهلوية، واضطرب بعضه؛ فصارت النُّسخة العربية أُمًّا يرجع إليها من يريد إحداث ترجمة أو تصحيح ترجمة قديمة، بل يرجع إليها من يُريد جمع الأصل الهندي وتصحيحه.

والثاني: من الأسباب: أنَّ هذا الكتاب كُتِب باللغة العربية في مُنتصف القرن الثاني من الهجرة، فهو مِن أقدم ما بين أيدينا من كتب النثر العربي، وأسلوبُه مثالٌ من أقدم أساليب الإنشاء في لغتنا، وهو لذلك جديرٌ بعناية مؤرخي الأدب العربي.

والثالث: أنَّ هذا الكتاب نُقِل من الفارسية إلى لغتنا، ولمؤرخي الآداب كلامٌ كثيرٌ في تأثير الأدب الفارسي في الأدب العربي في تلك العصور، والترجمة من أقوى الوسائل لتأثير أدب في آخر، فدراسة هذا الكتاب تُبيِّن صلة ما بين الفارسية والعربية في القرن الثاني، وتُبيِّن أنَّ الأساليب العربية أخذت من الأساليب الفارسية أو لم تأخذ.

والرَّابع: من دواعي العناية بهذا الكتاب: أنَّ عندنا منه نسخًا مختلفة لا تتفق اثنتان منهما اتفاقًا تامًّا، ويعظم الخلاف بين بعضها بالزيادة والنقص في بعض الأبواب، وبعض القِصص والأمثال، وبالإطناب والإيجاز، واختلاف الألفاظ في الموضع الواحد؛ حتى يعجب القارئ الذي يقيس نسخًا من الكتاب بأُخرى، ويغلب على ظنِّه أنَّ الكتاب تُرجِم إلى العربية أكثر من مرة، وسيأتي بيان هذا.

وقد عثر الأستاذ هرتيل Johannes Hertel على كتاب «بنج تنترا» الهندي، وهو أصل من أصول «كليلة ودمنة»، ودعا بعض المستشرقين إلى تحرِّي النص الصحيح العربي ليُستعان به على تصحيح الأصل الهندي.

وعُنِيَ الأستاذ برستيد James H. Brestead رئيس المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو بدراسة النصوص العربية لكتاب «كليلة ودمنة»، وكتب الأستاذ سبرنجلين Sprengling من أساتذة هذه الجامعة مقالًا مفصَّلًا في الجريدة الأمريكية للغات والآداب السامية The American Journal of Semitic Languages and Literatures عدد يناير ١٩٢٤ بيَّن فيه عناية هذه الجامعة بتصحيح النص العربي للكتاب، وعدد المخطوطات الكثيرة

التي جُمِعت من أرجاء العالم لهذا المقصد، ودعا الأدباء في الشرق والغرب إلى إمداده بما عندهم من نصوص وآراء لهذا العمل.

(١-٢) طبعات الكتاب

فإن كان الكتاب لهذه الأسباب جديرًا بعناية أدباء العربية قمينًا بأن يُطبع مستوفيًا حقَّه من التصحيح والنقد، فهل طبع الكتاب مرة على هذه الشاكلة؟ ليس في طبعات الكتاب التي ظهرت في أوروبا والبلاد العربية وبلاد الشرق الإسلامي طبعة واحدة جديرة بثقة القارئ الناقد، صالحة أن يعتمد عليها مُؤرخ لهذا الكتاب أو مؤرخ للأدب العربي، وبرهان هذه الدعوى فيما يلي:

طبعة دي ساسي

طُبِع الكتاب لأول مرة في باريس سنة ١٨١٦م طبعه المستشرق الكبير سلفستر دي ساسي Sylvestre de Sacy. ويتبين من المُقدمة التي كتبها الناشر أنَّه رأى كثرة الاختلاف بين النسخ التي وجدها في باريس؛ فاختار أقدمها في رأيه، وصحَّحها ونقَّحها من نُسخ أخرى، وكانت هذه النسخة التي اختارها في حاجة إلى التكميل والتصحيح والتنقيح، فيها نقص تداركه بعض القرَّاء بخط حديث، وفيها مواضع ذهب بها البِلى، وكلمات مُحيَت فوُضِعت موضعها أخرى؛ فالكتاب الذي نشره دي ساسي لا يقدِّم للناقد نسخة واحدة تصلح للنقد والمقايسة، ولكن نسخة ملفقة؛ ولهذا لم يثق بها المستشرقون الذين عُنُوا بالموضوع أمثال فلكنر Falconer، وجويدي Guidi، ورايت Wright، وزتنبرج Zotenberg، وشاركهم الأب شيخو في رأيهم، يقول نلدكه Noldeke: «يمكن أن يُقال إن اختيار أي مخطوط رديء للطبع كان أجدى على النقد» (Kalilah and Dimnah by Falconer P. XVII). وقد وجد نلدكه أنَّ النُّسخة التي كانت أقل النسخ حظًّا من عناية دي ساسي هي أقرب النصوص إلى النسخة السريانية القديمة.

الطبعات المصرية

وكل الطبعات التي طُبِعت في مصر كانت تكرارًا لهذه الطبعة، فالطبعتان اللتان أخرجتهما مطبعة بولاق سنة ١٢٤٩ وسنة ١٢٥١هـ في عهد محمد علي باشا صورتان من طبعة دي ساسي إلَّا كلمات قليلة، يقول مصحح الكتاب في المقدمة:

> فصادف سعده (أي: محمد علي باشا) المقترن من الله بالمنة وجود نسخة مطبوعة بالعربي في غير بلاد العرب من كتاب كليلة ودمنة، وهي التي ترجمها عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور في أيام أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، وكانت ترجمتها من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية، واتفق الناس على صحة تلك النسخة لشهرة مصححها بالألمعية. (وهنا ينقل المصحح فقرات من مُقدمة دي ساسي تبيِّن طريقة هذا المستشرق في تصحيح الكتاب).
>
> ثم إنَّ تلك النسخة المطبوعة عُرِضت هي وغيرها على شيخ مشايخ الإسلام وقدوة عُمَد الأنام مولانا الشيخ حسن العطَّار — أدام الله عموم فضله ما دام الليل والنهار — فقال: يصحُّ ألَّا يوجد لها في الصحة مثال؛ لشهرة مُصححها بالضبط وسعة الاطِّلاع على الأقوال، وحينئذٍ اتفقت الآراء على أن يكون المعوَّل في طبع ذلك الكتاب عليها، ومنتهى اختلاف النسخ ووفاقها إليها، فبادرتُ إشارة الأمر بصريح الامتثال، وسرَّحت في رياض تلك النسخ سائم الطرف والبال، فوجدتُ المطبوعة أفصحها عبارة، وأوضحها إشارة، وأصَّحها معنى، وأحكمها مبنى، غير أنَّ فيها لُفيظات حادت عن سَنَن العربية، وبعض معانٍ مالت بها الركاكة عن أن تُفهم بطريقة مَرْضِيَّة، فَقَرَيْتُ أضياف المعاني بأي لفظ تشتهيه، وربُّ البيتِ أدرى بالذي فيه، خصوصًا مع وجود المواد التي تكشف عن وجوه الصحة نقاب الاشتباه، وما كان ذا مَكِنة فلينفق مما آتاه الله، مستعينًا على ذلك بما لديَّ من النسخ التي بخط القلم، معوِّلًا على عناية من علَّم الإنسان ما لم يعلم.

وكل الطبعات التي توالت في مصر كانت تكرارًا لطبعة بولاق إلَّا فصولًا وجملًا أُلفِيَتْ غيرَ ملائمة للآداب فحُذِفت.

طبعتا اليازجي وطبارة

والطبعات الشامية كذلك اعتمدت على طبعة دي ساسي وما حاكاها من طبعات مصر مع تصحيح أو تلفيق بينها وبين بعض المخطوطات.

ذكر الشيخ خليل اليازجي في مُقَدِّمة طبعته أنه عثر على نسخة مكتوبة منذ ثلاثمائة سنة، وقايس بينها وبين النُّسخة المطبوعة في مصر ونسخة دي ساسي، ووجد بينهما اختلافًا كثيرًا، ثم قال: «وقد جمعت بين النسخ الثلاث وطبَّقت بينها بأن اخترت من كلٍّ منها أحسنها، مع نقل المزيد في نسخة الخط المشار إليها، وإصلاح ما في النسخ الثلاث من أغلاط النسَّاخ وغيرها، وزياداتٍ أُخر زدتها مما عنَّ للخاطر الضعيف للربط بين فواصل الكلام، أو لاستدعاء المقام لها، أو لاستحسان موقعها، أو استطرادًا جرَّ إليه سياق الكلام مما يظن أنَّ النُّسخة الأصلية لم تخلُ عن شيء بمعناه، وغير ذلك مما جرأني عليه الرغبة في ردِّ هذا الكتاب الجليل ما أمكن إلى رونقه القديم، وإن كان يقصر عن ذلك ذرعي، ويضيق وُسعي، ولكني فعلتُ رجاء أن أستعين به عليه وأتطرق منه إليه؛ فتيَسَّر لي أن أجمع من النسخ الثلاث نسخة وافية جديرة بأن تُنزل منزلة النسخة الأصلية.»

ثم يذكر أنه حذف أمثالًا وعبارات لا تلائم آداب العصر، ولا تصلح لقراءة التلاميذ.

وأمَّا نُسخة أحمد حسن طبارة التي استعان على تصحيحها السيد مصطفى المنفلوطي، فيقول في مقدمتها إنه عثر على نسخة مصوَّرة كُتِبت سنة ١٠٨٦ﻫ، فعزم على طبعها، ثم يقول: «فعنيت أولًا بمقابلتها على ما توفَّر لديَّ من نُسَخِها كنسخة باريس المطبوعة سنة ١٨١٦ ونسخة مصر المطبوعة سنة ١٢٩٧ ونُسخ بيروت الشهيرة، واخترت منها ما كان أقربها إلى الأصل، وأبعدها عن التحريف والتبديل، وأسلمها من الزيادة والنقصان.»

فترى من هذا أنَّ نسخَتَي اليازجي وطبارة — على ما لقيتا من تصحيح وعناية — قد لُفِّقت لهما نسخٌ مختلفة، ووقع فيهما من تصرف الناشرين ما يذهب بقيمتهما التاريخية، ويقلل خطرهما في رأي الناقد.

طبعة شيخو

يقول الأب شيخو في المُقدمة الفرنسية التي قدَّمها لطبعته إنَّه عثر في دير الشير في لبنان على مخطوط من كتاب «كليلة ودمنة»، كُتِب سنة ٧٣٩ﻫ، وإنه رأى في أسلوبها شبهًا بما

يُعرف من أسلوب ابن المقفع، ورأى أنها أقرب النُّسخ إلى الأصل الهندي «بنج تنترا» وإلى الترجمتين السريانيتين: الترجمة القديمة المأخوذة عن الفهلوية، والحديثة المأخوذة عن العربية، وإنه طبع الكتاب كما هو، لم يصحِّح أغلاطه ولم يوضح غامضه؛ ليكون أمام المستشرقين صالحًا للمقارنة والنقد.

ثم يقول إنه ألحق بالكتاب الأبواب التي ليست في نسخته، مطبوعةً بحروفٍ صغيرةٍ تميِّزها عن الأبواب التي في نسخته.

ولا ريبَ أن طبعة شيخو — على ما فيها من سقطٍ وغلطٍ وتحريفٍ كثيرٍ، بعضه يُدرَك صوابُه لأول نظرة، وبعضه لا يدرَك إلَّا بعد طول بحث ومقارنة — لا ريبَ أن هذه الطبعة أول طبعة في اللغة العربية تقدِّم للقراء نصًّا كاملًا غير ملفَّق من كتاب «كليلة ودمنة»، وتصلح أن تكون حلقة في سلسلة البحث عن أصل هذا الكتاب، كما تُرجِم عن الفهلوية.

ثم قال الأب شيخو في آخر مُقَدِّمته إنه سيصحح نسخته من مخطوطات أخرى؛ ليجعل منها نسخة مدرسية، وقد أخرج مِنْ بعدُ نسخة مدرسية مصححة.

وهذا مثالٌ من نسخة شيخو يبيِّن تحريفها، ويُرى استدراك الأب شيخو بين هاتين العلامتين ( ) واستدراكنا بين العلامتين الأخريين [ ]: «ولست أجدني مخصوصًا [مخصومًا] في هذه المقالة؛ لأني لم أُخالفه في شيءٍ من ذلك قط على رءوس جنده إلَّا وقد تدبَّر [تدبرت] فيه المنفعة والزين. ولم أجاهره بشيءٍ من ذلك قط على رءوس جنده ولا عند خاصته وأصحابه، ولكن كنتُ أخلو به فألتمس ما أكلِّمه من ذلك كلام القانت لربه الموقن له، وعرفتُ أنه من طلب الرخص من النصحاء عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرضى، وعند الفقهاء في الشبهة (كذا) [والفقهاء عند الشبهة] أخطأ منافع الرأي، وازداد في الرأي المرض (كذا) وجعل الوزر في الدين [فقد أخطأ الرأي وزاد في المرض واحتمل الوزر]. فإن لم يكن هذا فعسى ذلك أن يكون من بعض سكرات السلطان، فإن من سكراته أن يرضى عن من [عمَّن] استوجب السخط، ويسخط على من استوجب الرضا (الرضى) من غير سبب معلوم. وكذلك قالت العلماء: خاطَرَ من لجَّج في البحر، وأشدُّ منه مخاطرة صاحب السلطان، فإن هو صَحِبَهم (كذا) [يستعمل السلطان جمعًا وهو استعمال صحيح قديم] بالوفاء والاستقامة والمودَّة والنصيحة، خليقٌ (كذا) لأن يعثر فلا ينتعش أو يعد (يعود)، وقد أشفى على الهلكة أن ينتعش وإن لم يكن هذا؛ فلعلَّ بعض ما أعطيتُه من الفضل جُعل فيه هلاكي؛ فإن الشجرة الحسنة رُبَّما كان فسادها في طيب

ثمرتها إذا تُنُوِّلت [تنوولت] أغصانها وجُذِبت حتى تُكسر وتفسد، والطاووس ربما صار ذَنَبُه الذي هو حسنه وجماله وبالًا عليه فاحتال (فإذا احتال) [لا حاجة لما بين القوسين] إلى الخفة والنجاة ممن يطلبه فيشغله عن ذلك ذَنَبه، والفرس الجواد القويُّ ربما أهلكه ذلك فأُقصد (كذا) [فأجهد] وأتعب، واستعمل لما عنده من الفضل حتى يهلك» شيخو (الطبعة الثانية ص٨٢). وليست هذه الفقرات أكثر من غيرها تحريفًا.

(١-٣) نسختنا

يُرى مما قدمت أن كتاب «كليلة ودمنة» طُبِع طبعات مدرسية كثيرة تفي بتعليم الناشئة، ولكنه لم يُطبَع طبعة واحدة يطمئن إليها الناقد الذي يتحرى ما كتبه ابن المقفع.

فلم يكن عجيبًا أن يطول البحث والعناء ليُطبع الكتاب طبعة أخرى، وكان من سوء الاتفاق أنَّ هذه الحرب الماحقة التي يَصْلَى بنارها جُناتها وغير جُناتها شبَّت ونحن نتأهب لنشر هذا الكتاب، فلم يتيسَّر لنا تحصيل المخطوطات التي أردناها، ولكن كان من حسن الحظ أن عثرنا على نسخة في مكتبة أيا صوفيا بإسطنبول كُتِبت سنة ٦١٨ﻫ، فهي أقدم من كل المخطوطات التي وصفها المستشرقون، وأقدم من نسخة شيخو المكتوبة سنة ٧٣٩ﻫ والتي رآها شيخو أقدم نسخة مؤرخة فكتب على صفحة العنوان: «أقدم نسخة مخطوطة مؤرخة لكتاب كليلة ودمنة.»

لم يكن القِدَم وحده سببًا لاختيارنا هذه النُّسخة واحتمال العناء الطويل في نشرها، ولكن اجتمعت فيها مزايا ظننا معها أنها جديرة بالنشر، وأن نشرها خطوة سديدة في سبيل نقد الكتاب وتقريبه من أصله جهد المستطاع.

وهذا وصف النسخة وتبيين مزاياها وعيوبها:

عنوان النسخة: «كتاب كليلةٍ ودمنةٍ مما وضعَتْه علماء الهند على لسان الطير والوحش وغير ذلك في الحكم والأمثال»، وتحت العنوان: «يثق بالكافي محمد بن الحجافي»، وتحت هذا ثلاثة أسطر مشطوبة شطبًا يمنع من قراءتها.

وفي آخر النسخة:

> تمَّ الكتاب بعونِ اللهِ وتوفيقهِ، وكان الفراغ منه في مُستهل جمادى الآخر من شهور سنة ثمانية عشر وستمائة، غفر الله لكاتبه ولصاحبه ولمن نظر فيه ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، كتبه لنفسه الفقير إلى الله تعالى المعترف بالتقصير عبد الله بن محمد العمري عفا الله عنه.

وبعد هذا خمسة أبيات في وصف الكتاب.

وبعدها «وحسبنا الله ونعم الوكيل» في سطر، وفي سطر آخر: «كعمعق زهزوق»، وفي سطر آخر: «الحمد لله وحده اه اه اه.»

وبعد هذا سطران فيهما اسم بعض من ملكوا النسخة، ثم البيتان:

[لئن] نال غيري وهو دوني وصالها
وأصبح ذكري عندها غير نافقي [نافقِ]
فكم بيدق للشاه أصحب قاهرًا
ولا زال قدر الشاه فوق البيادقي [البيادقِ]

والظاهر من صفحتي العنوان والخاتمة أنَّ صاحب النُّسخة اسمه محمد بن الحجافي، وأنَّ كاتبها اسمه عبد الله بن محمد العمري، وأنَّ الكاتب من عامة النسَّاخ الذي لا يُجيد النحو ولا رسم الحروف، فقد كتب: «كليلةٍ ودمنةٍ» بالصرف، وكتب: «جمادى الآخر من شهور سنة ثمانية عشر وستمائة»، والصواب: جمادى الآخرة من شهور سنة ثماني عشرة وستماية، وكتب في أبيات في الصفحة الأخيرة: «ألسنتٍ فصيحة» بتاء مفتوحة بدل: «ألسِنةٍ».

ولهذا وقع في النُّسخة تحريفٌ شنيعٌ، وسقطٌ في جملٍ وكلماتٍ وحروفٍ، ورُسِمت بعض الكلمات وأُعجِمت على صورة عجيبة لا توافق حروف العربية، حتى ظننت أنَّ الكاتب لا يحسن قراءة الكتاب، وكان يرسم الحروف كما يراها فيخطئ في كثيرٍ منها، وبيِّنٌ أنَّ نصيب الكلمات الغريبة من هذا التحريف أوفر، وبعض التحريف لا يُفسَّر إلَّا بأنَّ الكاتب كان يستملي فيسيء السمع أو يخطئ الرسم.

وهذه أمثلة من التحريف، وقد وضعتُ تصويبها بين هاتين العلامتين [ ]:

«ثم إن شتربة لم يلبث أن عكن وشحن وسر [... أن عكد وشحم وترَّ]».[٢]

«كان أسدَّ البصيرة، وأبلج الصدر، وأحرى أن يُقدم المزيدة على غيره الشبهة والشك [كان أسدَّ للبصيرة وأثلج للصدر، وأحرى أن يُقدِم المرء به على غير

[٢] انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله اللطيف الخبير العليم القدير القاهر في ملكه
الدايم في عزه العادل في قضايه المنفرد في ملكوته خالق
الخلق وباسط الرزق ليس كمثله شيا وهو السميع البصير
نعم المولى ونعم النصير خلق ادم بيده ونفخ فيه من روحه
واسكن فيه حكمته وتوارث ذلك ذريته فمنهم سعيدا
بارادته وشقيا بقدرته واشهد ان لا اله الا الله وحده
لا شريك له شهادة ارجوا بها الخلاص وافوز بها يوم الافلا ص
واشهد ان محمد عبده ورسوله خلفه للهدى وقد فاز من به
اهتدى صلى الله عليه وعلى اله وصحبه وسلم
هذا كتاب كليله ودمنه وهو مما وضعته علما
الهند من الامثال والاحاديث التي التمسوا بها ابلغ ما
يجدون من القول في النحو الذي ارادوا ولم يزل العقلا من اهل
كل زمان يلتمسون ان يعقل عنهم ويحتالون لذلك بصنوف
الحيل ويطلبون في اخراج ما عندهم من العلل فدعاهم ذلك الى
ان وضعوا هذا الكتاب والحصوا فيه من ابلغ الكلام ومتقنه
على افواه الطير والبهايم والسباع فاجتمع لهم من ذلك امران
اما هم فوجدوا متصرفا في القول وشعابا ياخذون فيها واما هو
فجمع لهوا وحكمة فاختاره الحكما لحكمته والسخفا للهوه واما المتعلمون
من الاحداث وغيرهم فنشطوا لعلمه وخف عليهم حفظه فاذا احتنك
الحدث واجتمع له امره وثاب اليه عقله تدبر ما كان حفظ منه

نموذج من نسختنا الخطية (الصفحة الأولى).

الشبهة والشك]».[٣]

«فإن الكاتم لدم المجرم في رتغ منتفع شركه إياه فيه [فإنَّ الكاتم لجرمِ المجرم في وتغ مبتغ شركه فيه]».[٤]

«لم يقبض المحتال ولا للحسب [لم يقيَّض للجمال ولا للحسب]».[٥]

[٣] انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).

[٤] انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).

[٥] انظر: باب البوم والغربان (الناشر).

«كذلك العالم يبصر الإثم قبيحه والبغي فيعلمه [... يبصر الإثم فيجتنبه، والبر فيعمله]».[٦]
«فاطمئن إلى ما ذكرت وتؤمني [فاطمئن إلى ما ذكرت، وثق به منِّي]».[٧]

ومن التحريف الذي أحسبه نشأ عن الإملاء:

«لقد أورتني [أورطني] الحرص والشره على كبر السن شر مورط».[٨]
«لم يأتي [يأتِ] إليك شيئًا إلَّا وكنتي [كنتِ] ركبتي [ركبتِ] من غيرك مثله».[٩]

وإذا عرف القارئ أنَّ كثيرًا من هذه الجمل المحرَّفة تنفرد بها نسختنا، فلا يُمكن تصحيحها من النسخ الأخرى، وأنَّ بعضها يقابله تحريف مثله أو أشنع منه في نسخة شيخو، تبيَّن مقدار العناء الذي احتُمِل في رد هذه الجمل إلى صواب يطمئن إليه الباحث.

ويرى القارئ مثالًا من تتبُّع الجمل المُحرَّفة في مواضعها من تراجم الكتاب المختلفة في تعليقات باب «البوم والغربان» حيثُ يرى كيف صُحِّحت الجملة: «فإن من يرا كل القتل يرا كل الحيف»، فرُدَّت إلى أصلها: «فإنَّ من يواكل الفيل يواكل الحيف».

مزايا هذه النسخة

ولكنَّ هذه النسخة — على تحريفها وما فيها من سقط — تفضُل النسخ المطبوعة كلها، وتحوي نصًّا يُخالف ما في تلك النسخ مُخالفة بيِّنة، وتمتاز بمزايا منها:

(١) احتواؤها جُملًا طويلة تُشبه ما يُعرف من كلام ابن المقفع في كتبه، وهذه الجمل تُلفَى مختصرة أو مُيَسَّرة في النُّسخ الأخرى، وواضح أنَّ تصرُّف النُّسَّاخ والقُرَّاء يكون بتقريب الكتاب وتيسير جمله لا العكس، فالجمل الطويلة المستغلقة في نسختنا حَريَّة أن تكون أقرب إلى الأصل من الجمل القصيرة اليسيرة التي تقابلها في النُّسخ الأخرى.

[٦] انظر: باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند (الناشر).
[٧] انظر: باب السنور والجرذ (الناشر).
[٨] انظر: باب القرد والغيلم (الناشر).
[٩] انظر: باب اللبؤة والشعهر (الناشر).

(٢) ومنها أنَّ في نسختنا جملًا يتبين فيها أثر الأسلوب الفارسي، وقد غُيِّرَت في النسخ الأخرى بما يُدخلها في الأساليب العربية المألوفة، وهذه أمثلة منها:

«حتى غلب على صاحب البيت النعاس، وحمله النوم»،[١٠] فجملة: «حمله النوم» ترجمة لفظية للجملة الفارسية: «خواب أورا برد»، وفي النُّسخ الأخرى: «فغلب الرَّجل النعاس.»

«وعرفت أني — إن أوافِقه على ما لا أعلمُ — أكُن كالمصدِّق المخدوع الذي زعموا أنَّ جماعة من اللصوص ذهبوا إلى بيتِ رجلٍ من الأغنياء ... إلخ»،[١١] وظاهرٌ أن «الذي» هنا ليست ملائمة للسياق، وليس بعدها عائدٌ على الموصول، ويُقابل «الذي» في الفارسية: «كه»، ولكن «كه» تأتي أيضًا للتعليل أو التفريع، فكان ينبغي أن تترجم الجملة: فقد زعموا ... إلخ، ولكن المترجم وضع «الذي» هنا موضع «كه» التي جاءت في الأصل الفارسي للتفريع، وهي في غير موضعها، وفي النسخ الأخرى: «الذي زعموا فيه» أو «في شأنه» وهي زيادة لتعريب الجملة، وفي شيخو (ص٣٤): «كالمصدِّق المخدوع مثل الذي (كذا) زعموا أنه ذهب سارق ... إلخ.»

«وأمَّا مَن دونه فقد تجري أمورهم فنونًا يغلب على أكثر ذلك الخطأ»،[١٢] فوضْع «ذلك» موضع الضمير فيه شبَه بالعبارة الفارسية.

«فسأله رجلٌ فقال»،[١٣] تشبه هذه الجملة التعبير الفارسي: «برسيده گفت»، «وتركوا التاج على رأسه»،[١٤] فاستعمال «تركوا» في موضع «وضعوا» يشبه أن يكون ترجمة للكلمة: «گذاشتند»، وهي تأتي بمعنى «الترك» وبمعنى «الوضع»، وقد تُرجمت هنا بالمعنى الأول، والأولى بها المعنى الثاني.

---

[١٠] انظر: باب عرض الكتاب (الناشر).

[١١] انظر: باب برزويه الطبيب (الناشر).

[١٢] انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).

[١٣] انظر: باب ابن الملك وأصحابه (الناشر).

[١٤] انظر: باب ابن الملك وأصحابه (الناشر).

(٣) ومن مزايا نُسختنا كذلك استعمال كلمات صحيحة غير شائعة، وهذه الكلمات تغيَّر في النسخ الأخرى إلى كلماتٍ مألوفة، ومن أمثلة هذا:

«آلمال أم اللذاتُ أم الصوتُ أم أجرُ الآخرة؟»،[١٥] فاستعمال «الصوت» بمعنى «الصيت» صحيح، ولكن النسخ الأخرى غيرته إلى «الصيت» أو «الذِّكر»، وفي نسخة «شيخو» (ص٣١): «الصون»، وهو تحريف «الصوت».
«فقال الأسد لقرابينه»،[١٦] فاستعمال كلمة «قرابين» بمعنى خاصة الملك، وتغييرها في النسخ الأخرى إلى «جلسائه» ونحوها إيثارًا للكلام المألوف.
«السلطان»[١٧] استُعمِلَت هذه الكلمة بمعنى الجمع، وهو استعمال قديم صحيح، وقد استعمِل في النسخ الأخرى بمعنى المفرد.
«وكانت لملكهم ابنة كريمة، وكانت حاملًا فأصابها بَطَن»[١٨] «البطن» وجع البطن، وقد غُيِّرت في النسخ الأخرى إلى «وجع البطن.»
«فإنَّ أولى أهل الدنيا بطيب العيش وكثرة السرور وحسن الثناء من لا يزال رَحله موطوءًا من إخوانه»[١٩] ومثل هذا في شيخو من التحريف؛ يُقابل هذا في النسخ الأخرى: «من لا يزال ربعه من إخوانه وأصدقائه معمورًا»، فقد غيَّر «رحله موطوءًا» إلى «ربعه معمورًا» تقريبًا للعبارة.

فتغيير النسخ الأخرى هذه الجمل أُريد به تيسير الكتاب، والنسخة التي تشتمل على الألفاظ الصحيحة المُستعملة عند خاصَّة الكتَّاب أقرب إلى الأصل من النسخ التي تُقابل هذه الألفاظ بألفاظ شائعة مألوفة عند عامة القراء.

(٤) ويقرب من هذا حرص نُسختنا على ذكر أسماء للمدن والأشخاص لا تُذكَر في النسخ الأخرى، وحفظها لبعض الأسماء صيغًا أغرب مما في غيرها، وهذا كثيرٌ يمكن

---

[١٥] انظر: باب برزويه الطبيب (الناشر).
[١٦] انظر: باب الأسد والثور (الناشر).
[١٧] انظر: باب الأسد والثور (الناشر).
[١٨] انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).
[١٩] انظر: باب الحمامة المطوقة (الناشر).

تتبعه في كل فصول الكتاب، ومن أمثلة هذا اسما الرجلين: «آذرهربد»،[٢٠] و«أزويه»،[٢١] واسم الأسد: «بنكلة»،[٢٢] وأرض «مردات»،[٢٣] ومدينة «برود»،[٢٤] وانظر الأسماء في باب «إبلاد وإيراخت وشادرم».

والظاهر أنَّ النسخ الأخرى حذفت هذه الأسماء الأعجمية اختصارًا وتخفيفًا على القرَّاء.

(٥) والخامس مما تفضل به نسختنا النسخ المطبوعة أنَّ نصوصها أقرب في الجملة إلى النصوص التي تُلفى في كتب قديمة مثل كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦، ففي هذا الكتاب جملٌ كثيرة منقولة عن كتاب «كليلة ودمنة» ينسبها المؤلف إلى هذا الكتاب تصريحًا، أو يقول: «وقرأت في كتاب للهند»، والظاهر أنَّ ابن قتيبة لا يلتزم نص الكتاب دون تغيير، ولكن ما نقله يصلح أن يكون بألفاظه أو معانيه مقياسًا بين النسخ المتأخرة من هذا الكتاب.

ويرى القارئ أمثلة فيما يأتي:

(أ) عيون الأخبار: «وإنما تشبه بالجبل الوعر فيه الثمار الطيبة والسباع العاديَة، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشد» (ج١ ص١٩).

نسختنا: «وإنما شبَّه العلماء السلطان بالجبل الوعر الذي فيه الثمار الطيبة، وهو معدن السباع المخوفة، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشد وأهول».[٢٥]

النسخ الأخرى: «وإنما شبَّه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذي فيه الثمار الطيبة، والجواهر النفيسة، والأدوية النافعة، وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضارٍّ مخوف، فالارتقاء إليه شديد والمقام فيه أشدُّ» طبارة (الطبعة الرابعة ص٩٦).

[٢٠] انظر: باب توجيه كسرى أنو شروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر).

[٢١] انظر: باب توجيه كسرى أنو شروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر).

[٢٢] انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

[٢٣] انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

[٢٤] انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).

[٢٥] انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

(ب) عيون الأخبار: «إنَّما مثل السلطان في قلة وفائه للأصحاب وسخاء نفسه عمَّن فقد منهم مثل البغي والمكتِّب كُلَّما ذهب واحد جاء آخر» (ج١ ص٢٥).

نسختنا: «إنما مثلهم في قلة وفائهم لأصحابهم وسخاء أنفسهم عمَّن فقدوا منهم مثل البغي كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه».[٢٦]

النسخ الأخرى: لا تلفى هذه الجملة.

(ج) عيون الأخبار: «ثلاثة أشياء تزيد في الأُنسِ والثقة: الزيارة في الرحل، والمؤاكلة، ومعرفة الأهل والحشم» (ج٢ ص٢٤).

نسختنا: «إن أمورًا ثلاثة تزداد بها لطافة ما بين الإخوان، واسترسال بعضهم إلى بعض، منها المؤاكلة، ومنها الزيارة في الرَّحل، ومنها معرفة الأهل والحشم».[٢٧]

النسخ الأخرى: لا توجد الجملة في المصرية وطبارة. وفي اليازجي: «فإنَّ أفضل ما يلتمسه المرء من أخلائه أن يَغْشَوا منزله، وينالوا من طعامه وشرابه، ويعرفهم أهله وولده وجيرانه» اليازجي (ص٢٧٢).

(د) عيون الأخبار: «ثلاثة يُهزأ بهم: مدَّعي الحرب ولقاءِ الزحوفِ وشدةِ النكاية في الأعداء وبدنُه سليم لا أثرَ به، ومنتحِل علم الدين والاجتهاد في العبادة، وهو غليظ الرقبة أسمن الأثمة ... إلخ» (ج٢ ص٢٠).

نسختنا: «ثلاثة ينبغي أن يُسخر منهم: الذي يقول شهدت زحوفًا كثيرة فأكثرت القتل ولا يُرى في جسمه شيءٌ من آثار القتال، والذي يُخبر أنه عالم بالدين ناسك مجتهد وهو بادن غليظ الرقبة لا يُرى عليه أثر التخشع ... إلخ».[٢٨]

النسخ الأخرى: في شيخو قريب مما هنا بعد تصحيح التحريف الشنيع، ولا توجد الجملة في النسخ الأخرى.

(هـ) وكذلك الجملة: «أربعة يخافون مما لا ينبغي ... إلخ.» نسختنا[٢٩] يُرى نظيرها في «عيون الأخبار»، ولا تُعرف في النسخ الأخرى.

---

[٢٦] انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

[٢٧] انظر: باب القرد والغيلم (الناشر).

[٢٨] انظر: باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند (الناشر).

[٢٩] انظر: باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند (الناشر).

(و) ونجد مثالًا آخر في هذه الجملة من نسختنا:[٣٠] «كالأسد الذي يفترس الأرنب، فإذا رأى العَير تركها وأخذه»، في نسخة شيخو (ص٥٦): «فإذا رأى الأتان»، وفي النسخ الأخرى: «البعير»، وفي منظومة أبان بن عبد الحميد التي نظمها للبرامكة:

كالأسد الذي يصيد أرنبًا   ثم يرى العَير المجدَّ هربا
فيرسل الأرنب من أظفاره   ويتبع العَير على إدباره

(١-٤) نماذج من اختلاف النُّسخ

يحار قارئ الكتاب فيما بين نسخه من تخالف وتقارب واتفاق: في بعض الصفحات تختلف النُّسخ اختلافًا بيِّنًا، وفي بعضها تتقارب في المعنى واللفظ، وفي أُخرى تتفق؛ ولكن الاتفاق يندر بين نسختنا والنسخ المطبوعة في مصر والشام، حاشا شيخو فإنَّ موافقتها نسختنا كثيرة، بل توافقهما أكثر من تخالفهما.

وليست أبوابُ الكِتَابِ سواءً في تقارب النُّسخ وتباعدها، بل بعض الأبواب كباب «إبلاد وإيراخت وشادرم» يتضح فيه تقارب النسخ، وبعضها كباب «الأسد والثور» يتضح فيها التباعد، كأنَّ الأبواب الأكثر نصيبًا من عناية القرَّاء كانت أكثر نصيبًا من التغيير، على أنَّ الباب الواحد فيه فصول مُتقاربة وأخرى متباعدة.

وسأبحثُ في أسباب اختلاف نسخ الكتاب حين الكلام على ترجمته إلى العربية، وأعرض فيما يلي على القارئ قصة السمكات الثلاث منقولة من نُسخٍ مختلفةٍ؛ لتكون مثالًا لما بينها من تباعد وتقارب:

نسختنا: «زعموا أنَّ غديرًا كان فيه ثلاثُ سمكاتٍ: كيِّسة، وأكيسُ منها، وعاجزة، وكان ذلك المكان بنجوةٍ من الأرض، لا يكاد يقرُبه من الناس أحد، فلمَّا كان ذات يوم مرَّ صيادان على ذلك الغدير مجتازَيْن، فتواعدا أن يرجعا إليه بشِباكهما فيصيدا الثلاث السمكات اللواتي رأياهنَّ فيه، فلمَّا رأتهما الحازمة ارتابت بهما، وتخوَّفت منهما، فلم تعرِّج أن خرجت من مدخل الماء إلى النهر، وأمَّا الكيِّسة فتلبَّثت حتى جاء الصيادان،

[٣٠] انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

فلمَّا أبصرتهما قد سدَّا مخرجها، وعرفت الذي يريدان بها قالت: فرَّطتُ، وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاص، وقلَّما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكنَّ العالِم لا يقنطُ على كل حال، ولا يدعُ الأخذ بالرأي، ثم تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبة، فأخذاها فألقياها على الأرض غير بعيدٍ من النهر، فوثبت فيه فنجت منهما، وأمَّا العاجزة فلم تَزَلْ في إقبال وإدبار حتى صاداها».[٣١]

شيخو: «زعموا أنَّ غديرًا كان فيه ثلاث سمكات عظام، وكان ذلك الغدير بفجوة من الأرض لا يقربها أحد، فلَمَّا كان ذات يوم من هنالك (كذا) أتى صيَّادان مجتازان، فتواعدا أن يرجعا بشبكتهما فيصيدا تلك السمكات الثلاث التي رأيا فيه، وأن سمكة منهن كانت أعقلهن وإنما ارتابت وتخوَّفت فعاجلت الأخذ بالحزم، فخرجت من مدخل الماء الذي كان يخرج من الغدير إلى النهر، فتحوَّلت إلى مكان غيره، وأمَّا الأخرى التي كانت دونها في العقل فأخَّرت معاجلة الحزم حتى جاء الصيَّادان فقالت: قد فرَّطت وهذه عاقبة التفريط، فرأتهما وعرفت ما يُريدان، فوجدتهما قد سدَّا ذلك المخرج، فقالت: قد فرَّطتُ فكيف الحيلة على هذا الحال للخلاص؟ وقلَّ ما تنجح حيلة العجلة والإرهاق، ولكن لا نقنط على حال ولا ندع ألوان الطلب، ثم إنَّها للحيلة تماوتت فطفت على الماء منقلبة على ظهرها فأخذاها (فأخذها) الصيَّادان يحسبان أنها ميتة، فوضعاها على شفير النهر الذي يصبُّ في الغدير فوثبت في النهر فنجت من الصيَّادين، وأمَّا العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صِيدَتْ» (ص٧٥).

اليازجي: «زعموا أن غديرًا كان فيه ثلاث من السمك: كيِّسة وأكيس منها وعاجزة، وكان ذلك الغدير بنجوةٍ من الأرض لا يكاد يقربه أحد وبقربه نهر جارٍ، فاتَّفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان فأبصرا الغدير فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك، فسمع السمكات قولهما، فأمَّا أكيسهن فلمَّا سمعت قولهما ارتابت بهما وتخوَّفت منهما، فلم تعرج على شيءٍ حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير فنجت بنفسها، وأمَّا الكيِّسة الأخرى فإنها مكثت مكانها وتهاونت في الأمر حتى جاء الصيَّادان، فلمَّا رأتهما وعرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء؛ فإذا بهما قد سدَّا ذلك المكان، فحينئذٍ قالت: فرطتُ وهذه عاقبة التفريط،

[٣١] انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

فكيف الحيلة على هذه الحال وقلَّما تنجح حيلة العجلة والإرهاق، غير أنَّ العاقل لا يقنط من منافع الرَّأي ولا ييأس على حال ولا يدع الرأي والجهد، ثم إنَّها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها، فأخذاها الصيادان وظنَّاها ميتة، فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت إلى النهر فنجت، وأمَّا العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صِيدَت.» (ص١٤٤).

(١-٥) نسختنا ونسخة شيخو

أقرب النسخ إلى نسختنا نسخة شيخو، وهي على كثرة تحريفها واضطرابها تقارب نسختنا في أكثر الفصول، وقد تختلفان بالزيادة والنقص والإجمال والتفصيل واختلاف الألفاظ.

ونجد فيهما جملًا مستغلقة لم يتصرف فيها الكُتَّاب كما تصرفوا في الأخرى، نجد في باب «بعثة برزويه» أثناء الكلام على برزويه وصديقه الهندي هذه الجملة:

«فلم يطمئن إلى أحدٍ منهم إلَّا إلى صديقه ذلك عندما ورد عليه، وكيف فتَّش عقله ووثق به واطمأن إليه أن قال له ... إلخ» نسختنا وقد أصلحتُ العبارة.[٣٢]
«وكان ممَّا حكم به برزويه صديقه ذلك، والذي ردَّ عليه، وكيف فتَّش عقله حتى وثق به واطمأنَّ إليه أن قال له» شيخو (ص٢٢).

وهي جملة مضطربة متشابهة في النسختين.
وبعد هذه الجملة بسطر نجد في النسختين:

«فاعلم أني لأمرٍ جئت، وهو غير ما ترى يظهر مني» نسختنا.[٣٣]
«فاعلم أني لأمر ما جئت له، وهو غير ما ترى يظهر مني» شيخو (ص٢٢).

[٣٢] انظر: باب توجيه كسرى أنو شروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر).
[٣٣] انظر: باب توجيه كسرى أنو شروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر).

فالجملة: «وهو غير ما ترى يظهر مني» على غرابتها مشتركة فيهما، وقد غُيِّرت في النسخ الأخرى إلى: «وهو غير الذي يظهر مني.»

وهذه الجمل المُستغربة في هاتين النُّسختين تدلَّان على أصل صحيح تنتهيان إليه، ومن العجيب أنهما تتفقان أحيانًا على تحريف، ففي قصة «الأسد والشعهر»:

«فلمَّا اجتمعوا على ذلك من كيدهم؛ دسُّوا ذاتَ يوم للحم كان الأسد استطرفه.» نسختنا.[٣٤]
«فلمَّا أجمعوا على ذلك لكيدهم دسُّوا ذات يوم للحمٍ كان الأسد استطرفه» شيخو (ص٢٢١).

والصواب: «دبُّوا» وقد حُرِّفت في النُّسختين إلى: «دسُّوا».
وفي الباب نفسه نجد في النسختين:

«وذلك سريعًا في إضاعة الأمر، وجلب عظيم الخطر.» نسختنا.[٣٥]
«وذلك سريعًا (كذا) في ضياعة الأمر وانتشاره وجلب عظيم الضرر والعيب» شيخو (ص٢٢٣).

والصواب: «سريع» وقد حرِّفت في النسختين إلى: «سريعًا».
وبعد هذا بقليل:

«كصاحب الخمر الذي أراد شراءها احتاج إلى اختبار لونها وطعمها.» نسختنا.[٣٦]
«كصاحب الخمر الذي أراد أن يشتريها احتاج إلى اختبار لونها وطعمها وريحها» شيخو (ص٢٢٤).

والظاهر أنَّ الصواب: «كصاحب الخمر إذا أراد ... إلخ.»

[٣٤] انظر: باب الأسد وابن آوى (الناشر).
[٣٥] انظر: باب الأسد وابن آوى (الناشر).
[٣٦] انظر: باب الأسد وابن آوى (الناشر).

وفي باب ابن الملك وأصحابه:

«ثم قال بعضهم لبعضٍ: انصرفوا يومكم هذا حتى نكسر عليكم ويرخصوه علينا.» نسختنا.[٣٧]
«انصرفوا يومكم هذا حتى نكسر عليهم فيرخصوا علينا» شيخو (ص٢٣٥).

والظاهر أنَّ كلمة: «نكسر» محرفة من: «يكسُد».
وفي باب «الناسك والضيف» في النسختين:

«وليس في بلادي الذي أسكنها» نسختنا.[٣٨]
«وليس في بلادي الذي (التي) أسكنها» شيخو (ص٢٤٣).

والصواب: «التي» وقد حُرِّفت في النسختين إلى: «الذي».
وأرى أنَّ الاتفاق على هذا التحريف يدلُّ على أصلٍ واحدٍ قد بعُدت الوسائط بينهما وبينه، وقد أصابَ نسخة شيخو من التحريف ما لم يُصِبْ نسختنا.

(٢) القسم الثاني: أصول الكتاب وتراجمه وأبوابه

(٢-١) الشرق مهد الأمثال

بلاد الشرق مهد القصص والأمثال المضروبة على ألسن الحيوان، وكانت الهند خاصةً مهد قصص حكيمة شاعت في أرجاء الأرض، انتقلت إلى بلاد الصين والتُّبَّت وإيران، وبلغت أوروبا في عصور قديمة، وكثيرٌ من أساطير إيسوب Æsop تتخللها أمثالٌ شرقية.
وذاعت من بين قصص الهند وأمثالها طائفةٌ من القصص جُمِعت في كتابين، أحدهما مأخوذ من الآخر، أو كلاهما مأخوذٌ من أصل واحد على اختلافهما في الأسلوب وفي بعض القصص.

---

[٣٧] انظر: باب ابن الملك وأصحابه (الناشر).

[٣٨] انظر: باب الناسك والضيف (الناشر).

يعرف أحد هذين الكتابين باسم: «بنج تنترا» أي: خمسة أبواب، وقد عثر عليه الأستاذ هِرتِل، وعُني به الباحثون، وطُبِع وتُرجِم إلى لغات أوروبية عدة، ويرى هِرتِل أنَّ مؤلفه حكيم هندي اسمه: بَرَهمن وِشنو، ألَّفه حوالي سنة ٣٠٠م.

ويُسمى الكتاب الثاني: «هِتوبادشا» أي: نصيحة الصديق، وقد شاع في أوروبا، وتُرجِم إلى بعض لغاتها وتُرجم إلى الإنجليزية ثلاثَ مرَّات.

(٢-٢) كليلة ودمنة: كتاب هندي

يقول ابن خَلِّكَان: «ويُقال إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب كليلة ودِمنة، وقيل إنه لم يضعه، وإنما كان فارسيًّا فنقله إلى العربية، وإن كان الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه.» وقد شكَّ بعض الناس في أمر الكتاب، ورددوا رواية ابن خلكان، وهذا كلام لا وزن له.

فلم يبقَ ريبٌ في أنَّ الكتاب هندي الأصل، وقد عُثِر على معظم أبوابه في الكتابين: «بنج تنترا» و«هتوبادشا» من الكتب الهندية.

وقد عَرَف هذا من قبل العلامةُ المحقق أبو الريحان البيروني، فقال في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»:

> ولهم (أي للهند) فنونٌ من العلم أُخر كثيرة، وكتبٌ لا تكاد تُحصى، ولكني لم أُحِط بها علمًا، وبودِّي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب بنج تنترا، وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة، فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمَن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب برزويه فيه قاصدًا تشكيك ضَعْفَى العقائد في الدين، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية، وإذا كان متهمًا فيما زاد لم يخْلُ عن مثله فيما نقل.

ليس لدينا إذن ما يدعو إلى الشك في الرواية المتداولة أنَّ هذا الكتاب تُرجِم من الهندية إلى الفهلوية، ثم تُرجِم إلى العربية في القرن الثاني من الهجرة، وأمَّا الأخبار التي يتضمنها باب «بعثة برزويه» فسنعرض لها من بعد.

(٢-٣) نقل الكتاب من الهندية إلى الفهلوية

ليس عندنا ما يمنع من قبول ما تضمنه باب «بعثة برزويه» من أنَّ الكتاب نُقِل إلى الفهلوية في عهد كسرى أنو شروان، نقله بعض أطباء الفرس الذين ساحوا في بلاد الهند وعرفوا اللغة الهندية.

هذا هو الأصل الذي كُتِب عليه باب «بعثة برزويه»، وهو جدير بالقبول، وليس لدينا ما يدعو إلى الشكِّ فيه، وأمَّا إرسال كسرى برزويه إلى الهند لينقل الكتاب إلى الفهلوية، واحتياله للاطلاع على الكتاب، ومبالغة الهند في منع الأجانب أن يطلعوا على كتابهم، فهو مما حاكه الخيال لإكبار برزويه والإعجاب بعمله والإشادة به وتعظيم قدر الكتاب.

وقصة سفر برزويه إلى الهند ترويها «الشاهنامه» وكتب الثعالبي «غُرر أخبار ملوك الفرس»، ولكن قصة «الشاهنامه» تخالف ما هنا بعض المخالفة، وإليك إجمالها:

جاء برزويه إلى أنو شروان، وقال: أيُّها الملك، إني قرأت في كتاب هندي أنَّ في جبال الهند عشبًا إذا رُكِّب منه دواءٌ فنُثِر على ميت ارتد حيًّا، فجهَّزه أنو شروان وسيَّره إلى الهند، وبعث معه كتابًا إلى الملك؛ فلمَّا أخذ ملك الهند الهدايا وقرأ الكتاب جمع علماءه وسيَّرهم مع برزويه لطلب هذا العُشب في الجبال، فجمعوا كل ضرب من العشب وجرَّبوه، فما أحيا ميِّتًا، فندم برزويه على ما جشم نفسه من مشاقِّ السفر والطلب، وتحيَّر ماذا يقول للملك أنو شروان، ثم سَألَ من كان معه من العلماء: أتعرفون في الهند أعلم منكم؟ قالوا: نعم، شيخٌ يفضلنا علمًا وسنًّا، فلما جاءه وقصَّ عليه القصص قال: أمَّا الجبال فهي العلوم، وأمَّا الموتى فهم الجُهَّال، وأمَّا العشب فكتاب في خزائن ملك الهند يُسمى «كليلة ودمنة» يحيي موتى الجهل، فأسرع برزويه إلى ملك الهند يرجو أن يطَّلع على الكتاب، فاغتم الملك، وقال: ما طلب أحد هذا الطلب من قبل، ولكنا لا نضنُّ على الملك أنو شروان بشيء، وأمر أن يؤتى بالكتاب وأن يطلع برزويه عليه أمامه حتى لا يظنَّ أحدٌ أنه نَسَخه، فكان برزويه يقرأ كل يوم فصلًا، إلى آخر ما في القصة التي في باب «بعثة برزويه».

(٢-٤) هل تُرجِم الكتاب إلى العربية أكثر من مرة؟

يقول صاحب «الفهرست» وهو يعدِّد أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث: «كتاب كليلة ودمنة، وهو سبعة عشر بابًا، وقيل: ثمانية عشر بابًا، فسَّره عبد الله بن المقفع وغيره»، والتفسير هنا معناه الترجمة.

وقد نقل الأب شيخو الجملة الآتية من نسخة محفوظة في مكتبة أيا صوفيا، مكتوبة سنة ٨٨٠هـ:

> هذا كتاب كليلة ودمنة الذي استخرجه برزويه المتطبب الحكيم من بلاد الهند، ونقله من الهندية إلى الفارسية لكسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز ملك فارس، ونقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن علي الأهوازي ليحيى بن خالد بن برمك، في خلافة المهدي أحد خلفاء بني العباس، وذلك في سنة خمس وستين ومائة، وقد نظمه سهل بن نوبخت الحكيم الفاضل ليحيى بن خالد البرمكي وزير المهدي والرشيد، فلمَّا وقف عليه ورأى حسن نظمه أجازه على ذلك ألف دينار (مقدمة شيخو ص٢٠).

فهذا تصريح باسم مترجم غير ابن المقفع. وفي «كشف الظنون» لحاجي خليفة:

> ثم ترجمه في الإسلام عبد الله بن المقفع كاتب أبي جعفر المنصور العباسي من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، ثم نقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن هلال الأهوازي ليحيى بن خالد البرمكي في خلافة المهدي، وذلك في سنة خمس وستين ومائة، ونظمه سهل بن نوبخت الحكيم ليحيى بن خالد المذكور وزير المهدي والرشيد، فلمَّا وقف عليه أجازه بألف دينار.

لا يستطيع الباحثُ أن يقطع رأيًا فيما نقله شيخو عن نسخة أيا صوفيا حتى يرى النسخة، ويرى موضع هذه الجملة في مُقَدِّمتها، هل هي مُلحقة بقلم أحد القرَّاء أو هي من متن النسخة؟ فإن كانت الأولى فلعلها نقلت عن «كشف الظنون»، وإن كانت الثانية فلعل صاحب «كشف الظنون» نقلها، والعبارتان متشابهتان في الكتابين.

وأمَّا إغفال اسم ابن المقفع في النُّسخة التي ذكرها شيخو، فلا يدلُّ على أنَّها ترجمة أخرى تخالف النسخ التي بأيدينا، فإنَّ النخسة، وكما يتبين من قطعة نقلها شيخو من باب «الأسد والثور»، تُشابه النُّسخ الأخرى مشابهة قريبة، وأكبرُ الظَّنِّ أنَّ بعض النسَّاخ

أو القرَّاء كتب في صدر الكتاب ما كتب نقلًا عن بعض الكتب التي ذكرت من ترجموا «كليلة ودمنة».

ومهما نَقُلْ في إغفال هذه النُّسخة اسمَ ابن المقفع واقتصارها على اسم المترجم الآخر، فقد اجتمع لنا ثلاثة نصوص تذكر غير ابن المقفع: صاحب «الفهرست» يقول: «فسَّره عبد الله بن المقفع وغيره»، ونسخة أيا صوفيا، و«كشف الظنون» يُسَمِّيان: «عبد الله بن علي الأهوازي» أو «عبد الله بن هلال الأهوازي».

وهذه مسألة لها خطرها في تاريخ الكتاب واختلاف نسخه.

(٢-٥) هل يُفسَّر اختلاف النسخ باختلاف الترجمة؟

قلتُ فيما تقدم إنَّ نُسَخ الكتاب تختلف اختلافًا يدعو الباحث إلى أن يظن أنَّ الكتاب تُرجِم أكثر من مرة، فهل اختلاف النسخ التي أمامنا يرجع إلى اختلاف الترجمة؟

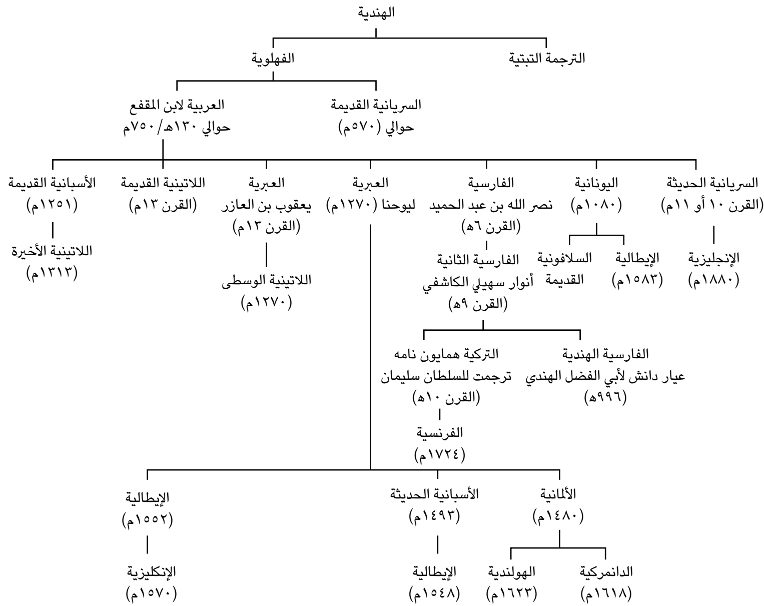
هذا البحثُ لا يمكن أن يوفَّى حقَّه من النظر ومقابلة النصوص إلَّا بعد الاطلاع على مخطوطات صحيحة مُتَعَدِّدة، وليس لدينا الآن من النصوص التي يُوثَق بها بعضَ الثِّقَة إلَّا نسختنا ونسخة شيخو، وهما متقاربتان لا يمكن أن تكونا ترجمتين مختلفتين، وإنما الخلاف الكثير بينهما وبين النسخ الأخرى الملفَّقة كما بيَّنت آنفًا، وهذا التلفيق يمنعنا أن نقطع رأيًا في هذا الشأن، فإني أجدُ اختلافًا بين نسختنا وهذه النسخ يُشبه أن يكون اختلافًا بين ترجمتين، ثم أجد جملًا مُتَماثلة لا تصدر إلَّا عن كاتب واحد، ولستُ أستطيعُ أن أتبيَّن صلة هذه الجمل المتماثلة بالمتون المختلفة لما دخل النصوص من التلفيق.

على أني — مع إعواز النصوص التي تُعِينُ على صحة الرأي — أرجِّح أنَّ اختلاف النسخ التي بين أيدينا ليس اختلاف ترجمة إلَّا في زيادة بعض الأبواب ونقصها، وهي أبواب يتبين فيها أسلوب يُخالف أسلوب ابن المقفع، وسيأتي بيان هذا.

فإن لم يكن اختلاف النسَخ اختلاف ترجمة، فكيف وقع في الكتاب؟ قبل إجابة هذا السؤال ينبغي أن نجيب سؤالًا آخر: لماذا تُرجِم الكتاب أكثر من مرة؟

ترجمه عبد الله بن المقفع، ثم ترجمه عبد الله بن هلال الأهوازي، ونظمه أبان اللاحقي ثم سهل بن نوبخت ثم ابن البتارية من بعد.

وكذلك تُرجِم من العربية إلى الفارسية أيام السامانيين، ثم ترجمه نصر الله بن عبد الحميد في عهد الغزنويين، ثم ترجمه الكاشفي في القرن العاشر، ونُظِم بالفارسية أكثر من مرة.



وكذلك تعددت تراجم الكتاب في بعض اللغات الأوروبية (انظر جدول التراجم).

سبب تعدد الترجمة في اللغة الواحدة أنَّه كتاب أدبي ذو قصص ومواعظ، يختلف الكتَّاب في إجمالها وتفصيلها، وفي طريقة قصصها وأسلوب بيانها، فرُبَّما يبدو لمترجم أن يُخالف من سبقه بالإجمال والتفصيل أو التأنق في العبارة وتيسيرها، وهكذا.

وهذا السبب الذي دعا إلى تعدد تراجم الكتاب في اللغة الواحدة هو الذي أدى إلى اختلاف نُسَخه وإن رجعت إلى ترجمة واحدة، فقد لقيَ هذا الكتاب من عناية الأدباء والمؤدبين ما جعله كتاب تأديب، وحاول بعض الكتَّاب والمؤدِّبين أن ييسِّروا بعض عباراته أو يُغرِبوا فيها، وأن يوجزوا فيها أو يُطنِبوا، فكان من ذلك اختلاف نُسخ الكتاب.

ولعل تعدد الترجمة قد يسَّر للناس التصرف في أسلوب الكتاب بعد قياس ترجمة بأخرى، أو سوَّغ لهم أن يدخلوا عبارات ترجمة في عبارات ترجمة أخرى وهكذا، ولعلَّ

أسلوب ابن المقفع — وهو طويل الجمل مُستغلق أحيانًا — دعا إلى تغيير كثير في متن الكتاب.

وبعدُ؛ فهي قضيَّة لا بدَّ للفصل فيها من مقايسة مخطوطات لا نستطيع الاطلاع عليها الآن، وعسى أن تُتاح الفرصة من بعد بتوفيق الله.

(٢-٦) أبواب الكتاب

الأبواب التي تحتويها النسخ المُختلفة من هذا الكتاب تنقسم إلى الأقسام الآتية:

(١) المقدمات وهي: «مقدمة علي بن الشاه الفارسي»، «عرض الكتاب لابن المقفع»، «بعثة برزويه إلى بلاد الهند»، «باب برزويه الطبيب».

(٢) الأبواب الخمسة الأولى، بعد استثناء «باب الفحص عن أمر دمنة»، وهي الأبواب التي يحتويها الأصل الهندي «بنج تنترا»: «الأسد والثور»، «الحمامة المطوقة»، «البوم والغربان»، «القرد والغيلم»، «الناسك وابن عرس».

ويتبع هذا القسم باب «الفحص عن أمر دمنة»، وهو بعد باب «الأسد والثور» ومكمل له، وباب «السائح والصواغ» وقد جاءت قصته في أثناء الباب الأول من «بنج تنترا».

(٣) والقسم الثالث: الأبواب الثلاثة التي تلي الخمسة المعدودة في القسم الثاني، وهي معروفة في كتاب «المهابهارتا»: «الجرذ والسنور»، «الملك والطائر»، «الأسد وابن آوى».

(٤) والقسم الرابع: الأبواب الأخرى، وهي قسمان:

(أ) الأبواب التي تتفق عليها النسخ وهي: «إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند»، «اللبؤة والأسوار»، «الناسك والضيف»، «ابن الملك وأصحابه».

(ب) الأبواب التي توجد في بعض النسخ دون بعض، وهي: «ملك الجرذان»، «مالك الحزين والبطة»، «الحمامة والثعلب ومالك الحزين».

فهذه واحدٌ وعشرون بابًا تتضمنها نسخ الكتاب على اختلافها، وإذا تركنا المقدمات جانبًا، وأخرجنا الأبواب الأخيرة التي تختلف فيها النسخ؛ بقي أربعة عشر بابًا، منها تسعة معروفة في اللغة السنسكريتية، وهي الخمسة التي في «بنج تنترا» وباب «السائح والصواغ» الذي يتضمنه الباب الأول من ذلك الكتاب، والثلاثة التي في «المهابهارتا»،

والخمسة الباقية لم تُعرف في اللغة الهندية حتى اليوم، وهي باب «الفحص عن أمر دمنة» والأبواب الأربعة الأولى من القسم الرابع.

ونجد في الترجمة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد فهرس الكتاب في نهاية باب «بعثة برزويه» على هذه الصورة: «وكتاب كليلة ودمنة هذا ستة عشر بابًا، منها الأصلي الذي وضعه الهند وهو عشرة أبواب، ومنها ما ألحقه الفرس وهو ستة أبواب»، ثم يذكر العشرة الهندية، وهي خمسة الأبواب الأولى التي يتضمنها «بنج تنترا»، وباب «الفحص عن أمر دمنة»، وثلاثة الأبواب التي في «المهابهارتا» يُزاد عليها باب «الأسوار واللبؤة»، ويعدِّد المترجم بعدها الأبواب التي ألحقها الفرس، وهي بابان من المقدمات وأربعة من أبواب الكتاب.

وهذا نسق الأبواب كلها كما ذكرت في هذا الفهرس:

الأبواب الهندية

(أ) «الأسد والثور»، «الفحص عن أمر دمنة»، «الحمامة المطوقة»، «البوم والغربان»، «القرد والسلحفاة»، «الناسك وابن عرس»، (وهي الخمسة التي في بنج تنترا).

(ب) «الجرذ والسنور»، «الملك والطائر»، «الأسد وابن آوى»، (وهي الثلاثة التي في المهابهارتا).

(جـ) «الأسوار واللبؤة».

الأبواب الفارسية

(أ) «ابتداء كليلة ودمنة» (وهو الذي يُسمَّى في النسخ الأخرى باب «عرض الكتاب لابن المقفع»، وهو في هذه النسخة منسوب إلى بزرجمهر)، وباب «برزويه الطبيب».

(ب) «الناسك والضيف»، «إيلاد والبراهمة»، «السائح والصايغ»، «ابن الملك وأصحابه».

وأعرض على القارئ في الصفحات التالية تفصيل الكلام في أبواب الكتاب كلها.

القسم الأول من أبواب الكتاب: المقدمات

فأمَّا «مُقدمة علي بن الشاه الفارسي» فلا ريبَ أنها زِيدَت على بعض النسخ العربية بعد ابن المقفع بقرنين أو أكثر، وقد خلت منها كثيرٌ من النسخ العربية القديمة كنسختنا ونسخة شيخو، كما خلت منها التراجم التي أخذت عن العربية كلها، ويرى نلدكه أنَّ كاتب هذه المقدمة هو علي بن محمد بن شاه الطاهري، من نسل الشاه ابن ميكال المتوفى سنة ٣٠٢هـ.

وهي مقدمة طويلة تضمنت بعض الأساطير التي خلفتها فتوح الإسكندر المقدوني في الشرق، وأُريدَ بها الإبانة عن السبب الذي من أجله وُضِع هذا الكتاب، والتعريف بدبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف اللذين يُذكران في فواتح الأبواب.

وإذا اكتفينا بهذه الكلمات عن هذه «المقدمة» بقي من القسم الأول ثلاثة أبواب: باب «عرض الكتاب لابن المقفع»، وباب «بعثة برزويه إلى بلاد الهند لتحصيل الكتاب»، وباب «برزويه الطبيب».

والترتيب الطبَعي أن تتوالى الأبواب على هذا النَّسق، وهي كذلك في نُسختنا، ولكن النسخ الأخرى — عدا نسخة شيخو — تضع باب «عرض الكتاب لابن المقفع» بين باب «بعثة برزويه» وباب «برزويه الطبيب»، ونسخة شيخو تضع باب «عرض الكتاب لابن المقفع» بعد البابين، وهو فيها ناقص سقَطَ أكثره، وبعض النسخ العربية وترجمة نصر الله الفارسية تضع فهرس الأبواب في آخر باب «بعثة برزويه» قبل باب «عرض الكتاب لابن المقفع».

ويتبين من هذا أنَّ النسخ العربية تختلف في الترتيب بين باب «بعثة برزويه» وباب «عرض الكتاب»، ولكنَّ هذه النسخ تتفق على نسبة عرض الكتاب إلى ابن المقفع، وتخالفها النسخة الفارسية، فتفتتح الباب بهذه الجملة: «ابتداء كليلة ودمنة، وهو من كلام بزرجمهر البختكان.»

وأمَّا باب «بعثة برزويه» فتنسبه نسختنا ونسخة شيخو إلى بزرجمهر، وتغفل بعض النسخ تسمية كاتبه، وتفتتحه النسخة الفارسية بقولها: «كذلك يقول أبو الحسن عبد الله بن المقفع.»

فالنسخة الفارسية تجعل الباب الأول: باب «بعثة برزويه» من إنشاء ابن المقفع، والبابين التاليين من إنشاء بزرجمهر، فترتيب الأبواب فيها مقبول إن صحت نسبة

الأبواب إلى من نسبتها إليهم، ولكني أُبعد أن يكون باب «عرض الكتاب» لغير ابن المقفع للأسباب الآتية:

(١) اتفاق النُّسخ العربية التي في أيدينا على نسبته إلى ابن المقفع.

(٢) وأنه ينتهي في نسختنا بهذا الكلام: «وإنَّا لمَّا رأينا أهل فارِس قد فسَّروا هذا الكتاب وأخرجوه من الهندية إلى الفارسية ألحقنا بابًا بالعربية ليكون له أسًّا ليستبين فيه أمر هذا الكتاب لمن أراد قراءته وفهمه والاقتباس منه.»

وظاهرٌ أنَّ الباب الذي يُبيِّن مقاصد الكتاب ويدعو القارئ إلى قراءته وفهمه هو باب «عرض الكتاب»، وأَبْيَنُ من هذا ما في نسخة اليازجي آخرَ هذا الباب: «قال عبد الله ابن المقفع: لما رأيت أهل فارس قد فسَّروا هذا الكتاب من الهندية إلى الفارسية، وألحقوا به بابًا وهو باب برزويه الطبيب، ولم يذكروا فيه ما ذكرنا في هذا الباب لمن أراد قراءته واقتباس علومه وفوائده؛ وضعنا له هذا الباب فتأمل ذلك تُرشَد إن شاء الله تعالى.»

(٣) والثالث أنَّ النُّسخة الفارسية نفسها تختم هذا الباب بقولها: «يقول ابن المقفع: لمَّا رأينا أهل فارس ترجموا هذا الكتاب من لغة الهند إلى اللغة البهلوية أردنا أن يكون لأهل العراق والشام والحجاز نصيب منه، وأن يترجم إلى العربية وهي لغتهم.»

وإذا رَجح أنَّ باب «عرض الكتاب» من إنشاء ابن المقفع، فكيف وُضِع بين باب «بعثة برزويه» وباب «برزويه الطبيب» في بعض النسخ؟ أيُعدُّ هذا دليلًا على أنَّ باب «بعثة برزويه» زِيدَ على الكتاب بعد أن ترجمه ابن المقفع كما زيدت «مقدمة بهنود بن سحوان (أو علي بن الشاه الفارسي)»؟ أو يدلُّ على أنَّ ابن المقفع وضع هذا الباب وجعله مُقَدِّمة، ثم وضع باب «عرض الكتاب» كما وضع الفرس باب «برزويه الطبيب»، وهذا يوافق النسخة الفارسية، وهي تنص على أنَّه من كلام ابن المُقفع كما تقدم؟ أرجِّح أنه مزيد على الكتاب بعد ابن المقفع، وأمَّا نسختنا فتنسب باب «بعثة برزويه» إلى بزرجمهر كباب «برزويه الطبيب»، وتضعه بعد مقدمة ابن المقفع، وهو ترتيب لا إشكال فيه.

والخلاصة أنَّ الفرس زادوا على الكتاب باب «برزويه الطبيب»، وأن ابن المقفع زاد بابًا آخر هو باب «عرض الكتاب»، وأنَّ باب «بعثة برزويه» موضع نظر، أهو مقدمة لباب «برزويه الطبيب» كتبه بزرجمهر، أم هو من إنشاء ابن المقفع، أم هو مزيد على الكتاب بعد ابن المقفع؟ ولكني أُرَجِّح أنَّه مما زيد في النسخ العربية؛ لما ذكرت آنفًا من وضعه في بعض النسخ قبل باب «عرض الكتاب لابن المقفع»، ووضع الفهرس بعده، ولأنَّ

الترجمتين السريانيتين خاليتان منه، والأولى مترجمة عن البهلوية والثانية عن العربية، وهو ليس في منظومة ابن الهبارية أيضًا، ومعنى هذا أنَّ النسخ العربية القديمة لم تُجمع على هذا الباب، فخلت منه الترجمة السريانية المأخوذة من العربية، وهذا يدلُّ على أنَّه لم يكن في الفهلوية أيضًا، ويؤيد هذا أنَّه ليس في النسخة السريانية القديمة التي تُرجِمت عن الفهلوية.

القسم الثاني من أبواب الكتاب: الأبواب الخمسة التي يتضمنها كتاب «بنج تنترا»

تتفق النسخ العربية وغيرها على وضع هذه الأبواب الخمسة أول الكتاب بعد باب «برزويه الطبيب»، وعلى ترتيبها، وقد تضمنها كتاب مستقل في اللغة السنسكريتية، فهي أمَّهات الكتاب وأثبت أبوابه في التاريخ، وهي أجملها قصصًا، وأكثرها مواعظَ وعبرًا، وأطولها حوارًا؛ وقد سُمِّي الكتاب كله «كليلة ودمنة» باسم ابني آوى اللذين هما محور القصص في الباب الأول: باب «الأسد والثور» (تُنظر مقارنة القصص التي في هذه الأبواب بنظائرها في «بنج تنترا» في مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب أنوار سُهَيلي الفارسي الذي ترجمه إدورد إيستوِك Edward B. Eastwick).

وأمَّا باب «الفحص عن أمر دمنة» فلا يُعرف في الأدب الهندي، ولا يُلفى في النسخة السريانية القديمة، وينتهي باب «الأسد والثور» في «بنج تنترا» بأنَّ الأسد لم يفكر في شتربة من بعد، وأنه جعل دمنة وزيره وعاش سعيدًا.

وليس في خاتمة باب «الأسد والثور» من نسختنا ونسخة شيخو ما يدلُّ على أنَّ وراءه بابًا للفحص عن أمر دمنة، والنسخ الأخرى العربية المطبوعة والنسخة الفارسية والسريانية الحديثة تختم الباب بأنَّ الأسد اطَّلع على كذب دمنة فقتله.

والظاهر أنَّه باب إسلامي وضعه ابن المقفع لئلا ينجو دمنة الخائن من العقاب الجدير به، وفي الباب مسحة إسلامية ولا سيما في الكلام على البيِّنة، وقد جاءت فيه كلمة «الإسلام» في نسختنا، ولعلها سهو من الكاتب (انظر تعليقاتنا).[٣٩]

[٣٩] انظر: باب الفحص عن أمر دمنة، هامش رقم ٧ (الناشر).

وأمَّا باب «السائح والصوَّاغ» فقد جاء في الباب الأول من «بنج تنترا»، وهو باب «الأسد والثور»، وقد عُثِر عليه في مجموعة من الأساطير البوذية اسمها: «سَواهني» وكتاب آخر بوذي اسمه: «كرماجتكا»، فلا ريبَ أنَّه وُضِع بادئ بدء في الآداب الهندية.

القسم الثالث من أبواب الكتاب: أبواب «الجرذ والسنور» و«الملك والطائر» و«الأسد وابن آوى»

هذه القصص الثلاث تُلفى في الحماسة الهندية الكبرى التي تُسَمَّى: «مهابهارتا»، وقصة «الملك والطائر» تُلفى كذلك في كتاب آخر اسمه: «هرِوَنجه».

وهي تتوالى في النُّسخ كلها كما تتوالى الأبواب الخمسة التي يتضمنها كتاب «بنج تنترا»، وتليها في بعض النسخ، ويتخلل بين هاتين المجموعتين في نسخٍ أخرى بعض الأبواب، يفصل بينهما في نسختنا باب «إبلاد وإيراخت وشادرم» وباب «ملك الجرذان»، وفي نسخة شيخو باب «إبلاد وشادرم وإيراخت» وحده.

وهذه الأبواب الثلاثة والأبواب الخمسة الأولى داخلة في العشرة التي عدَّها نصر الله بن عبد الحميد أبوابًا هندية، وبقية العشرة باب «الفحص عن أمر دمنة» وباب «الأسوار واللبؤة».

ويظهر مما تقدم أنَّ النسخ التي تُوالي بين هذه الأبواب الثمانية أقرب إلى ما عُرِف من تاريخ الكتاب حتى اليوم، وأنَّ الفصل بين الأبواب الخمسة والأبواب الثلاثة طارئٌ على الكتاب، ثم أحد البابين الفاصلين في نسختنا، وهو باب «ملك الجرذان» ليس من كلام ابن المقفع بلا ريب، وفي هذا دليلٌ آخر على أنَّ الفصل بين الأبواب الخمسة والأبواب الثلاثة حادثٌ في الكتاب.

القسم الرابع من أبواب الكتاب

وأمَّا القسم الرابع فهو كما قدمتُ قسمان: أربعة أبواب تتفق عليها النسَخ، وثلاثة تختلف في إثباتها.

(أ) الأبواب التي تتفق عليها النسَخ

(١) والباب الأول من الأربعة المتفق عليها هو في نُسْخَتِنَا باب «إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند»، وهو كما يرى القارئ باب هندي بوذي، يُمَثِّل العداوة بين البراهمة والبوذية ويشنع على البراهمة، وقد عُثِر على القصة في اللغة التبتية، والظاهر أنه نُقِل إليها من الهندية، ووضْعُه في نُسختنا ونسخة شيخو بين الأبواب التي عُرِف أصلها الهندي يؤيِّد هذا، ويرى القارئ أنَّ الباب قسمان مختلفان: الأول قصة الأحلام وتأويلها، والثاني المحاورة بين الملك ووزيره، والقسم الثاني مُختصر في نسخة دي ساسي والنسخ المصرية، ومُطنَب في نسختنا ونسخة شيخو والنسخة السريانية الحديثة.

(٢) وأمَّا باب «اللبؤة والأسوار» فظاهرٌ فيه النزعة الهندية: تحريم اللحم والاقتيات بالفاكهة، ثم التحرج من أكل الفاكهة والاجتزاء بالعُشب حينما شكت الوحوش قلة الفاكهة.

(٣) والباب الثالث: باب «الناسك والضيف» لا يوجد في السريانية القديمة المترجمة من الفهلوية، وليس فيه ما يدلُّ على أصل هندي، بل فيه من ذكر التمر واللغة العبرية ما يبعده عن الهند، فإمَّا أن يكون مزيدًا في اللغة الفهلوية وقد أُسقِط في الترجمة السريانية القديمة، وإمَّا أن يكون من زيادات النُّسخة العربية ألحقه ابن المقفع أو أُلحِق بعده، ولست أرى في أسلوبه ما يبعده من كلام ابن المقفع، واتفاق النسخ العربية عليه يرجح هذا.

(٤) وأمَّا باب «ابن الملك وأصحابه» فقد رأى بعض الباحثين شبهًا بينه وبين قصة جاءت في الباب الأول من «بنج تنترا»، ويرى الأستاذ فلكنر أنَّ هذه المُشابهة ضعيفة لا تبرر الحكم بأنهما من أصل واحد، وينقل عن بنفي Benfey رأيه في أنَّ الباب بوذي الأصل، وأرى أسلوبه ليس بعيدًا عن أسلوب ابن المقفع، فالظاهر أنه مما ترجمه كذلك.

(ب) الأبواب التي تُوجد في بعض النسخ دون بعض

(١) فأمَّا باب «ملك الجرذان» فهو لا يُوجَدُ إلَّا في نسختنا وحدها، ولا ريبَ أنَّ لُغته وأسلوبه بَعيدان من لغة ابن المقفع وأسلوبه كل البُعد، بل أرى فيه من الركاكة ومُقاربة العامية ما يُرجِّح أنه أُلحِق ببعض نسخ الكتاب بعد ابن المقفع بقرون، وهذا الباب يوجد

في السريانية القديمة وهو آخر أبوابها، ويظهر أنَّه تُرجِم منها أو من كتاب آخر وأُلحِق بهذا الكتاب؛ ولذا تخلو منه نسخ عربية كثيرة، وتخلو منه أكثر التراجم التي نُقِلت عن العربية.

ويرى الأستاذ نلدكه أنَّ هذا الباب فارسي لا هندي، وقد لخَّص فلكنر أدلة نلدكه ومنها: أنَّ الأسماء في هذا الباب ليست هندية وكثيرٌ منها فارسي، وأنه ورد أثناء الباب عبارة «في أرض البراهمة»، وهي عبارة لا تقال في كتاب هندي، وأنَّ في الباب جملة تذم الانتحار وهذا قريبٌ من مذهب الفرس لا الهند (انظر مقدمة فلكنر صXXXVI).

(٢) وأمَّا باب «مالك الحزين والبطة» فقد عثر عليه دي ساسي في بعض النسخ، وقد كتب ناسخه أنَّه باب زِيدَ على الكتاب من بعد، ويُخبرنا فلكنر أنه ورد في بعض المخطوطات العربية، ولم أجده في النُّسخ العربية المطبوعة كلها، ويُوجد في بعض التراجم المأخوذة عن العربية كالترجمة الإسبانية والعبرية.

(٣) وأمَّا باب «الحمامة والثعلب ومالك الحزين» فقد ورد في النسخ المصرية والشامية المطبوعة إلَّا في نسخة شيخو، وليس في نسختنا ولا في طبعة دي ساسي، وهو في بعض التراجم المأخوذة عن العربية كالإسبانية والعبرية كالباب الذي قبله.

وهذه الأبواب الثلاثة ليست في ظنِّي من كلام ابن المقفع.

هذه خلاصة ما هدى إليه البحث في كتاب «كليلة ودمنة» وتاريخه، وعسى أن تكون هذه المقدمة وهذه الطبعة خطوتين سديدتين لم يظفر بمثلهما تاريخ الكتاب في اللغة العربية من قبل، وعسى أن يجدا من عناية الأدباء والباحثين ما يكافئ قيمتهما، ويُجازي ما بُذِل من اجتهاد ودأب، وما احتمِل من نفقة وعناء لإخراج الكتاب في صورة تفخر بها الطباعة في الأقطار العربية كلها. والله ولي التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله اللطيف الخبير، العليم القدير، القاهرِ في مُلكه، الدائمِ في عِزِّه، العادل في قضائه، المنفردِ في ملكوته، خالقِ الخلق، وباسطِ الرزق، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، نعم المولى ونعم النصير؛ خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسكن فيه حكمته، وتوارث ذلك ذُرَّيتُه، فمنهم سعيدٌ بإرادته، وشقيٌّ بقدرته.

وأشهدُ أنْ لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، شهادةً أرجو بها الخلاص، وأفوز بها يوم الإخلاص، وأشهد أنَّ مُحمدًا عبده ورسوله، خلقه للهدى، وقد فاز من به اهتدى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.[١]

[١] هذا التحميد مختص بهذه النسخة، والظاهر أنه من إنشاءِ بعض ناسخيها أو مالكيها لا من كلام ابن المقفع (انظر تفصيل هذا في المقدمة).

باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع[1]

هذا كتاب كليلة ودمنة، وهو مما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث، التي التمسوا بها أبلغَ ما يجدون من القول، في النحو الذي أرادوا، ولم يزل العقلاء من أهل كل زمان يلتمسون أن يُعقَل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحِيَل، ويطلبون إخراج ما عندهم من العِلل، فدعاهم ذلك إلى أن وضعوا هذا الكتاب، ولخَّصوا فيه من بليغ الكلام ومُتقَنه على أفواه الطير والبهائم والسباع؛ فاجتمع لهم من ذلك أمران: أمَّا هُم فوجَدوا مُتصرَّفًا في القول، وشِعابًا يأخذون فيها، وأمَّا هو فجمع لهوًا وحكمةً، فاجتباه الحُكماء لحكمته، والسخفاء لِلَهْوِه، وأمَّا المُتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشِطوا لعلمه، وخفَّ عليهم حِفْظُه.

فإذا احتنك الحدثُ واجتمع له أمرُه، وثاب إليه عقله، وتدبَّر ما كان حَفِظ منه وما وعاه في نفسه، وهو لا يدري ما هو، عَرَف أنه قد ظفر من ذلك بكنوزٍ عظام؛ فكان كالرجل يُدرِك فيجدُ أباه قد كنز له من الذهب والفضة، واعتقد له ما استغنى به عن

[1] هذا أول مقدمة ابن المقفع التي جُعِل عنوانها في كثيرٍ من النسخ «باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع»، وليس لها في أصل نسختنا عنوان.

والنسخ تختلف في مكان هذه المقدمة، فهي في نسخة دي ساسي De Sacy والطبعات المصرية وطبعتي اليازجي وطبارة، بين باب بعثة برزويه وباب برزويه، وفي نسخة شيخو قبل باب الأسد والثور، وهي فيها قصيرةٌ جدًّا، وظاهرٌ أن ترتيب نسختنا أقرب إلى الصواب؛ لأنَّ ابن المقفع حريٌّ أن يضع مقدمته قبل أبواب الكتاب كله، وأمَّا «مقدمة بهنود بن سحوان» التي تُصدَّر بها بعض النسخ فقد وُضِعَت بعد ابن المقفع، فلهذا تخلو منها نسخ قديمة كنسختنا هذه؛ ثم النسخ الأخرى تتقارب فيما بينها وتخالف نسختنا في كثيرٍ من نصوص هذه المقدمة.

استقبال السعي والطلب، ولم يكن — إذ كثرت صنوف أصول العلم ثم تفرعت فروعها — بدٌّ من أن تكثُر العلل التي تجري عليها أقاويل العلماء.

فأول ما ينبغي لمن طلب هذا الكتاب أن يبتدئ فيه بجودة قراءته والتثبت فيه، ولا تكون غايتُه منه بلوغَ آخره قبل الإحكام له، فليس ينتفع بقراءته ولا يُفيد منه شيئًا؛ وإن طمَحتْ عيناه إلى جمعه، ولم يأخذ منه ما يعي الأولَ فالأولَ، فإنه خليقٌ ألَّا يُصيبَ منه إلَّا كما أصاب الرَّجل الذي بلغني أنه رأى في بعض الصحارى كنزًا، فلمَّا كشف عنه ونظر إليه رأى شيئًا عظيمًا لا عهد له بمثله، فقال في نفسه: إن أنا أحرزتُ ما ههنا بنقله وحدي لم أنقله إلَّا في أيام، وجعلت لنفسي عملًا طويلًا، ولكن أستأجر رجالًا يحملونه، ففعل ذلك وجاء بالرجال فحَمَلَ كلُّ واحدٌ منهم ما أطاق، وانطلقوا، فيما زعم، إلى منزله، فلم يزَل دائبًا في ذلك حتى فرَغَ واستنفد الكنز كله، ثم انطلق إلى منزله بعد الفراغ فلم يجد شيئًا، ووجد كل رجل منهم قد حاز ما حمل لنفسه، ولم يكن له إلَّا العناء في استخراجه والتعب عليه.

فليس ينبغي أن يجاوز شيئًا إلى غيره حتى يُحكِمه ويتثبت فيه وفي قراءته وإحكامه، فعليه بالفهم لما يقرأ والمعرفة؛ حتى يضعَ كلَّ شيءٍ موضعه وينسبه إلى معناه، ولا يعرِضْ في نفسه أنَّه إذا أحكم القراءة له وعرف ظاهر القول؛ فقد فرغ ممَّا ينبغي له أن يَعرِف منه، كما أنَّ رجُلًا لو أُتِي بجوزٍ صِحاح في قشوره لم ينتفع به حتى يكسره ويستخرج ما فيه، فعليه أنْ يَعلم أن له خبيئًا وأن يلتمس عِلم ذلك، ولا يكن كالرجل الذي بلغني أنه طلب علم الفصاحة فأتى صديقًا له ومعه صحيفةٌ صفراء، فسأله أن يكتب له فيها علم العربية، فكتب له في الصحيفة ما أراد، فانطلق الرجل إلى منزله وجعل يقرؤها ولا يدري ما معناها، وظنَّ أنه قد أحكم ما في الصحيفة، وأنه تكلَّم في بعض المجالس وفيه جماعةٌ من أهل الأدب والفصاحة، فقال له بعضهم: لحنت، فقال: ألحنُ والصحيفة الصفراء في منزلي؟ فالمرء حقيقٌ أن يطلب العلم[٢] فإذا وجد حاجته منه وفَهِمَه وعَرفَه وبلغ غايته منه، انتفع بما يرى فيه من الأدب، فإنه يُقال في أمرين لا ينبغي لأحد أن يقصِّر فيهما بل يُكثِرُ منهما: حُسنُ العمل والتزود للآخرة.

ويُقال أيضًا في أمرين يحتاج إليهما كل من احتاج إلى الحياة: المال والأدب.

[٢] النسخ الأخرى تضع هنا «قراءة هذا الكتاب» بدل «طلب العلم» في نسختنا.

ويُقال في أمرين لا ينبغي لأحدٍ أن يستكبر عنهما: الأدب والموت، ويُقال: إنَّ الأدب يجلو العقل كما يجلو الوَدَكُ النارَ ويزيدُها ضوءًا، والأدبُ يرفع صاحبَه كما تُرفع الكرةُ يضربها الرجل الشديد، والعلم يُنجي من استعمله، ومن عَلِم ولم يستعمل علمه لم ينتفع بعلمه، وكان كمَثَل الرَّجل الذي بلغني أن سارقًا دخل عليه في منزله فاستيقظ الرجل، فقال في نفسه: لأسكُتَنَّ حتى أنظر غاية ما يصنع، ولأترُكَنَّه حتى إذا فرَغ مما يأخذ قمتُ إليه فنغَّصت ذلك عليه وكدَّرته، فسكت وهو في فراشه، وجعل السارق يطوف في البيت ويجمع ما قدر عليه حتى غلب على صاحب البيت النُّعاس، وحمله النوم[٣] فنام ووافق ذلك فراغ السارق، فعمد إلى جميع ما كان قد جمعه فاحتمله وانطلق به، واستيقظ الرجل بعد ذهاب السارق فلم يرَ في منزله شيئًا، فجعل يلوم نفسه ويعاتبها ويعضُّ كفَّيه أسفًا، وعرف أنَّ فطنته وعِلمه لم ينفعاه شيئًا إذ لم يستعملهما.

والعلم لا يَتِم لامرئ إلَّا بالعمل، والعلم هو الشجرة، والعمل هو الثمرة، وإنما يطلب الرجل العلم لينتفع به، فإنْ لم ينتفع به فلا ينبغي أن يطلبه، ورُبَّ رجلٍ لو قيل له: إنَّ رجلًا كان عارفًا بطريق مَخُوف ثم ركِبه فأصابه فيه مكروهٌ أو أذًى لتعجَّب من جهله وفعله، ولعَلَّه أن يكون يركبُ من الأمور ما يعرف به القبح والذم وشر العاقبة، وهو بذلك أشد استيقانًا من ذلك الرجل الذي ركب الهول بجهله، وحمله على ذلك هواه، ومن لم ينتفع بمعرفته كان كالمريض العالم الذي يعلم ثقيل الطعام من خفيفه، ثم تحمِلُه الشهوة على أكل الثقيل منه.

فأقلُّ الناس عُذرًا في ترك الأعمال الحسنة من قد عرف فضلها وحُسنَ عائدتها، وما فيها من المنفعة، وليس يعذِره أحدٌ على الخطأ، كما أنَّه لو أنَّ رجلين أحدُهما أعمى والآخر بصير وقعا في جُبٍّ فهلكا جميعًا ولم ينجُ البصير من الهلكة — لأنه صار والأعمى في الجب بمنزلة واحدة — لكان البَصيرُ عند العقلاء أقلَّ عذرًا من الأعمى.

ومن كان يطلب العلم ليعلِّمه غيره وليعرِّفه سواه، فإنما هو بمنزلة العين التي ينتفع الإنسان بمائها، وليس لها من تلك المنفعة شيء؛ فإنَّ خلالًا ثلاثًا ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتبسها ويُقبسها: منها العلم، ومنها المال، ومنها اتخاذ المعروف؛ وقد قيل: إنه

[٣] هذه الجملة «وحمله النوم» ليست في النسخ الأخرى، وهي ترجمة حرفية لعبارة فارسية «خواب أورا برد»، فهي من الأدلة على أن هذه النسخة أقرب إلى ترجمة ابن المقفع (انظر المقدمة).

لا ينبغي لطالبٍ أن يطلب أمرًا إلَّا من بعد معرفته بفضله، فإنه يُعَدُّ جاهلًا من طَلَبَ أمرًا وعنَّى نفسه فيه وليس له منفعة.

وقد نرى بعض من يقرأ هذا الكتاب فيتعجب منه ويجهد نفسه في حفظه ويترك العمل به (ولا ينبغي للعالم أن يعيب أحدًا بما هو فيه)، فيكون كالأعمى الذي عيَّر الأعور بعوره.[٤] وينبغي لمن عقَل ألَّا يطلب أمرًا فيه مضرة لصاحبه، يطلبُ بذلك صلاح نفسه، فإنَّ الغادر مأخوذ، ومن فعل ذلك كان خليقًا أن يُصيبه ما أصاب الرجل الذي بلغني أنه كان يبيع السمسم، وكان له شريك، فكان سمسمهما في بيت واحد، غيرَ أنَّ الذي لكل واحد منهما على حدة، فأحبَّ أحدهما أن يذهب بالذي لشريكه من السمسم، ثم أحب أن يجعل له علامة حتى إذا دنا الليل عرفه بها، فعمد إلى ردائه فغطَّاه به، ثم انطلق إلى صديقٍ له فأخبره بالذي همَّ به، وسأله أن يعينه عليه، فأبى صديقه ذلك إلَّا أن يجعل له نصف ما يأخذ منه ففعل، ثم إنَّ شريكه دخل البيت فرأى سمسمه مُغطًّى برداء صاحبه، فظنَّ أنه غطَّاه من التراب والدواب، فقال في نفسه: لقد أحسنَ شريكي في تغطيته سمسمي وإشفاقه عليه، وسمسمُه أحقُّ أن يُغطَّى بردائه،[٥] فحوَّل الرداء على سمسم صاحبه، فلمَّا كان في الليل جاء التاجر والرجلُ معه ودخلا البيت وهو مُظلِم، فجعل الرجلُ يلتمسُ ويجسُّ حتى وقعت يده على الرداء المغطَّى على السمسم، وهو يُقدِّر أنه كما غطَّاه، وأنه سمسم صاحبه، فأخذ نصفه وأعطى صديقه الذي عاونه نصفه، فلمَّا أصبح جاء هو وشريكه حتى دخلا البيت، فلمَّا رأى الرجل أنَّ الذي ذهب سمسمُه، ورأى سمسم صاحبه على حاله دعا بالويل، وعرف أنَّ الذي أخذه ذلك الرجل ليس برادِّه، ويخشى أن تكون فيه فضيحته، فلم يقُل شيئًا.[٦]

[٤] في النسخ المصرية ونسخَتَي اليازجي وطبارة: «وليس للعالم أن يعيب امرأً بشيءٍ فيه مثله، ويكون كالأعمى الذي يعير الأعمى بعماه»، وفي نسخة حماه التي نقل عنها شيخو: «فإن خلالًا ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتبسها: منها ألَّا يعيبَ أحدًا بشيءٍ هو فيه، فيكون كالأعمى …»

[٥] في النسخ الأخرى: أن التاجر ظنَّ صديقه قد نسي الرداء فاستحسن أن يضع رداء صديقه على سمسمه ليجده صاحبه حيث يحب.

[٦] في النسخ الأخرى: أن التاجر الآخر جاء فلم يجد عِدل صاحبه، فاغتمَّ وعزمَ على أن يغرَمه من ماله، ثم جاء الشريك الخائن فسأل صاحبه عن حزنه، فلمَّا أخبره اعترف بما فعل، فضرب له صاحبه مَثَلَ اللص

وينبغي لمن طلب أمرًا أن تكون له غايةٌ ينتهي إليها، فإنه من أجرى إلى غير غاية أوشك أن يكون فيه عناؤه، وتقوم فيه دابته، وهو حقيقٌ ألَّا يُعنِّي نفسه بطلب ما لا يجد، وأن يكون لآخرته مؤثِرًا على دنياه، فإنه قد قيل: مَن قلَّ تعلقُه بالدنيا قلَّت حسرتُه عند فراقها، وينبغي له ألَّا ييئس من أن يُصيب ذلك وإن قسا قلبُه، فإنه يُقال في أمرين يجملان بكل أحد، وهما النُّسك والمال، وإنما مثل ذلك كالنار المتأجِّجة التي لست تقذف إليها حطبًا إلَّا قبلته وكان لها موافقًا.

وربما أصاب الرجلُ الشيءَ وهو غير راجٍ له، كما أصاب الرجل الذي بلغني أنه كانت به حاجةٌ شديدةٌ وخَلَّةٌ ظاهرةٌ، وفاقةٌ وعُري، فغدا يطلب من معارفه وشكا إليهم، وسألهم ثوبًا يلبسه، وجَهِد فلم يُصِب شيئًا، ورجع إلى منزله وهو آيِس؛ فبينما هو نائم على فراشه إذا بسارق قد دخل عليه في منزله، فلمَّا رآه الرجل قال: ما في منزلي شيء يستطيع هذا السارق أن يسرقه، فليصنع ما يشاء، وليُجهِد نفسه، وإنَّ السارق دار في البيت وطلب فلم يجد شيئًا يأخذه، فغاظه ذلك، وقال في نفسه: ما أرى ههنا شيئًا، وما أحب أن يذهب عنائي باطلًا، فانطلق إلى خابية فيها شيءٌ من بُرٍّ، فقال: ما أجد بُدًّا من أخذ هذا البُرِّ إذ لم أجد غيره، فبسط ملحفة كانت عليه، وصب ذلك البُرَّ فيها، فلمَّا بصُر به الرجل قد جعل البُرَّ في الملحفة، وهو يريد أن ينطلق بها قال: ليس على هذا صبر، يذهب البُرَّ ويجتمع عليَّ أمران: الجوع والعُري، ولن يجتمعا على أحدٍ إلا أهلكاه، فصاح بالسارق فهرب من البيت وترك الملحفة، فأخذها صاحب المنزل فلبسها وأعاد البُرَّ إلى مكانه، فليس ينبغي لأحد أن ييأس، ولا يطلب ما لا يُنال، ولكن لا يدع جُهدًا في الطلب على معرفة، فإنَّ الفضل والرزق يأتيان من لا يطلبهما، ولكن إذا نَظَر في ذلك وجد من طلب وأصاب أكثر ممَّن أصاب بغير طلب، ولم يكن حقيقًا أن يقتدي بذلك الواحد الذي أصاب من غير طلب، ولكن يقتدي بالكثير الذين طلبوا فأصابوا. وحقٌّ على المرء أن يُكثر المقايَسة، وينتفع بالتجارب، فإذا أصابه الشيء فيه مَضَرَّة عليه حَذِرَه وأشباهه، وقاس بعضه ببعض حتى يحذر الشيء بما لقيَ من غيره؛ فإنَّه إن لم يحذر إلَّا الذي لقيَ بعينه لم يُحكم التجارب في جميع عُمُره، ولم يزل يأتيه شيءٌ لم يكن أتاه بعينه؛ فأمَّا الذي

الذي أراد أن يسرق خابيةً مملوءةً ذهبًا، فأخذ أُخرى مملوءةٌ بُرًّا، وذلك تمثيل غير مستقيم، والظاهر أن ما يزيد على ما في نسختنا من تصرف بعض القراء.

ينبغي ألَّا يدعه على حال؛ فأن يحذر ما قد أصابه، وينبغي له مع ذلك أن يحذر ما يُصيب غيره من الضرر؛ حتى يَسْلَم من أن يأتيه مِثلُه، ولا يكون مَثَلُه كمثل الحمامة التي يُؤخَذ فرخاها فيُذبحان، وترى ذلك في وكرها ولا يمنعها من الإقامة في مكانها حتى تؤخذ هي فتُذبح.

وينبغي له مع ذلك أن يكون للأمور عنده حدٌّ لا يجوزُه ولا يُقَصِّر عنه؛ فإنه مَن جاز الحد كان كمن قصَّر عنه؛ لأنهما خالفا الحدَّ جميعًا، وينبغي له أن يَعلم أنَّ كل إنسان ساعٍ، فمن كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه.[٧] ويُقال في ثلاثة أشياء يحقُّ على صاحب الدنيا إصلاحُها وأن يتدارك لنفسه فيها: أمرُ دنياه، وأمرُ معيشته، وأمرُ ما بينه وبين الناس، وقد قيل في أمور شتَّى: من كانت فيه لم يستقِمْ أمره له؛ منها: التواني في العمل، ومنها: التضييع للفُرَص، ومنها: التصديق لكل مُخبِر. ورُبَّ رجلٍ يُخبر بالشيء لا يقبلُه، ولا يعرف استقامته فيصدِّق به لما يَرى من تصديق غيره، فيتمادى به ذلك حتى يكونَ كأنه عَرَفه، ورجل يصدق به لهواه في الأمر الذي يُخبَر به. فالعاقلُ لا يزال للهوى متَّهِمًا، وينبغي له ألَّا يقبلَ من أحد وإن كان صَدوقًا إلَّا صِدقًا، وينبغي له ألَّا يتمادى في الخطأ ولا يتوانى في النظر، وينبغي له إذا التبس عليه أمر ألَّا يلجَ في شيء منه، ولا يُقدمَ عليه قبل أن يستيقن بالصواب منه، فيكونَ كالرَّجل الذي يجور عن سَنَن الطريق فيسير على جَوره وعلى الاعوجاج، ولا يزداد في السير حثًّا إلا ازداد من الطريق بُعدًا، أو كالرجل الذي يدخل في عينه القذى فلا يزال يدلكها حتى يعلوها البياض فتذهب. وعلى العاقل ألَّا يأخذ إلَّا بالحزم، ويعلم أنَّ الجزاء كائن، ومن أُتِي إلى صاحبه بمثل ما أُتِيَ إليه فشقَّ عليه فقد ظَلَم.[٨]

[٧] تفصيل هذا في نسخة اليازجي: «ومن كان سعيه لدنياه خاصة فحياته عليه، ومن كان سعيه لآخرته فحياته له.»

[٨] هنا تذكر النسخ الأخرى قصة «تاجر السمسم وشريكه» التي تقدمت في [انظر: باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع (الناشر)] وما بعدها.

فمن قرأ هذا الكتاب فليقتدِ بما في هذا الباب؛ فإنني أرجو أن يزيده بصرًا ومعرفة، فإذا عرفه اكتفى واستغنى عن غيره، وإن لم يعرفه لم ينتفع به، فيكون مثلُه كمثَل الذي رمى بحجر في ظُلمةِ الليل، فلا يَدري أين وقع الحجر ولا ماذا صنع؟[٩]

وإنَّا لما رأينا أهل فارس قد فسَّروا هذا الكتاب[١٠] وأخرجوه من الهندية إلى الفارسية؛ ألحقنا بابًا بالعربية؛ ليكون له أُسًّا ليستبين فيه أمر هذا الكتاب لمن أراد قراءته وفهمه والاقتباس منه.

فأول ما نبتدي بذكر بعث برزويه إلى بلاد الهند.

[٩] هنا تذكر النسخ الأخرى مَثَلَ ثلاثة إخوة؛ أسرف اثنان منهم فأتلفا مالهما، وأحسن الآخر القيام على ماله فنفع أخويه، ثم مَثَل الصياد الذي رأى صدفة فظنَّها لؤلؤة، فترك شبكته وفيها سمكة كبيرة، فلمَّا وجد الصَّدَفة فارغة ندم على تضييع ما في يده، ثم وجد صَدَفة أخرى فيها لؤلؤة فأعرض عنها حرصًا على سمكة صغيرة في شبكته، ومرَّ صيادٌ آخر بالصَّدَفة فأصاب فيها لؤلؤة عظيمة.

[١٠] هذه الخاتمة تُذكر في نسخة اليازجي في صيغة تخالف ما هنا بعض المخالفة، ولا تذكر النسخ الأخرى، وهي ذات قيمة في تبيين الباب الذي زاده ابن المقفع (انظر المقدمة).

باب توجيه كسرى أنو شروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب

قال بُزُرجِمِهر:[١] أمَّا بعد؛ فإنَّ الله — تبارك وتعالى — خلق خلقه برحمته، ومنَّ على عباده بفضله، ورزقهم ما يقدِرون به على إصلاح شأنهم ومعايشهم في الدنيا، وما يُدرِكون به استنقاذ أرواحهم من أليم العذاب، وأفضلُ ما رزقهم الله ومنَّ عليهم به العقلُ الذي هو قُوَّة لجميع الأشياء، فما يقدر أحدٌ من الخلق على إصلاح معيشة، ولا اجترارِ منفعة، ولا دفع مَضَرَّة إلَّا به، وكذلك طالبُ الآخرة المجتهدُ على استنقاذ روحه من الهلكة.

فالعقلُ سببٌ لكل خير، وهو مكتسَبٌ بالتجارب والآداب، وغريزةٌ مكنونةٌ في الإنسان كامنةٌ كَكُمُونِ النار في الحجر والعُود، لا تُرى حتى يقدحها قادح من غيرها، يُظهر ضوءها وحريقها، كذلك العقل من الإنسان لا يَظهر حتى يُظهِره الأدب وتُقوِّيه التجارب، فإذا استحكم كان هو وليَّ التجارب والمقوِّيَ لكل أدب، والمميِّز لجميع الأشياء، والدافع لكل ضرٍّ، فلا شيءَ أفضل من العقل والأدب؛ فمن منَّ عليه خالقه بالعقل، وأعان هو على نفسه بالمثابرة على الأدب والحرص عليه؛ سَعِدَ جَدُّه، وأدرك أمله في الدنيا والآخرة.

---

[١] لا يصدَّر هذا الباب بقول بزرجمهر إلَّا في نسختنا ونسخة شيخو، وفي الترجمة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد، أول هذا الباب: «يقول أبو الحسن عبد الله بن المقفع.» وهذه المقدمة تأتي أثناء الباب على لسان برزويه في نسختي اليازجي وطبارة.

والعقل هو المقوِّي الملك السعيد الجَدِّ، الجليل المرتبة، ولا تصلحُ السُّوقة إلَّا عليه وعلى تدبيره.[٢]

وقد[٣] جعل الله لكل شيءٍ سببًا، ولكل سببٍ علةً، ولكل علةٍ مجرًى، وكان من علة انتساخ هذا الكتاب ونقله من بلاد الهند إلى مملكة فارس إلهامُ الله تعالى أنو شروانَ كسرى بنَ قُباذ في ذلك؛ لأنَّه كان من أفضل ملوك فارس عِلمًا وحُكمًا ورأيًا، وأكثرِهم بحثًا عن مكامن العلم والأدب، وأحرصِهم على طلب الخير، وأسرعهم إلى اقتناء ما يَزينُه بزينة الحكمة، وفي معرفة الخير من الشرِّ، والضرِّ من النفعِ، والصديقِ من العدوِّ، ولم يكُن يَعرفُ ذلك إلَّا بعونِ الله خُلفاءه وساسة عباده وبلاده لإقامة رعيَّته وأموره، فكان مما خصَّ اللهُ به كسرى أنو شِروان أن أكرَمه بهذه الكرامة، ورزقه هذه النعمة؛ حتى استوثقت له الرعية، وأذعنت له بالطاعة، وصفَت له الدنيا، وانقادت الملوك له، فركنت إلى طاعته، وتلك نعمة من الله سابغةٌ قسَمَها له في دولته وعُباب مُلكه.

فبينما هو في عِزِّ ملكه وبَهاءِ سُلطانه إذ بَلَغه أنَّ بالهند كتابًا من تأليف العلماء، وترصيف الحُكماء، وتدبير الفهماء، قد مُيِّزت أبوابُه، وأثبتت عجائبه على أفواهِ الطير والبهائم والوحش والسباع والهوامِّ، وسائر حشرات الأرض، مما يحتاج إليه الملوك في سياسة رعيتها، وإقامة أَوَدها وإنصافها، فلا قِوامَ للرعية إلَّا بحُسنِ سياسة الملوك، وسعة أخلاقها، ورأفتها ورحمتها؛ ولذلك لم يَدَع كِسرَى أنو شروان اقتناء ذلك الكتاب الذي بلغه عنه أنه ببلاد الهند، وضمَّه إلى نفسه، والاستعانة به على سياسته، والعمل بحسن تدبيره.

فلمَّا عَزَم على ما أراد من أمْره، وهمَّ بالبِعثة في طلب كتاب كليلة ودمنة وانتساخه، قال في نفسه: مَنْ لهذا الأمرِ العظيم، والأدب النفيس، والخطب الجليل الذي يَزَّيَّن به ملوك الهند دون ملوك فارس؟ وقد هممنا ألَّا ندعَ — مع بُعد السفر، وصعوبة الأمر،

[٢] هنا تنتهي مقدمة هذا الفصل التي تتفق فيه نسختنا والنسخة المصرية ونسخة شيخو بعض الاتفاق، وأمَّا نسختا اليازجي وطبارة فليس فيهما من هذه المقدمة إلَّا تحميد في بضعة أسطر، ثم تُذكر فيهما هذه المقدمة أثناء الفصل على أنها من كلام برزويه حينما اختاره كسرى للسفر.

[٣] تتفق النسخ هنا في الحديث عن أنو شروان، ولكن تختلف في السياق اختلافًا كبيرًا، والعجب أنَّ أقرب النسخ إلى نسختنا هنا النسختان اللتان تخالفانها كل المخالفة في مقدمة الفصل، وهما نسختا اليازجي وطبارة.

ومخاطر الطريق، وكثرة النفقة — طَلَب هذا الكتاب حتى نصل إلى نَسخه، ونقف على إتقانه، ورصانة أبوابه، وعجائبه، ولا بدَّ لنا من أن ننتخب من نُريد إرساله في ذلك من هذين الصنفين من الكُتَّاب والأطباء، فإنَّ أهل هذين يجتمع عندهم جوامعُ من بحور الأدب، وكنوز الحكمة، في أناةٍ وتُؤدةٍ، وتجربةٍ ونفاذِ حيلة، وتحفظٍ وتحرزٍ، وكمال مروءةٍ، ودهاءٍ وفطنةٍ، وحلمٍ وتصنُّعٍ، ولُطفِ سياسةٍ، وكِتمانِ سِرٍّ.

فلما فحص الرأي فيما أجمع عليه، اختار في مملكته، وانتخب من علمائه، فلم يجد أحدًا على نحو ذلك إلَّا بَرْزَوَيْهِ بنَ آذَرهِربَد،[٤] وكان من رؤساء أطباء فارس ومن أبناء مُقاتِلتها، فدعاه كسرى وقال له: إنَّا قد انتخبناك لموضع حاجتنا، وتفرَّسنا فيك الخير، وأمَّلنا فيك أن تكون على ما أردنا من إصابة هذه الحاجة التي نحن مُرسِلوك فيها؛ لِما علِمنا عنك من الاجتهاد في العلم والأدب، وحِرصِك على طَلَبِهما.

ونحن مُرسِلوك إلى بلاد الهند لِما بَلَغَنا عن كتابٍ عند ملوكها وعلمائها قد ألَّفته العلماء، وهذَّبته الحكماء، وأتقنه الفُطناء، ليس في خزائن الملوك مثله، يستعين به على عظائمهم ملوك الهند، فتعزمُ على المسير بسببه فتستفيده برِفقٍ وتؤدةٍ وتلَطُّفٍ، وتحمل معك من المالِ ما أردت، ومن طُرَف بلاد فارس وهداياها ما تعلمُ أنَّه يُعينك على استخلاصه، مع ما تَقدِر عليه من الكُتُب التي يحتاج إليها الملوك، وليكُن ذلك في سرٍّ مكتوم.

فإذا أكملتَ ما تريده وأنت في بلاد الهند كتبتَ إلينا بذلك، وأسرعْتَ الوفودَ إلى حضرتنا، فإنَّا مُجزِلو عطيتك، ورافعو درجتك، ومُبْلِغوك فوق ما أمَّلته من دولتنا، فبادِر لما أُمِرت، واحفظ ما وُصِّيت به، وليكن من شأنك التثبُّت والتأني في جميع أمورك، فخرَّ برزويه ساجدًا، وقال: سمعًا وطاعةً، سيجدني الملك كما أحبَّ إن شاء الله، ثم نهض إلى منزله، فتخيَّر من الأيام أيمنها، ومن الساعات أبركها، وسار في اليوم المُختار، فلم يزل تخفضه أرض وترفعه أخرى حتى قدم إلى بلاد الهند، فأراح من وعثاء الطريق.

ثم إنه طاف بباب الملك، وتخلل مجالس السُّوقة، وسأل عن قرابة الملوك والأشراف، وعن العلماء والفلاسفة، فجعل يغشاهم في منازلهم وعلى باب الملك، ويتلقاهم بالتحية والمساءلة، ويُخبرهم أنه قدم بلادهم لطلب العلم والأدب، وأنه مُحتاجٌ إلى معونتهم على

[٤] في الأصل «أدرهرير»، ونظنها محرفة عن «آزرهربد» أي سادن النار.

ما طلب من ذلك، ويسألهم إرشاده إلى حاجته، مع شدة كِتمانه لما قَدِم له، وكِنايته عنه، فلم يزَل كذلك زَمانًا طويلًا، يتأدَّب بما هو أعلمُ به، ويتعلم من العلم ما هو ماهرٌ فيه، ويكني عن بُغيته وحاجته.

واتخذ — لطول لُبثه وإقامته — أصدقاء كثيرين من أهل الهند، من الأشراف والسُّوقة وأهلِ كل صناعة، واختصَّ من جماعتهم رجلًا كان شريفًا عالمًا يُسمَّى أزويه،[٥] وكان صاحبَ سرِّه ومشورته؛ لما ظهر له من علمه وفضل أدبه، وصحَّ له من إخائه ومحض مودته، وفصاحة منطقه، وكان يُشاوره في جميع أموره، ويستريح إليه فيما يُهِمُّه، إلَّا أنه كان يكتُمه الأمر الذي هو بُغيته، وكان يبلوه باللطف لينظر هل يراه موضعًا لإطلاعه على سره، فلم يزل يبحث عن ذات نفسه حتى وَثِق به، وعَلِمَ أنَّه لما استودع من السرِّ موضعٌ، وفيما سأل مُشَفِّع، وفيما استعان به عليه مجتهد، فازداد له إلطافًا، فكان — إلى ذلك اليوم الذي رجا أن يكون قد ظفر بحاجته — قد أعظم النفقة مع طول الغيبة وإلطاف الأصدقاء، ومجالستهم على الطعام، ومنادمتهم على الشراب لطلب الثقات منهم، فلم يطمئن إلى أحدٍ منهم إلَّا إلى صديقه ذلك.

وكان مما حكَّ به برزويه صديقه ذلك ورازه وفتَّش عقله ووثق به واطمأن إليه أن قال له يومًا وهما خاليان: يا أخي، ما أريد أن أكتمك من أمري شيئًا فوق ما قد كتمتُك، فاعلم أنِّي لأمرٍ جئت، وهو غير ما ترى يظهرُ مني، والعاقلُ يكتفي من الرَّجل بالعلامات الظاهرة فيه، من نظره وإشارته بيده، فيعلمُ سرَّ نفسه، وما يُضمِر عليه قلبَه؛ قال الهندي: إني وإن كنتُ لم أبدأك، ولم أُخبرك بما له جئت، وإياه طلبت، وأنت تكتم أمرًا تطلبه وأنت تُظهر غيره، فإنه لم يكن يخفى عليَّ، ولكن — لرغبتي في إخائك — كرهتُ أن أواجِهك بأنه قد ظهر لي ما تكتم، وأنه قد استبان لي ما أنت فيه وما تُخفيه، فأمَّا إذا افتتحت الكلامَ فأنا مُخبِرك عن نفسك، ومُظهرٌ لك سريرةَ أمرِك، ومُعلِمُك حالك الذي قدِمت عليه، فإنك قدِمتَ بلادنا لتسلُبنا علومنا الرفيعة وكنوزنا النفيسة، فتذهب بها إلى بلادك لتسُرَّ بها ملكك، وكان قدومك بالمكر، ومصادقتُك بالخديعة، ولكن لمَّا رأيتُ صبرك وطول مواظبتك على طلب حاجتك، وتحفُّظك من أن تسقط في الكلام — في طول لُبثِك عندنا — بشيء نستدل به على سريرة أمرك، ازددتُ رغبة في عقلك، وأحببت إخاءك،

[٥] لم يُذكر اسم هذا الرجل إلَّا في نسختنا ونسخة شيخو، وهو في الثانية: «أدَوَيهِ».

ولا أعلمُ أني رأيتُ أوزنَ منك عقلًا، ولا أحسن أدبًا، ولا أصبر على طلب حاجة، ولا أكتم للسرِّ منك، ولا أحسن خُلُقًا، ولا سيما في بلاد غُربة، ومملكةٍ غير مملكتك، وعند قومٍ لم تكن تعرف سُنَّتهم ولا أمرهم.

واعلم أنَّ عقل الرجل يستبين في أمور ثمانٍ؛ الأولى منها: الرفق والتلطف، والثانية: أن يعرف الرجل نفسه ويحفظها، والثالثة: طاعة الملوك وتحرِّي ما يُرضيهم، والرابعة: معرفة الرجل بموضع سره، وكيف ينبغي أن يُطلِع عليه صديقه، والخامسة: أن يكون على أبواب الملوك حُوَّلًا أريبًا ملق اللسان، والسادسة: أن يكون لسرِّه ولسرِّ غيره حافظًا، والسابعة: أن يكون قادرًا على لسانه، فلا يلفظ من الكلام إلَّا ما قد روَّى فيه وقدَّره، والثامنة: إذا كان في المحفل لم يُجِب إلَّا بما يُسأل عنه، ولم يُظهر من الأمر إلَّا ما يجب عليه.

فمن اجتمعت فيه هذه الخصالُ الثمانية كان هو الداعيَ إلى نفسه الخيرَ والرِّبح، والمجنِّب لنفسه الشرَّ والخُسران، وقد كملت هذه الخصال بأسرها، وهي بيَّنةٌ ظاهرةٌ فيك، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال شُفِّع في طَلِبَته، وأُسعِف بحاجته، وإن حاجتك التي تطلب قد أرعبتني وأدخلت عليَّ الوحشة والخشية، ونسأل الله السلامة.

فلما سمِع برزويه بذلك تيقن أنه قد ظفر بحاجته، وأقبل عليه، وقال: يا أخي، لم تُخْطِ فِراستي فيك في أول مَقدَمي عليك، واستماعي جوابك، وإنما رميتُك بجملة كلامي، وإيجاز منطقي، لما علمتُ من حُسن مَنْقَبتك، وبُعد مذهبك، وغوصك على معدن الفطنة والحكمة، فلذلك وثِقتُ منك بحسن القول مني وقبول كلامي، وإسعافي بحاجتي، وإن إفضاءَ السرِّ إلى العلماء والعقلاء وأهل العلم، والثقةَ بهم، أفضلُ عُدَّة، وكذلك شبَّهَتِ العلماءُ مُودِع الأسرار عند أهلها بالجبل الشامخ الذي لا تُزيله الريح، ولا تحرِّكه بكثرة إذرائها، وأنت — بحمد الله — يَدُك عندي جميلة، عليها أعتمد.

قال الهندي: حِفظُ الأسرار وكتمانها شبَّهته العلماء بغلاف القارورة المغطَّى عليها، تراها واحدة، فإذا نُزِع الغِطاء فجِرمان اثنان، فإذا فُرِّغت مما فيها فهي ثلاثة مشهورة قد عُلِم بها.[٦] ورأس الأدب حفظ السرِّ؛ لأنَّ السرَّ إذا تكلَّم به لسانان صار إلى ثلاثة، وإذا صار إلى ثلاثة شاع في الناس، ومَثَلُه في ذلك مَثَلُ الغيوم التي في السماء، إذا كانت

[٦] مَثَل الزجاجة ليس في النسخ الأخرى.

متقطعة فادَّعى ناسٌ أنها مستوية ليس فيها خلل ولا فُرجة، كذبهم قومٌ آخرون، وعلى النَّاظر تمييز صدق ذلك من كذبه؛ ولك عندي يا أخي — مع قُرب العهد بيننا — من الأيدي الكرام والألطاف ما أتذمَّم لذلك[٧] منك، وإنك تسألني حاجةً أتخوَّف أن تَذيع أو يَفطُن بها حاسدٌ، فيكونَ ذلك فيه هلاكي واستئصالي، ثم لا أقدر على الافتداء بعِوَضٍ ولا مالٍ ولا جاهٍ ولا عَونٍ؛ لأنَّ هذا الملك سُخطه أدنى شيء، ولا يُرضيه كثرةُ التملُّق ولا التضرُّع، فذلك دعاني إلى الانقباض منك والتأكيد عليك.

قال برزويه: مِنْ أَفْضَل الأشياء في الرِّجال كتمانُ السرِّ، وحفظ ما استُودِع منه، فإنما نجاحُ حاجتي بإذن الله في يدك، وكتمانُ ذلك في يدي.

قال برزويه:[٨] إنَّ العُلماء قد مدحت الصديقَ إذا كَتَمَ سرَّ صديقه، وهذا الأمر الذي قدِمتُ له، إياك اعتمدتُ به، وإليك أفشيته، ولن يتجاوز مني ومنك إلى أحدٍ تكرهه وتخاف إذاعته وإفشاءه، وأنت تعلم أنك من قِبَلي آمن، ولكنك تتقي أهلَ بلادك المُطيفين بالملك أن يُشيعوا ذلك، وأرجو ألَّا يشيع؛ لأني ظاعنٌ وأنت مُقيم، وما أقمتُ فليس بيننا ثالث، فشفَّعه الهندي فيما طلب، وأعطاه حاجته من الكُتب، ودفع إليه كتاب كليلة ودمنة.[٩]

فلمَّا وقع برزويه في تفسير الكتب ونَسْخها أقام على ذلك زمانًا عظُمَت فيه مئونته ونفقته، وأنصَبَ فيه بدنَه، وسهِر فيه ليله، ودأب فيه نهاره من الخوف على نفسه.

فلَمَّا فرغ منه ومن سائر الكتب وأحكمها، كتب إلى كسرى أنو شِروان يُعلمه بما لقيَ من التعب والعناء، وأنه قد فرغ منه ومن سائر الكتب، فأجابه كسرى في سرٍّ مكتوم يأمره بالأوبة إليه ساعة يَرِد عليه الكتاب، فتجهَّز برزويه، وخرج من بلاد الهند حتى ورد فارس، ودخل على كسرى وخرَّ له ساجدًا، فلمَّا رفع رأسه واستوى قائمًا رآه كسرى قد شحَب لونه، وتغيَّرت سحنته، وشاب رأسه، فَرَقَّ له وقال: أبشر أيها العبد المطيع مولاه، الناصح لملكه، ببشرى صالحة، فقد استوجبتَ الشكر منَّا، ومن جميع الخاصة والعامة، فإنَّا لا نَدَع رِفْدَك والنظر لك، ونحن صانعون لك أفضل ما رجوت وأمَّلت، ثم أمره أن ينصرف ويُريح بدنه سبعة أيام ثم يأتيه، ففعل.

[٧] وضع الإشارة موضع الضمير هنا يشبه التعبير الفارسي.

[٨] الظاهر أنَّ عبارة: «قال برزويه» كُرِّرت في أثناء كلامه تأكُّدًا.

[٩] في النسخ المصرية ونسخَتَي اليازجي وطبارة أن هذا الهندي كان خازن الملك، ونظنُّها زيادة من بعض النسَّاخ يُراد بها تفسير يمكِّن هذا الرجل من كتب الملك.



فلمَّا كان في اليوم الثامن دعا به، وأمر أن يُحضَر العلماء والأشراف من أهل مملكته، وأمر بُزُرجِمِهر أن يقرأ الكتاب على رءوس الأشهاد، فلما قرأ الكتاب وسمعوا ما فيه من العلم والأدب والأعاجيب التي حكوها على ألسُن الحيوان والطير تعجَّبوا منه، وشكروا الله على ما أنعم عليهم به من الأدب والمعرفة على يد برزويه، وأحسنوا الثناء عليه.

ثم إنَّ الملك أمر بأن تُفتح خزائن الذَّهب والفضة لبرزويه، وأمره أن يأخذ منها ما أحبَّ، فسجد برزويه للملك، ورفع رأسه وقال: عشتَ أيها الملك حميدًا مُخلَّدًا، إنَّا بحمد الله قد أفادنا الله في دولةِ الملِك وبهاءِ مُلكه وعِزِّ سلطانه ما لم نأمله، وكل ما أنعم الله علينا به من الله، ومن الملك، ولا حاجة لي إلى شيءٍ من ذلك، لكني أُريد أن أسأل الملك حاجةً يسيرةً يكون لي في قضائها ذكرٌ وفخرٌ، قال الملك: وما تلك الحاجة؟ قال برزويه: إن رأى الملك أن يأمر بُزُرجِمِهر بنَ البختكان أن يضع لي في رأس هذا الكتاب بابًا باسمي،

وينسِبَ إليه شأني وفعلي؛ ليكون لمن بعدي عِبرةً وتأديبًا، ويحيا به ذكري ما حييتُ في الدنيا وبعد وفاتي، فإنه إن فعل ذلك فقد شرَّفني وأهلَ بيتي آخر الأبد.[١٠]

فقال الملك: ما أهونَ ما سألت في جنب ما استوجبت! وتقدم إلى بُزُرجِمِهر بأن يضع له بابًا وينسبه إليه على موافقة الحق؛ ليكون تحريضًا لمن قرأه على طاعة الملوك، ولا يقصِّر في إتقانه وتحبيره بغاية وسعه وطاقته.[١١] فقبل بُزُرجِمِهر وصية كسرى في ذلك؛ لِعلمه بحُسن رأيه في برزويه وإكرامه إياه، وأطنب في ذلك الباب، واجتهد في إتقانه وترصيفه، ونسبه إليه، وذكر تنقله من حال إلى حال، وبحثه عن الأديان، والتماسه طلب الحكمة، ثم استأذن على الملك فقرأه بين يديه، فتعجَّب كسرى ومن بحضرته منه.[١٢]

فمن قرأ هذا الكتاب فليعرفِ السبب الذي وُضِعَ عليه كتابُ كليلة ودمنة، وحُوِّل من أرض الهند إلى أرض فارس، وليعرفْ فضلَ الملوك وطاعتهم، ويؤثرها على سائر الأعمال، وليعلمْ أنَّ الشريف من شرَّفته الملوك، ورفعته في دولتها.

---

[١٠] في النسخ الأخرى إطناب في حديث برزويه والملك.

[١١] في النسخ الأخرى إطناب في وصف الملك الباب الذي يضعه بزرجمهر، وفيها طلبُ الملك أن يُجعل هذا الباب أول الأبواب.

[١٢] في النُّسخ الأخرى وصف احتفال أنو شروان بقراءة «باب برزويه».

باب برزويه الطبيب[1]

من كلام بزرجمهر بن البختكان

قال بُزُرجِمِهر: إنَّ برزويه رأس أطباء فارس، وهو الذي وَلِيَ انتساخ هذا الكتاب وترجمه من كتب الهند، قال: إنَّ أبي كان من المقاتِلة، وكانت أمي من بنات عظماء الزمازِمة، وفقهائهم في دينهم.

وكان مما ابتدأني به ربِّي من نِعَمِه أني كنتُ من أكرم وَلَد أبويِّ عليهما، وأنهما أسلماني في تعليم الطب لَمَّا صار لي من عمري سبعُ سنين،[2] فلمَّا بلغتُ وعرفتُ أمر الطب وفضلَه، شكرت رأيَهما في ذلك، ورغبتُ في تعلمه، حتى إذا شدوت منه عِلمًا، وبلغت فيه ما أمنتُ له نفسي على مداواة المرضى وهممت بذلك، آمرتُ نفسي وذكَّرتها وخيَّرتها بين الأمور الأربعة التي إياها يطلب الناس، ولها يَسْعَوْنَ، وإليها يَجِدُّون، فقلتُ: أيُّ هذه الخلال ينبغي لمثلي أن يلتمس؟ وأيها أحرَى — إن هو بغاه — أن يُدرِك منه حاجته؟ آلمالُ أم اللذاتُ أم الصوت أم أجرُ الآخرة؟ واستدللتُ على المختار من ذلك، فوجدت الطبَّ

[1] تتفق النسخ على أنَّ هذا الباب من وضع بزرجمهر، وتتفق في سياقه وعباراته أكثر مما تتفق في البابين السابقين، ونسخة شيخو تضعه بعد «باب بعثة برزويه»، وقبل «عرض الكتاب لابن المقفع»، والنسخ الأخرى تضعه بعد «عرض الكتاب»، وتضع هذا بعد «باب بعثة برزويه» (انظر المقدمة).

[2] في النسخ الأخرى أنَّ أبويه أسلماه إلى المؤدب وعمره سبع سنين، فلمَّا حذق الكتابة نظر فاختار الطب.

محمودًا عند العُقلاء، ولم أجده مذمومًا عند أحد من أهل الأديان والملل، وأصبت في كتبهم أنَّ أفضل الأطباء من واظب على طبِّه لا يُريد بذلك إلَّا الآخرة، فرأيتُ أن أواظبَ عليه أبتغي ذلك، ولا ألتمس له ثمنًا، ولا أكونَ كالتاجر الخاسر الذي باع ياقوتة كان مُصيبًا من ثمنها غِنَى الدهر بخرزة لا تساوي شيئًا، ووجدت في كتبهم أيضًا أنَّ الطبيب المبتغي بطبِّه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك من حظِّه في الدنيا، فإنما مثله في ذلك مثل الحرَّاث الذي يُثير أرضه ويَعمُرها ابتغاء الزَّرع لا العشب، ثم هي لا محالة نابتٌ فيها ألوانٌ منه، فأقبلتُ على مداواة المرضى رجاء ذلك، فلم أَدَعْ مريضًا أرجو له البُرء وأطمع له في خفة الوجَع إلَّا بلغتُ في معالجته جُهدي، ومن قَدَرتُ على القيام عليه قمتُ عليه وفعلتُ به ذلك وإلَّا وصفت له، ولم أُرِدْ لشيء من ذلك جزاءً ولا مكافأةً ممن فعلته به، ولم أغبط من نُظَرائي ومن هو مثلي في العلم وفوقي في المال أحدًا إلَّا بعين صلاح أو حسن سيرة في الناس قولًا وعملًا،[٣] وكنت أقرِّع نفسي إذا هي نازعتني إلى أن تغبِط أولئك، وتتمنى منازلهم، وآبَى لها إلَّا الخصومة، وأقولُ: يا نفس، أما تعرفين نفعك من ضُرِّك؟ ألَّا تنتهين عن الرَّغبة فيما لم يَنَلْه أحد إلَّا قلَّ انتفاعه به وكثُر عناؤه فيه، واشتدت مئونته عليه عند فراقه، وعظمت التبعة عليه بعده؟ يا نفس أما تذكُرين ما أمامَك فَتَنْسَيْ ما تَشرَهين إليه فيما بين يديك؟ ألا تستحين من مُشاركة الفجرة الجُهَّال في حب هذه الفانية البائدة التي من كان في يده منها شيءٌ فليس له ولا بباقٍ عليه، والتي لا يألفها إلَّا المغترُّون الغافلون؟

يا نفس، أقصري عن هذا السفه، وما أنت عليه من خطل الرأي فيه، وأقبِلي — بقوَّتك وسعيك وما تملكين — على تقديم الخير والأجر ما استطعت، وإياك والتسويفَ والتواني، واعلمي أنَّ هذا الجسد ذو آفاتٍ، وأنه مملوء أخلاطًا فاسدة قذِرة تجمعُها أربعةُ أشياء مُتعاديةٍ مُتغالبةٍ تعمِدُهنَّ الحياة، وهي إلى نفاد، كالصنم المفصَّل أعضاؤه إذا رُكِّبت جَمَعها مِسمارٌ واحدٌ وأمسك بعضها على بعض، فإذا أُخذ المسمار تساقطت الأوصال. يا نفس، لا تغتري بصحبة أحبائك وأخلائك، ولا تحرصي على ذلك، فإنها على ما فيها من السرور والبهجة كثيرةُ الأذى والمئونات والأحزان، ثم تختتم ذلك بقطع الفراق، كالمِغْرَفَة تُستعمل في صحتها وجِدَّتها في حرارة المرق وسخونته، فإذا هي انكسرت صار عاقبة أمرها إلى النار. يا نفس، لا يحملنَّك ما تريدين من صلة أهلك وأقاربك والتماس

[٣] في النسخ الأخرى: «وفوقي في المال والجاه وغيرهما مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولًا ولا عملًا.»

رضاهم على جمع ما تهلكين فيه، فإذا أنت كالدُّخنة الطيِّبة التي تحترق ويذهبُ بِعَرْفِها آخرون، وكالذُّبالة تضيء لغيرها باحتراقها.[٤] يا نفس، لا تغتري بالغنى والمنزلة التي تبطر أهلها، فإنها إلى انقلاب، وإنَّ صاحب ذلك لا يُبصر صِغر ما يستعظم حتى يُفارقه، فيكونُ كشعَر الرأس الذي يُكرمه صاحبه، ويخدُمه ما دام على رأسه، فإذا فارق رأسه قذَره وقزَّ منه. يا نفس، دومي على مداواة المرضى، ولا يعوِّقْكِ عن ذلك أن تقولي: إنَّ الطبَّ مئونة شديدة، والناسُ بمنافعها ومنافع الطب جُهَّال، ولكن اعتبري بمن يُفَرِّجُ عن رَجُلٍ كُربةً تحُلُّ به، ويستنقذه منها حتى يعودَ بها إلى ما كان يكون فيه من السَّعة والرَّوح، فإنه أهلٌ لعظيم الأجر وحُسن الجزاء، فكيف بالمتطبب الذي يفعل ذلك بالعدَّة التي الله أعلم بها، فيعودون — بعد الأسقام المُمِضَّة والأوجاعِ الحائلة بينهم وبين لذات الدنيا من طعامها وشرابها وأزواجها وأولادها — إلى أحسنِ ما كانوا يكونون عليه من حالاتهم؛ فإنَّ هذا خليقٌ بجزيلِ الثواب وعظيم الرَّجاء. يا نفس، لا يبعُدنَّ عليك أمرُ الآخرة الدائمة فتميلي إلى الدُّنيا الزائلة، فتكوني في استعجال القليل وبيع الكثير باليسير كالتاجر الذي زعموا أنَّه كان له ملء بيت صندلًا، فقال: إن أنا بعته موزونًا طال علي، فباعه مجازفةً بأخسِّ الثمن.

فلمَّا[٥] خاصمتُ نفسي بهذا، وأخذتها به، وبصَّرتها إياه؛ لم تجد له نقضًا، ولا عنه مذهبًا ولا منصرفًا، فاعترفتْ وأقرَّت، ولَهَت عما كانت تنزع إليه وترغب فيه، وأقمتُ على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة، فلم يمنعني ذلك من أن أصبتُ من الدنيا حظًّا جسيمًا ونصيبًا عظيمًا من الملوك والأولياء والإخوان قبل أن آتي الهند، وبعد رجوعي منها، وفوق الذي كان طمعي يجنح إليه، وفوق ما كنتُ له أهلًا.

ثم نظرت في الطب فوجدتُ الطبيب لا يستطيع أن يُداوي المريض بدواءٍ يُذهب عنه داءه، فلا يعود إليه أبدًا ذلك الداء ولا غيرُه من الأدواء التي هي مثلُه أو أشدُّ منه، فلم أدرِ كيف أَعُدُّ البُرءَ بُرءًا، والداءُ لا تُؤمن عودته أو اعتراء ما هو أشدَّ منه، ووجدتُ عمل الآخرة هو الذي يُسَلِّم من الأذى حتى يبرأ صاحبها بُرءًا يأمن معه من الأدواء كلها، فاستخففتُ

---

[٤] مَثَل الذُّبالة ليس في النسخ الأخرى.

[٥] من قوله: «فلمَّا خاصمت نفسي» إلى قوله: «فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحدٍ منهم سبيلًا» ناقص في النسخ الأخرى إلَّا نسخة شيخو، وكأنه حُذِف لما فيه من الكلام عن الأديان وغيرها، ولهذا يرى بعض الناس أنَّ هذا الباب كله من وضع ابن المقفع أراد أن يشكك به الناس في الدين (انظر المقدمة).

بالطب وأردت الدين، فلما وقع ذلك في نفسي اشتبه عليَّ أمرُ الدين، أمَّا كُتُب الطب فلم أجد فيها لشيءٍ من الأديان ذكرًا يدُلُّني على أهداها وأصوبها، وأمَّا الملل فكثيرة مُختلفة ليس منها شيءٌ إلَّا وهو على ثلاثة أصناف: قومٌ ورثوا دينهم عن آبائهم، وآخرون أُكرهوا عليه حتى ولجوا فيه، وآخرون يبتغون به الدنيا، وكلُّهم يَزْعُم أنَّه على صواب وهُدًى، وأنَّ من خالفه على خطأ وضلالةٍ، والاختلاف بينهم كثيرٌ في أمر الخالق والخلق، ومبتدأ الأمر ومنتهاه، وما سوى ذلك، وكلٌّ على كلٍّ زارٍ، وله عدوٌّ، وعليه عائبٌ، فرأيتُ أن أُراجِعَ علماءَ أهل كل مِلَّة، وأُناظرهم فأنظر فيما يصفون، لعلِّي أعرفُ بذلك الحقَّ من الباطل فأختاره وألزمه على ثقة ويقين، غيرَ مُصدِّقٍ بما لا أعرف، ولا تابع ما لا يبلغه عقلي، ففعلتُ ذلك وسألتُ ونظرتُ فلم أجد أحدًا من الأوائل يزيدُ على مدح دينه، وذمِّ ما يخالفه من الأديان، فاستبان لي أنهم بالهوى يجيبون ويتكلمون لا بالعدل، ولم أجد عند أحدٍ منهم صفةً تكون عدلًا يعرفها ذو العقل ويرضى بها.

فلمَّا رأيتُ ذلك لم أجد إلى مُتابعة أحد منهم سبيلًا، وعرفت أني إنْ أُوافقه على ما لا أعلم أكُن كالمصدِّق المخدوع الذي[٦] زَعَمُوا أنَّ جماعة من اللصوص ذهبوا إلى بيت رجل من الأغنياء ليسرقوا متاعه، فعلَوا ظهر بيته ليلًا، فانتبه صاحب البيت لوطئهم وأحسَّ بهم، فعرف أنه لم يعلُ ظهر بيته في تلك الساعة إلا مُريب، فأيقظ امرأته وقال لها: رويدًا! إني لأحسَبُ اللصوص قد علَوْا ظهر بيتنا، وأنا مُتناومٌ لك، فأيقظيني بصوتٍ رفيع يسمعه مَنْ فوق البيت من اللصوص، ثم قولي لي: ألا تُخبِرُني عن أموالك الكثيرة هذه وكنوزك من أين جمعتها؟ فإذا أبيتُ عليكِ فألحِّي في السؤال، ففعلت المرأة ذلك، وسمع اللصوص كلامها، فقال الرجل: أيتها المرأة، قد ساقك القدر إلى رزقٍ واسعٍ، فكُلي واشربي واسكتي ولا تسألي عمَّا لو أخبرتك به لم آمن أن يسمعه سامع، فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين، فقالت المرأة: لَعَمري ما بقُربِنا أحد يفهم كلامنا، قال الرجل: فإني مُخبرك أني لم أجمع هذه الأموال والكنوز إلا من السرقة، قالت: وكيف كان ذلك وأنت في أعين الناس عدلٌ مرضيٌّ لم يتَّهِمْك ولم يَسْتَرِبْ بك أحد؟ قال: ذلك لعلمٍ أصبته في

[٦] كلمة «الذي» هنا تُشبه أن تكون ترجمة الكلمة «كه» الفارسية، وهي تكون بمعنى الذي، وتأتي للتعليل والتفريع، وينبغي أن يكون موضعها هنا: «فقد زعموا»، وفي النسخ الأخرى: «زعموا فيه» أو «في شأنه» وهذا تصحيح للجملة بذكر الضمير العائد على الموصول لتوافق النحو العربي.

السرقة كان ألطف وأرفق من أن يتهمني أحد أو يرتاب فيَّ، قالت: وكيف كان ذلك؟ قال: كنتُ أذهب في الليلة المُقمِرة ومعي أصحابي حتى أعلو ظهر البيت الذي أريد أن أسرقه، فأنتهي إلى الكُوة التي يدخل منها الضوء إلى البيت، فأرقي بهذه الرُّقية، وهي: «شَولَم، شَولَم» سبع مرات، ثم أعتنق الضوء فأهبط إلى البيت، ولا يحسُّ بوقوعي أحدٌ، ثم أقومُ في أسفل الضوء فأعيد الرُّقية سبع مرات، فلا يبقى في البيت مالٌ ولا متاعٌ إلا ظهر لي، وأمكنني أن أتناوله، وقويتُ على حمله، ثم أعيدُها وأعتنق الضوء وأصعدُ إلى أصحابي فأحمِّلهم ما معي، ثم نَنْسَلُّ ولا يشعر بنا أحد.

فلمَّا سمع اللصوص ذلك فرِحوا وقالوا: لقد ظِفرنا من هذا البيت بأمرٍ هو خيرٌ لنا من المال، وأمِنَّا به من السلطان، وأطالوا المُكث حتى ظنُّوا أنَّ الرجل قد نام، ودنا رئيسهم إلى مدخل الضوء من الكُوَّة، فقال: «شَولَم، شَولَم» سبع مرات، ثم اعتنق الضوء لينزل إلى البيت، فوقع مُنَكَّسًا، فوثب إليه صاحب البيت بِهراوة فأوجعه ضربًا، وقال له: من أنت؟ قال: أنا المصدِّق المخدوع، وهذه ثمرة تصديقي.

فلما تحرَّزت من التصديق بما لم آمن أن يوقِعني في مَهلَكة عُدتُ إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها، فلم أجد عِنْدَ أحد مِمَّن كلَّمتُه — في جواب ما سألتُه عنه، ولا فيما ابتدأني به — شيئًا يحقُّ عليَّ في عقلي أن أوقن به وأتبعه، فقلتُ: أما إذا لم أُصِب ثقةً آخُذ منه فإنَّ الرأي أن ألزم دين آبائي، وهممتُ بذلك فلم أرَ لي فيه مخرجًا، ولا وجدتُ الثبوت على دين الآباء سبيلًا، ولا لي فيه حُجَةً ولا عُذرًا، فأردت التفرغ للعَود إلى البحث عن الأديان والمسألة عنها، فعرض لي تخوُّفُ قُرْبِ الأجل وسرعتِه، وانقطاع الدنيا وفناؤها، وفكَّرت في ذلك الوقت وقلتُ: أمَّا أنا فلعل موتي يكون أوشك من تقليب كفِّي ورجْع جَفني على عينيَّ، وقد كنتُ أعمل أمورًا أرجو أن تكون من صالح الأعمال، لعلَّ تردُّدي وتنقلي وبحثي عن الأديان يشغلني عن خيرٍ كنت أفعله، فيكون أجلي دون ما يطمح إليه أملي، أو يُصيبني في ترددي وتحولي ما أصاب الرجل الذي زعموا أنه عَلِق امرأةً ذات بعل وعلِقَته، فحفرت له من بيتها سَرَبًا إلى الطريق، وجعلت مخرجه عند حُبِّ الماء، تخوُّفًا أن يفاجئها زوجها أو أحدٍ وهو عندها، فبينما هي ذات يوم وهو عندها إذ بلغها أنَّ زوجها بالباب، فقالت للرَّجل: اعجل واخرُج من السَّرَب الذي عند الحُبِّ، فانطلق الرجل إلى ذلك المكان، فوافق الحُبَّ قد رُفع من ذلك المكان، فرجع إلى المرأة فقال: قد انتهيتُ إلى حيث أمرتِ فلم أجد الحب، فقالت المرأة: أيها المائق، وما تصنع بالحُبِّ؟ وهل سميته لك إلا لتستدل به على السَّرَب؟ قال: لم تكوني حقيقةً أن تذكريه

لِي فتغلِّطيني به، فقالت المرأة: ويحك! انجُ بنفسك، ودع التردد والحمق، فقال: كيف أذهب وقد خلطت عليَّ؟ فلم تزل تلك حالته حتى دخل زوجها فأوجعه ضربًا ثم رفعه إلى السلطان.

فلما خفتُ التردد والتحول رأيت ألا أتعرض لهما، وأن أقتصر على كلِّ شيءٍ تشهد العقول أنه بِرٌّ، ويتفق عليه كل أهل الأديان، فكففتُ يدي عن الضرب والقتل والسَّرقة والخيانة، ونفسي عن الغضب، ولساني عن الكذب وعن كل كلام فيه ضررٌ لأحد، وكففتُ عن أذى الناس والغيبة والبُهتان، وحصَّنت فرجي عنِ النِّساء، والتمست من قلبي ألَّا أتمنى ما لغيري، ولا أُحِبَّ له سوءًا، ولا أكذِّب بالبعث والحساب والقيامة والثواب والعقاب، وزايلتُ الأشرار بقلبي، وأحببتُ الصُّلَحاء جُهدي، ورأيتُ الصلاح ليس مثلَه قرينٌ ولا صاحبٌ، ومُكتَسَبه — إذا وفَّق الله له — يسيرٌ، وأصبتُه خيرًا على أهله، وأبرَّ من الآباء والأمهات، ووجدته يدلُّ على الخير، ويُشير بالنصح، فِعل الصديق بالصديق، ووجدته لا ينقص إذا أُنفق منه، بل يزداد على الإنفاق ويكثُر، ولا يَخْلَق على الابتذال والاستعمال، بل يجدُّ ويحسُن، ولا خوف عليه من السلطان أن يسلُبه، ولا من الآفات أن تُفسِده، ولا من النار أن تُحرِقه، ولا من اللصوص سَرَقًا، ولا من السباع افتراسًا، ولا من ذي حُمَةٍ لدغًا، ولا من الغارة، ولا من الجوائح. ووجدت الرجل الذي يزهد في الصلاح وعاقبته، ويُلهيه عن ذلك قليل ما هو فيه من الحلاوة العاجلة النفاد، إنما مَثَلُه فيما ذهبت فيه أيامُه مَثَلُ التاجر الذي زعموا أنَّه كان له جوهر كثير، فاستأجر لثقبه وعملِه رجلًا بمائة دينار يومه إلى الليل، فانطلق به إلى بيته، فلما جلسا إذا بصنجٍ موضوع، فنظر إليه، فقال له التاجر: أتحسِنُ أن تَضرب به؟ قال: نعم، قال: فدونك، فتناوله وكان به ماهرًا، فلم يزل يُسمِعه صوتًا حسنًا مصيبًا، وترك سَفَط جوهره مفتوحًا وأقبل عليه.

فلما أمسى قال: مُرْ لي بأجرتي، قال: وهل عملت شيئًا؟ قال: نعم، عملتُ ما أمرتني به، فوفَّاه أجرته، وبقي ما استأجره عليه غير معمول. فلم أزدد في أمور الدنيا نظرًا إلَّا أحدَثَ لي ذلك فيها زُهدًا، ورأيتُ أن أعتصم بالتأله والنُّسك، ووجدتهما اللذين يمهِّدان للعباد، كما يفعل بالمرء أبوه،[٧] وشبَّهتهما الجُنَّة الحريزة في دفع الشر الباقي الدائم، ورأيتُهما الباب المفتوح إلى الجنَّة، ووجدتُ الناسك قد فكَّر فَعَلَتْهُ السكينة،

[٧] في النسخ الأخرى: «كما يمهِّد الوالد لولده»، وكأنها توضيح للجملة التي في نسختنا.

وشكر فتواضع، وقنِع فاستغنى، ورضيَ فلم يهتم، وخلع الدنيا فنجا من الشرور، ورفض الشهوات فصار طاهرًا، وانفرد فكُفيَ الأحزان، وطرد الحسد فظهرت منه المحبة، وسَخت نفسُه عن كل شيءٍ فانٍ فاستكمل العقل، وأبصر العاقبة فأَمِن من الندامة، ولم يُخِفِ الناس فأَمِنَ منهم، ولم يُذنب إليهم فسلم. فلم أزدد في أمر النُّسك تفكُّرًا إلا أحدث لي عليه حرصًا، فهممتُ أن أكون من أهله، ثم تخوَّفتُ ألَّا أصبِر على عيشهم، وأن ترُدَّني العادة التي جريتُ عليها وغُذِيتُ بها، ولم آمَن إن أنا خلعتُ الدنيا وأخذتُ في النُّسك أن أضعف عنه، وأكون قد رفضتُ أمورًا كنت أعملها قبله أرجو عائدتها، فأكون كالكلب الذي مرَّ بنهر وفي فيه ضِلَع، فرأى ظله في الماء فأهوى إليه ليأخذه، وترك ما كان معه فذهب، ولم يَنَلِ الذي طمِع فيه. فهِبْتُ النُّسك هيبة شديدة، فأحجمت عن الإقدام عليه، وخفت على نفسي من الضجر فيه وقلة الصبر عليه، ودعاني الهوى إلى الرضا بما كنتُ عليه من حالي في الدنيا والثبوت عليها، ثم بدا لي أن أقيسَ بين ما أُشفق ألَّا أقوَى عليه من الأذى والضيق في النُّسك وبين الذي يصيب صاحبَ الدنيا من البلاء فيها، فكان يتحقَّق عندي أنه ليس من شهواتها ولذَّاتها شيءٌ إلا وهو متحوِّلٌ مكروهًا وحُزنًا، وأنَّه كالماء المِلح الذي لا يزداد الظمآن منه شُربًا إلا ازداد به عطشًا، وكالعَظم المتعرِّق الذي يُصيبه الكلب فيجدُ فيه ريح لحم فلا يزال يلوكه، وكُلما ازداد له نهشًا زاد كدوحًا حتى يُدمِيَ فاه، وهو لا يُكثر التماسَه إلَّا جَرَحَه وأدماه، وكالحِدَأة التي تظفر بالبَضْعَة من اللحم، فتجتمع عليها الطير، فلا تزال في تعب حتى تلفظها وقد أعيت وتعبت، وكالكوزة من العسل في أسفلها سمٌّ، والذائق لها مُصيب منها حلاوة عاجلة وفي أسفلها موت زُعاف، وكأحلام النائم التي تُفرحه، فإذا استيقظ انقطع عنه ذلك، وكالبَرق الذي يُضيء قليلًا ويذهب وشيكًا، ويبقى راجيه في الظلام، وكَدُودة الأبريسَم التي لا تزداد على نفسها لفًّا إلا ازدادت تشبُّكًا، ومن الخروج بُعدًا.

فلمَّا فكَّرتُ في ذلك راجعتُ نفسي في اختيار النُّسُك وخاصمتها، فقلتُ: ما يجوز هذا، أن[8] أفرَّ من النُّسك إلى الدنيا، إذا فكَّرتُ في شرورها وأحزانها، ثم أهربَ منه إليها إذا تذكرتُ ما فيها من الضيق والمشقة، فلا أزال في تصرف وفي تقلب لا أُبْرِمُ رأيًا ولا أعزِمُ

[8] هذه العبارة تشبه العبارة الفارسية التي يؤتى فيها باسم الإشارة ثم الموصول مفسِّرًا له: «آن كه.»

عليه، فصرتُ كحديرون قاضي مرو[٩] الذي سمع من أوَّل الخصمين فقضى على الآخر، ثم سمع من الآخر فقضى له على الأول، فنظرتُ إلى الذي يتكاءدُني من أذى النُّسك وضيقه، فقلتُ: ما أصغر هذا في جنب رَوح الأبد وراحته! وفكَّرتُ فيما تَشْرَهُ إليه النفس من اللهو واللذة، فقلتُ: ما أوخَمَه مع ما يُتخوَّف من العذاب والهوان! فكيف لا يستحلي الإنسانُ مرارةً فانيةً قليلةً تورثه حلاوةً كثيرةً باقيةً.

ولو أنَّ الرجل عُرِض عليه أن يعيش ألف سنة، لا يأتي عليه يومٌ إلا بُضِع لحمُه، غيرَ أنه شُرِط له أنه إذا استوفاها نجا من الألم والمشقة، وصار إلى الأمن والسرور، كان حقيقًا ألا يراها شيئًا، فكيف لا يصبر على أيام يسيرة وأذًى حقير يُصيبه في الدنيا؟ أوَ ليس إنما الدنيا كلها عذابٌ وبلاءٌ؟ فإن الإنسان يتقلَّب في ذلك من حينِ يكونُ جنينًا إلى أن يستوفي أيامه، فإنَّا نجد في كتب الطب أن الماء الذي يُقدَّر منه الولد السوي إذا وقع في رحم المرأة اختلط بمائها ودمها، فخثَر وغلُظ، فمخضته الريح حتى يصير كماء الجُبن، ثم يصيرُ كاللبن الرائب، ثم تنقسِمُ أعضاؤه لإبَّان أجله، فإن كان ذكرًا فوجهه قِبَل ظهر أمه، وإن كانت أُنثى فوجهها قِبل بطنها، ويداه على وجهه، وذقنه على ركبتيه، مقبَّض في المشيمة كأنه مصرور في صُرَّة، وهو يتنفس من متنفَّس شاقٍّ عليه، وليس منه عضو إلا كأنه في وثاق، فوقه حرُّ البطن وثِقَله، وتحته ما تحتَه، منوطٌ قِمع سُرَّته إلى مريءٍ بأمعائها، يمصُّ به من طعامها وشرابها، وبذلك يعيش ويحيا، فهو بهذه المنزلة وعلى هذا الحال إلى يوم ولادته. فإذا كان إبَّان ذلك سُلِّطت الريح على الرحِم، وقويَ على التحريك، فيتصوَّب رأسه قِبَل المخرج، فيجد من ضيقه مِثلَ ما يجد صاحب الوهق من عصره، فإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو مسَّته يد، وجد لذلك من الألم ما يجد الإنسان الذي قد سُلِخ جلده، ثم هو في ألوان العذاب إذا جاع وليس به استطعام، أو عطش وليس به استسقاء، أو اشتكى وليس به استغاثة، مع ما يلقى من الوضع والرفع واللف والحل والدهن والمسح. وإذا أُنيم على ظهره أو بطنه لم يستطع تقلبًا ولا تحوُّلًا، مع أصناف من العذاب ما دام رضيعًا؛ فإذا هو أفلَت من ذلك أُخِذَ بالأدب، وأُذيق منه فنونًا وألوانًا، ثم الدواء والحِمية، والأوجاع والأسقام، وغير ذلك؛ فإذا هو أدرك فهمُّه

[٩] ليس في النسخ الأخرى تسمية القاضي ولا المدينة، ولم نجد اسم هذا القاضي في كتب الأدب العربية والفارسية.

المالُ والأهلُ والولدُ، وتَعَبُ الشرَه والحرص والمخاطرة والسعي، ومجاهدةِ العدو، وفي كل ما وصفتُ يتقلب معه أعداؤه الأربعة، من المِرَّة والبلغمِ والدمِ والريح، والسم المميت والهوام والسباع والناس، والحر والبرد والأمطار والرياح، وألوان مكاره الهرَم لمن بلغه، فلو لم يخَف من هذه الأمور شيئًا، ووُثِق له بالسلامة منها، وكان حقيقًا ألا يُفَكِّر إلا في الساعة التي يحضره فيها الموت، ويفكِّر فيما هو نازلٌ به عندها من فراق الأهل والأحبة والأقارب، وكل مضنون به ومرغوب فيه، والإشراف على الهول العظيم الفظيع المهول بعد الموت؛ لكان حقيقًا أن يُعدَّ عاجزًا مفرِّطًا واهنًا، إن لم يُعِدَّ لذلك، ويتأهب لفجأته قبل حلوله ونزوله بعَقْوته، ويرفض ما يشغله ويُلهيه من شهوات الدنيا وشرورها، لا سيما في هذا الزَّمان الهرم البالي الشبيه بالصبُابة والكَدَر، فإنه وإن كان الله تعالى قد جعل الملك سعيد الأمر، ميمونَ النقيبة، حازمَ الرأي، بعيد المقدرة، رفيع الهمة، بليغَ الفحص، عدلًا برًّا جَوادًا صادقًا شكورًا رحْب الذراع، متفقِّدًا للحقوق، مواظبًا فَهِمًا حليمًا رءوفًا رحيمًا، عالمًا بالناس، محبًّا للخير وأهله، شديدًا على الظَّلَمَة، مُوَسِّعًا على رعيته، فإنَّا نرى الزمان مُدبِرًا بكل مكان، حتى كأنَّ الفضل قد وُدِّع، وأصبح مفقودًا ما كان عزيزًا فقده، موجودًا ما هو ضارٌّ لمن ظفر به، وكأَنَّ الخيرَ أصبح ذابلًا والشر نضيرًا، وكأنَّ الغيَّ أقبل ضاحكًا، وأدبر الرشد باكيًا، وكأنَّ العدل أصبح غابرًا، وأصبحَ الجور غالبًا، وكأنَّ العلم أصبح مستورًا، وأصبح الجهل منشورًا، وكأنَّ اللؤم أصبح آمرًا، وأصبح الكرم موطوءًا، وكأنَّ الوُدَّ أصبح مقطوعًا، وأصبح الحِقدُ موصولًا، وكأن الكرامةَ قد سُلِبت من الصالحين وتوخِّي بها الأشرار، وكأنَّ الغدر أصبح مستيقظًا وأصبح الوفاء نائمًا، وكأنَّ الكذب أصبح غضًّا والصدق قاحلًا، وكأن الحق ولَّى عاثرًا وأصبح العُدوان قد جرى سبيله، والإنصاف بائسًا والباطل مُستعليًا، والهوى بالحكَّام مُوَكَّلًا، والمظلومُ بالخسف مُقِرًّا، والظالمُ لنفسه فيه مُستطيلًا، والحرصُ فاغرًا فاه يتلقف من كل جهة ما قرُب منه وما بعُد عنه، والرِّضا مجهودًا مفقودًا، والأشرارُ يُسامُون السماء، والأبرار يريدون بطن الأرض، وأصبحت المروءةُ مقذوفًا بها من أعلى شرف إلى أسفل مهواة، والدناءة مكرَّمةً والرفعة مَجْفُوَّة والسلطانُ مُتنقلًا من أهل الفضل إلى أهل النقص، والدنيا جذِلة مسرورة تقول: قد غُيِّبت الحسنات وأُظهرت السيئات.

فلمَّا فكرت في أمر الدنيا، وعلمتُ أنَّ هذا الإنسان هو أشرفُ الخلق وأفضله فيها، ثم هو على منزلته لا يتقلَّب إلَّا في شرٍّ ولا يوصف إلا به؛ علمتُ أنه ليس من أحدٍ له أدنى عقل يفهمُ هذا ثم لا يحتاطُ لنفسه ولا يعمل لنجاتها، ويلتمسُ الخلاص لها إلا وهو ضعيفُ



الرأي قليلُ المعرفة بما عليه وله، ونظرتُ فإذا هو لا يمنعه من ذلك إلا لذةٌ حقيرةٌ يسيرةٌ من المشرب والمطعم والشم والنظر والسمع واللمس، لعلَّه يُصيب منه طفيفًا لا يوصف، سريعٌ انقطاعُه وامتحاقُه وزواله. فالتمستُ له مثلًا فإذا مثله مثل رجل ألجأه الخوف إلى بئر تدلَّى فيها وتعلَّق بغصنين نابتين على شُفرها، فوقع رجلاه على شيء عَمَدَهما، فنظر فإذا هو بأربع أفاعٍ قد أطلعن رءوسهن من أجحِرتهن، ونظر إلى أسفلها فإذا هو بتنينٍ فاغرٍ فاه نحوه، ورفع بصره إلى الغصنين فإذا في أصولهما جُرذان أبيضُ وأسودُ يقرضانهما دائبَيْن لا يفتُران، فبينما هو على ذلك يهتمُّ بالحيلة لنفسه إذ نظر فإذا قريبٌ منه كُوارةُ نحل فيها شيء من عسل، فتطعَّم منه واشتغل بحلاوته عن التفكر في أمره، ونسي الحيَات الأربع التي رجلاه عليها ولا يدري متى يثُرن به أو إحداهن، ولم يذكر أنَّ الجُرذين دائبان في قطع الغصنين، وأنهما إذا قطعاهما وقع في فم التنين فهلك، فلم يزل لاهيًا ساهيًا حتى هلك.

فشبَّهت البئر بالدنيا المملوءة آفاتٍ وشرورًا ومخاوفَ ومتالفَ، وشبَّهتُ الحيَّات الأربع بالأخلاط الأربعة التي تعمَّدت الإنسان، ومتى يَهِجْ منها شيء فهو كالحُمَة من الأفعى والسمِّ المميت، وشبَّهت الغصنين بالحياة، وشبَّهت الجرذين بالليل والنهار، وقرضهما دأبهما في إنفاذ الآجال التي هي حصون الحياة، وشبَّهت التنين بالموت الذي لا بدَّ منه، والعسلُ هذه الحلاوة القليلة التي يصيبها الإنسان فتشغله عن نفسه، وتُلهيه عن التحيُّل لخلاصه، وتصُدُّه عن سبيل نجاته.

فصار أمري إلى الرضا بحالي، وإصلاح ما استطعت من عملي لمعادي؛ لَعلِّي أصادف فيما أمامي زمانًا فيه دليلٌ على هداي، وسلطانٌ على نفسي، وأعوانٌ على أمري، فأقمتُ على ما وصفتُ من حالي، وانصرفتُ من أرض الهند إلى بلادي،[١٠] وانتسخت من كتبهم كتبًا كثيرة، ومنها هذا الكتاب.

[١٠] في نسخة اليازجي: «فأقمت على هذه الحال، واتجهت إلى بلاد الهند في طلب العقاقير والأدوية، ثم عدت إليها في انتساخ هذا الكتاب وانصرفت منها إلى بلادي»، وهو كلامٌ له خطره في الدلالة على معرفة برزويه ببلاد الهند وذهابه إليها من قبل (انظر المقدمة، باب بعثة برزويه).

باب الأسد والثور

قال دَبشَليم[١] مَلك الهند لبَيْدَبا[٢] رأس فلاسفته: اضرب لي مثل الرجُلين المتحابَّينِ يقطعُ بينهما الكذوب الخئون ويحملُهما على العداوة والشنآن.

قال بيدبا الفيلسوف: إذا ابتليَ الرجُلان المُتحابَّان بأن يَدخل بينهما الخئون الكذوب تقاطَعا وتدابَرا، وفَسَد ما بينهما من المودة، ومن أمثال ذلك أنه كان بأرض دَستابَندَ[٣] تاجر مُكثِر، وكان له بنون، فلمَّا أدركوا أسرعوا في مال أبيهم، ولم يحترفوا حِرفة ترُدُّ عليه وعليهم.[٤] فَلامَهُم أبوهم ووعظهم، فكان من عظته لهم أنه قال: يا بَنِيَّ، إنَّ صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لا يُدركها إلا بأربعة أشياء: أمَّا الثلاثة التي يطلُب، فالسعة في المعيشة، والمنزلةُ في الناس، والزاد إلى الآخرة، وأمَّا الأربعة التي يحتاج إليها في دَرَكها، فاكتسابُ المال من معروف وجوهه، وحُسنُ القيام عليه، والتثمير له بعد اكتسابه، وإنفاقه فيما يصلح المعيشة ويُرضي الأهل والإخوان، ويعود عليه في الآخرة، ثم التوقِّي لجميع الآفات بجُهده. فمن أضاع هذه الخلال الأربَع لم يُدرِك ما أراد؛ لأنه إن هو لم يكتسب لم يكن

[١] في السريانية الحديثة: «دَبدَهرمَ»، ويُظنُّ أنه محرف عن «دَبشَرم»، وهو في السنسكريتية «دِفَشَرمَن»، ويسهل تحريفها في الفهلوية إلى «دبشلم»، وفي بعض المخطوطات العربية: «ديسلم» و«ديشلم».

[٢] هو في السريانية الحديثة: «نَدرَب»، وهو محرَّف عن «بيدنا» أو «بيدبا» على اختلاف النسخ العربية، ويقابله هذا الاسم في الأصل الهندي: «فِشنوجَرمَن».

[٣] في نسخة شيخو: «دستبا»، وفي النسخ الأُخرى: «دستاوند»، وفي بعض المخطوطات: «دستاباد» و«دسنا» وكأن هذا تحريف عن «دستاباد» وفي الهندية: «دكِشناباتا»، وهو اسم إقليم الدكن.

[٤] في النسخ الأخرى: «حرفة يكسبون منها لأنفسهم خيرًا»، وكأنَّ هذه الجملة وضعت موضع جملة «تردُّ عليه وعليهم» لأنها أوضح منها.

له مالٌ يعيش به، وإن هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يُحكِم تقديره أوشك أن ينفَد، فإذا هو ليس له شيء، وإن هو وضعه ولم يُثَمِّره لم تمنعه قلةُ الإنفاق من سرعة النَّفاد، كالكُحل الذي لا يُؤخذ منه إلا مثلُ الغُبار ثم هو سريع الفَناء، ثم إن كانت نفقته في غير مواضِع الحقوق اكتسب المذمَّة وصار إلى عواقب الندامة، وإن هو اكتسب وأصلح ثم أمسك عن إنفاقه في وجوهه كان كمن يُعَدُّ فقيرًا لا مال له، ثم لا يمنعُ ذلك ماله من أن يُفارقه ويذهب حيث لا يُريد بالمقادير والعلل؛ كالمكان الذي لا تزال المياه تنصبُّ إليه؛ فإن لم يكن له مفيض ومخرج يخرج منه بالقدر الذي ينبغي تحلَّب وسال من نواحٍ كثيرة، وربما انبثق البثق الذي لا يغادر قطرة[٥] وذهب الماء ضياعًا.

ثم إن بني التاجر اتعظوا وأخذوا بأمر أبيهم، وانطلق كبيرهم متوجِّهًا بتجارة له إلى أرض يُقال لها مَثور،[٦] فأتى في طريقه على مكان شديد الوحل، ومعه عَجَلة يجرُّها ثوران يُدعى أحدهما شترَبة[٧] والآخر نَندبة،[٨] فوَحِل شترَبة في ذلك الوحل، فلم يزل الرجل وأعوانه حتى أخرجوه بعد ما بلغ الجهد وأشرف على الهلكة، وخلَّف التاجر عنده رجُلًا وأمره أن يقوم عليه، فإن رآه قد أبَل وصلَح لَحِقه به، فلمَّا كان من غدِ ذلك اليوم بَرِم الأجير بمكانه، وترك الثور ولحق ابن التاجر فأخبره أنه قد مات.

وإن شترَبة انتعش بعدما فارقه الرجل، فلم يزل يدِبُّ حتى أتى مرجًا خصيبًا كثير الماء والكلأ؛ لِما قُضيَ أن يُصيبه في ذلك المكان من العَرَض الذي لم يكن ليُخطئه، فإنهم يزعمون أنَّ رجلًا[٩] كان يجرُّ خشبًا فقصده ذئب ليأكله، فلم يفطن حتى دنا منه، فلمَّا رآه اشتد وجله وخرج هاربًا نحو قرية على شاطئ نهر، فلمَّا انتهى إلى النَّهر وجد

[٥] في النسخ الأخرى: «انبثق البثق الذي لا يصلح.»

[٦] في النسخ الأخرى: اسم الأرض: «ميون»، وفي السريانية: «متوا»، وفي الأصل الهندي (بنجا تنترا): «مثورا»، وهي مدينة جنوب أجرا تسمى الآن مترا، فنسختنا أقرب إلى الأصل.

[٧] يتبين من مقارنة المخطوطات ومن الرجوع إلى الأصل الهندي أنَّ «شترَبة» أقرب إلى الصواب من «شتربة» والصيغ الأخرى.

[٨] جاءت هذه الكلمة في المخطوطات بصور مختلفة، وأقربها إلى الأصل الهندي «ننده»، ولكن النسخ العربية كلها تزيد باء في آخر الكلمة، وكأنها للمجانسة بين «شتربة» و«نندبة»، فأقرب الصيغ إلى الصواب بعد هذه المجانسة هي «نندبة».

[٩] هذا المثل محكيٌّ في النسخ الأخرى على لسان الأجير الذي أخبر التاجر أن الثور مات، وهو ناقص في نسخة شيخو والسريانية الحديثة.

عليه قنطرة منكسرة، ورَهِقه الذئب، فقال: كيف أصنَعُ؟ الذئب يتلوني، والنهر عميق، والقنطرة مكسورة، وأنا لا أُحسن السباحة، غير أن الأحرز أن أرمي بنفسي في الماء، فلمَّا وقع فيه رآه أهل القرية، فأرسلوا إليه من استخرجه وقد أشرف على الهلكة، ثم أتاهم به، فتساند إلى حائط، فلما أفاق حدَّثهم بما لقي، وعِظَم هول ما خلَّصه الله منه، فبينما هو على ذلك إذ تهدَّم عليه الحائط فقتله.[١٠]

ثم إن شتربة لم يلبث أن عَكِد وشحُم وترَّ وجعل يحُكُّ بقرنيه الأرض ويخور،[١١] ويرفع صوته بالخوار، وكان بقربه أسَد يُقال له بِنكلة،[١٢] وكان ملك تلك الناحية ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وغير ذلك، وكان مزهُوًّا متكبِّرًا منفردًا مكتفيًا برأيه، وإنَّ ذلك الأسد لَمَّا سمع خُوار الثور، ولم يكن رأى ثورًا قط، ولا سمع خُواره، رُعِب منه، وكَرِه أن يفطن لذلك جُندُه، فلم يبرح من مكانه.

وكان فيما معه ابنا آوى، يُقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة،[١٣] وكانا ذَوَيْ دهاءٍ وأدبٍ، وكان دمنة أشرهما نفسًا، وأبعدَهما همَّة، وأقلَّهما رضًا بحاله، ولم يكن الأسدُ عرفهما، فقال دمنة لكليلة: ما ترى يا أخي؟ ما شأن الملك مقيمًا في مكانه لا يتحوَّل ولا ينشَط كما كان يفعل؟ فقال كليلة: ما شأنُك والمسألة عمَّا ليس لك ولا يعنيك؟ أمَّا نحن فحالنا حالُ صِدق، ونحنُ على باب الملك واجدون ما نأكل، ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك وما يكون من أمورهم، فاسكتْ عن هذا، واعلم أنَّه من تكلف من القول والعمل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القرد؛ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

---

[١٠] في النسخ الأخرى أنَّ الرجل بعد أن أُخرِج من الماء رأى بيتًا مفردًا، فأوى إليه فإذا جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجلٍ وهم يقتسمون ماله ويريدون قتله … إلخ.

[١١] توافق نسختنا في هذه الجملة: «وجعل يحك … إلخ» النسخة السريانية الحديثة، وهي ليست في النسخ الأخرى.

[١٢] ليس في النسخ الأخرى تسمية الأسد، وهو في الهندية: «بنگلاكه»، ومعناه الأصهب، وفي نسختنا: «شگله» والظاهر أنه تحريف «بنكلة»، وهو اختصار الاسم الهندي.

[١٣] «كليلة» ذُكِر في الأصل «كَرتكَا»، واللام والراء في الفهلوية لهما صورة واحدة، فمن اليسير أن تحرَّف الراء إلى اللام، وكذلك لا يبعد أن تحرَّف التاء إلى الياء، وأمَّا إبدال الكاف الأخيرة هاء فهو شائع بين الفهلوية والفارسية الحديثة، و«دمنة» ذُكر في الهندية باسم «دَمَنَكة» وهما في النسخة السريانية: «كَليلك» و«دَمَنَك».

قال كليلة: زعموا أنَّ قردًا رأى نجَّارًا يشقُّ خشبة على وتدين راكبًا عليها كالأُسوار على الفَرَس، وكلما شقَّ منها ذراعًا أدخل فيها وتدًا، وأنَّ النجار قام لبعض شأنه، فانطلق القرد يتكلف من ذلك ما ليس من صناعته، فركب الخشبة ووجهه قِبَل ذلك الوتد، وتدلَّت خُصيتاه في الشق، فلما نزع الوتد انضمَّت الخشبة على خُصيتيه، فخرَّ مغشيًّا عليه، وجاء النَّجار فكان ما لقيَ منه من الضرب أشدَّ مما مرَّ به أضعافًا كثيرة.

قال دمنة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، وسمعتُ المثل الذي ضربتَ، ولكن اعلم أنَّه ليس كلُّ من يدنو من الملوك إنما يدنو منهم لبطنه، فإنَّ البطن يُحشى بكل مكان، ولكنه يلتمس بالقرب منهم أن يَسُرَّ الصديق ويسوءَ العدو، فأدنأُ الناس وأضعفهم مُروءةً الذين يرضون بالقليل ويفرحون به، كالكلب الجائع الذي يُصيب عظمًا يابسًا فيفرح به، فأمَّا أهل المروءة والفضل فلا يُغنيهم القليلُ ولا يفرحون به دون أن يَسمُوا إلى ما هُم له أهل؛ كالأسد الذي يفترس الأرنب، فإذا رأى العَيْر تركها وأخذه؛ أوَلَا ترى أنَّ الكلب يُبَصبِص بذنَبِه حتى تُلقى إليه الكِسرة، وأنَّ الفيل المغتلم يعرف فضل نفسه، فإذا قُدِّم إليه علفه مكرَّمًا لم يأكله حتى يُمسح رأسه ويُتملَّق؟ فمن عاش ما عاش غير خامل المنزلة، ذا فضل على نفسه وأصحابه، فهو — وإن قلَّ عمره — طويلُ العُمُر، ومن كان عيشه في وحدة وضيق وقِلَّة خير على نفسه وأصحابه، فهو — وإن طال عمره — قصير العمر، فإنه يُقال: إنَّ البائس من طال عمره في ضُرٍّ، وقيل: لِيُعَدَّ من البقر والغَنَم من لم تكن هِمَّته إلا بطنه وفرجه.

قال كليلة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، فراجع عقلك، واعلم أنَّ لكل إنسان منزلةً وقدرًا، فإذا كان في منزلته التي هو فيها مُكتفيًا متماسكَ الحال في أهل طبقته كان حقيقًا أن يقنع ويَرضَى، وليس لنا من المنزلة ما نسخط له حالنا التي نحن عليها.

قال دمنة: إنَّ المنازل مُتنازَعة مشتركة، فذو المُروءة ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرَّفيعة، والذي لا مُروءةَ له يَحُطُّ نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة، والارتفاع من ضعة المنزلة إلى شرفها شديد المؤنة، والانحطاطُ منها إلى الضَّعة هيِّنٌ يسير، وإنما مثلُ ذلك كالحجر الثقيل الذي رفْعُه من الأرض إلى العاتق شاق، وطرحُه من العاتق إلى الأرض يسير، فنحنُ أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل بمُروءاتنا، ولا نقيم على حالنا هذه، ونحن نستطيع ذلك. قال كليلة: فما هذا الذي تُجمِع عليه؟ قال دمنة: أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الفرصة، فإنه ضعيفُ الرأي، وقد التبس عليه وعلى جُنده أمرُهم، فلعلِّي أدنو منه وأصيب حاجتي عنده.

فقال كليلة: وما يدريك أنَّ ذلك على ما وصفتَ؟ قال دمنة: أعرف ذلك بالرأي والفطنة والظن والحدْس، فإنَّ الرجُل ذا الرأي ربما عرف حال صاحبه وغامِضَ أمره بما يظهر له من أمره وصنيعه، حتى لعلَّ ذلك أن يكون من قِبَل دَلِّهِ وشكله. قال كليلة: كيف ترجو المكانَةَ عند الأسد ولست صاحب سلطان، وليس لك علمٌ بخدمتهم[١٤] وآدابهم، وما يُوافقهم ويُخالفهم؟ قال دمنة: إنَّ الرجل القويَّ الشديد لا يعيا بالحمل الثقيل وإن بُدِهَ به، بل يستقلُّ به وتكون له القوة عليه، فلا يُعسِّف الشديد حَملٌ، ولا القُلَّبَ عملٌ، ولا العاقلَ أرضٌ، ولا المتواضع اللّيِّن الجانب أحدٌ، قال كليلة: إنَّ السلطان لا يتوخَّى بكرامته أفضل مَن بحضرته، ولكنه يُؤثر بذلك مَن قرُب منه، ويُقال: إنَّ مَثَل السلطان في ذلك كالكرْم الذي لا يتعلق بأكرم الشجر ولكن بأدناها منه، وكذلك السلطان، فكيف ترجو المنزلة عند الأسد، ولست ممن يغشاه ولا تدنو منه؟ قال دمنة: قد فهمتُ ما ذكرتَ وصدقتَ، ولكن اعلَمْ أنَّ الذين لهم المنازل الحسَنةُ عند السلطان قد كانوا وليست تلك حالَهم، فتقرَّبوا منه بعد البُعد عنه، ودنوا إليه، فأنا ملتمسٌ مثل ذلك وطالبٌ بُلوغه، وقد قيل: لا يواظب أحدٌ على باب السلطان ويطرح الأنَفة، ويحمِل الأذى، ويُظهر البِشر، ويكظِم الغيظ، ويَرفُق في أمره إلا خَلَص إلى حاجته منه.

قال كليلة: فهَبك قد وصلت إلى الأسد، فما رِفقك[١٥] الذي ترجو أن تنال به المنزلة عنده؟ قال دمنة: لو قد دنوت من الأسد وعرفت أخلاقه، رفقتُ في متابعته وقلة الخلاف عليه، ثم انحططتُ في هواه، فإذا أراد أمرًا هو في نفسه صوابٌ زَيَّنته له وشجَّعته عليه، حتى يعمل به ويُنفِذَ رأيَه فيه، وإذا همَّ بأمرٍ أخاف ضَرَّه إياه بصَّرته ما فيه من الضرر والشَّيْن، بأرفق ما أجد إليه السبيل وألينه، فإنِّي أرجو أن يرى مني في ذلك أفضل مما يرى من غيري، فإنَّ الرَّجُل الأديب الأريب الدَّهِيَّ لو شاء أن يُبطل الحق ويُحِقَّ الباطل أحيانًا لفعل، كالمصوِّر الماهر الذي يصوِّر في الحائط تماثيل كأنها خارجة وليست

[١٤] يستعمل الكاتب «السلطان» في معنى الجمع، وهو استعمال قديم، جاء في كتاب «الكامل» للمبرد حكاية عن الأحنف بن قيس: «ولا جئت باب أحدٍ من هؤلاء، يعني السلطان، ما لم أُدْعَ إليه.» وقد دعا هذا الاستعمال بعض اللغويين إلى ادعاء أن «السلطان» جمع «سليط»، والظاهر أنَّ النسخ الأخرى حرَّفت الكلام لتجعل السلطان مفردًا في كل المواضع، وهذا وأمثاله مما تمتاز به نسختنا (انظر المقدمة).

[١٥] في النُّسخ الأخرى، ما عدا شيخو، وضعت كلمة «توفيقك» بدل «رفقك»، والظاهرُ أنَّه تحريف أدى إليه جهل النسَّاخ بمعنى «الرفق» ههنا.

بخارجة، وأخرى كأنها داخلة وليست كذلك، فإذا هو عَرف نُبلي وكمال ما عندي كان هو الذي يلتمس إكرامي وتقريبي.

قال كليلة: أمَّا إذا كان هذا من رأيك فإني أحذِّرك صحبة السُّلطان، فإنَّ في صحبة السلطان خطرًا عظيمًا، وقد قالت العُلماء: أمورٌ ثلاثة لا يجترئ عليها إلا الأهوجُ، ولا يسلم منها إلا القليل: صحبة السلطان، وائتمان النِّساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة، وإنما شبَّه العلماء السلطانَ بالجبَل الوعْر الذي فيه الثمار الطيبة، وهو معدِن السباع المخوفة، فالارتقاء إليه شديد، والمُقامُ فيه أشدُّ وأهول.

قال دمنة: قد صدقت فيما ذكرتَ وفهمتُه، ولكني أعرف أنَّ من لم يركب الأهوال لم ينَلِ الرَّغائب، ومن ترك الأمر الذي لعلَّه أن يبلُغ منه حاجته مخافة لما لعله يتوقاه ويُشفق منه، فليس ببالغ جسيمًا، وقد قيل في أمور لا يستطيعها أحدٌ إلا بمعونةٍ من ارتفاع همة وعِظَم خَطَر، منها عَمَلُ السلطان، وتجارةُ البحر، ومناجزةُ العدو، وقيل أيضًا: لا ينبغي للرَّجل ذي المروءة أن يُرى إلَّا في مكانين، ولا يليق به غيرُهما: إمَّا مع الملوك مُكرَّمًا، وإمَّا مع النُّسَّاك متبتلًا، كالفيل الذي إنما بهاؤه وجماله في مكانين: إما في البرِّيَّة وحشيًّا، وإما مَركبًا للملوك.

قال كليلة: خار الله لك فيما عزمت عليه.

ثم إنَّ دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلَّم عليه، فقال الأسد لقرابينه:[١٦] مَن هذا؟ قالوا: ابن فلان، قال الأسد: قد كنت أعرف أباه، ثم قال له: أين كنت تكون؟

قال دمنة: لم أزل بباب الملك مُرابطًا رجاء أن يحضُر أمرٌ أُعِينُ الملك فيه برأيي ونفسي، فإنَّ باب الملك يكثُر فيه الأمور التي ربما احْتِيج فيها إلى من لا نباهة له، وربما كان صغير المنزلة فيكون عنده منفعة بقدره، فإنَّ العود المطروح في الأرض ربما انتفع به الإنسان في حكِّ أذنه، فالحيوان العالم بالضرر والنفع حَرِيٌّ بأن يكون ذلك عنده وينتفع به.

فلمَّا سَمِعَ الأسد كلامَ دمنة أعجبه واستظرفه، ورجا أن يكون عنده نصيحةٌ ورأيٌ، فأقبل على قرابينه، فقال لهم: إنَّ الرجل ذا النُّبل والفضل لَيَكُونُ خاملَ الذِّكر، غامض

[١٦] في الأصل: «لقرابته» وفي النسخ الأخرى: «لجلسائه». والظاهر أن جهل النسَّاخ بمعنى «قرابين» أدى إلى تحريفها إلى «قرابته» في نسختنا، وإلى إبدالها «بجلسائه» في النسخ الأخرى، فلذلك وضعنا كلمة «قرابين» مكان «قرابة» في هذا الموضع وغيره.

الأمر، فتأبى مروءته إلا أن يظهر ويستبين، كالشعلة من النار التي يصونها[17] صاحبها وتأبى إلَّا ضياءً وارتفاعًا، فلمَّا عرف دمنة أنَّ الأسد قد أعجبه كلامُه قال: إنَّ رعية الملك ومن بحضرته منهم يجب[18] أن يُعرِّفوه ما عندهم من المروءة والعلم، ويبذلوا له نصيحتهم، فإنَّ الملك لا يعرفهم ولا يضعهم في منازلهم التي هم أهلُها ومستحقُّون لها إلا بذلك، كالزرع المدفون في الأرض من الحنطة والشعير وسائر الأنواع، فلا يستطيع أحدٌ أن يعرفه ولا يصفه حتى يكون هو الذي ينجُم ويَظهر ويَخرج على الأرض، وقد يحِقُّ على من خصَّه السلطان أن يُطلِعه على ما عنده من المنفعة والأدب، ويحِقُّ على السلطان أن يبلغ بكل امرئ مرتبته على قدر رأيه وما يجدُ من المنفعة عنده. فإنه كان يُقال: أمران لا ينبغي لأحد — وإن كان ملكًا — أن يجعل شيئًا منهما في غير مكانه، وأن يُنزله غير مَنزلته: الرِّجال والحلية، فإنه يُعدُّ جاهلًا من عقد على رأسه حلية الرِّجْلَيْنِ، وعلى رجليه حلية الرأس، ومن ضبَّب اللؤلؤ والياقوت بالرصاص، فليس ذلك بتصغير للياقوت واللؤلؤ، ولكنه جهلٌ ممن فعل ذلك.

وكذلك كان يُقال: لا تصاحبنَّ رجلًا لا يعرف موضعَ يمينه وشماله، وإنما يَستخرج ما عند الرجال وُلاتُهم، وما عند الجنود قادتهم، وما في الدين علماؤه، وقد قيل في أشياءَ ثلاثةٍ؛ فضلُ ما بينها متفاوت: فضل المقاتِل على المقاتِل، وفضل العالِم على العالِم، وفضل الفيلِ على الفيلِ.[19] وكثرةُ الأعوان — إذا لم يكونوا نصحاء مجرَّبين — مَضَرَّة على العمل، فإنَّ العمل ليس بذلك رجاؤه، بل بصالح الأعوان وذوي الفضل، كالرَّجل الذي يحمل الحجر الثقيل فيُثقِلُه، ولا يجد له ثمنًا، والرجل الذي يحمل الياقوت فلا يَثقُل عليه، وهو قادر على بيعه بالكثير من المال، والعمل الذي يحتاج فيه إلى الجِذْع لا يُجزئه القَصَبُ وإن كثر، والوالي حقيقٌ ألا يحتقر مُروءةً وجدها عند أحد وإن كان صغير المنزلة، فإنَّ الصغير ربما عظُم، كالعصب الذي يؤخذ من الميتة، فإذا عُمِلت منه القوس أُكرِم فيقبض عليه الملك ويحتاجُ إليه في لهوه وبأسه.

[17] في الأصل وشيخو: «يصونها»، وفي النسخ الأخرى: «يضربها»، وقريبٌ من هذا في السريانية الحديثة.

[18] في الأصل: «يجوز»، وفي السريانية الحديثة: «يجب»، وهو أقرب إلى سياق الكلام فلذلك أثبتناه هنا.

[19] يذكر في النسخ الأخرى الأمران الأول والثاني فقط، وفي شيخو: «المتكلم على المتكلم» بدل «الفيل على الفيل»، وكأنَّ هذا نشأ من تحريف كلمة «الفيل» إلى «القيل» بالقاف، وفي السريانية الحديثة: «الرجال على الرجال، والفيلة على الفيلة، والمعلمين على المعلمين.»

وأحبَّ دمنة أن يصيب الكرامة من الأسد، والمنزلة عنده وعند جنده، ويعلمهم أنَّ ذلك ليس لمعرفة أبيه فقط، ولكن لرأي دمنة ومروءته، فقال: إن السلطان لا يُقرِّب الرجال لقرب آبائهم ولا يباعدهم لبعدهم، ولكنه ينظر إلى ما عندهم وما يحتاج فيه إليهم، ثم يُمضي رأيه على ما يحقُّ عليه فيهم من إنزالهم مَنَازِلهم، فإنَّه لا شيءَ أقربُ ولا أخصُّ بالرجُل من جَسَده، وربَّما دَوِيَ عليه حتى يؤذيه، فلا يدفعُ ما به عنه إلا الدواء الذي يأتيه من بعيد، والجُرذ مُجاوِرُ الإنسان في البيت، فمن أجل إضراره نُفي، والبازي وحشيٌّ غريب، فلمَّا صار نافعًا اقتُنيَ واتُّخِذ وأُكرِم.

فلما فرغ دمنة من مقالته ازداد الأسد به إعجابًا وله استظرافًا، وأحسن عليه الرد، وقال لجلسائه: إنه ينبغي للسلطان ألا يَلِجَّ في تضييع حقِّ ذي الفضل والمروءة ولا وضْع منزلته، وأن يَستدرك ما فاته من ذلك ولا يغرَّه أن يرى من صاحبه المفعول به ذلك رضًا، فإنَّ الناس في ذلك رجلان: أحدهما طباعه الشراسة، فهو كالحيَّة التي إن وطئها الواطئ فلم تلدغه، لم يكن جديرًا أن يعود لوطئها ثانية، وآخر طباعه السهولة واللين، فهو كالصندل الذي إذا أُفرِط في حكِّه صار حارًّا مؤذيًا.

فلما استأنس دمنة بالأسد وخلا به، قال: إني قد رأيتُ الملك أقام منذ زمان بمكان واحد لا يبرح منه، ففيم ذلك؟ قال له الأسد، وكَرِه أن يعلم منه دمنةُ جُبنًا: لم يكن ذلك لبأس.

فبينما هما على ذلك إذ خار الثور خُوارًا شديدًا، فهيَّج الأسدَ على أن يُخبِر دمنة بما في نفسه، فقال: هذا الصوت الذي تسمع، ما أدري ما هو؟ غير أنَّه خليقٌ أن تكون الجُثَّة على قدر الصوت، فإن يكن ذلك كذلك فليس مكاننا هذا لنا بمكان، قال دمنة: هل رابَ الملكَ شيٌ غيرُ هذا؟ قال الأسد: لم يكن غير هذا، قال دمنة:[٢٠] ليس الملكُ بحقيقٍ أن يبلغ منه هذا الصوت أن يدع مكانه، فإن السكْر الضعيف آفتُه الماء، والشرفَ آفتُه الصَّلَف، والمودَةَ آفتُها النميمة، والقلب الضعيف آفتُه الصوت والجلبة، وفي بعض الأمثال بيانُ أنه ليس كلُّ الأصوات تُهاب، قال الأسد: وما ذلك المثل؟ قال دمنة: زعموا أن ثعلبًا جائعًا

[٢٠] في النسخ الأخرى إلَّا شيخو أن دمنة قال للأسد: ليس من كل الأصوات تجب الهيبة، فقال الأسد: وما مَثَلُ ذلك؟ فقصَّ دمنة مثل الثعلب والطبل، وظاهرٌ أنَّ ما هنا أقرب إلى سياق الكتاب، أعني أنَّ دمنة يشير إلى المثل، والأسد يطلب منه أن يقصه.

مرَّ بأجَمةٍ فيها طبل معلق في شجرة، فهبَّت الريح فجعلت قُضبان الشجرة تقرع ذلك الطبل فيصوِّت صوتًا شديدًا، فسمع الثعلبُ ذلك الصوت فتوجه إليه حيث أتاه، فلما رآه ضخمًا ظنَّ أن ذلك لكثرة شحمه ولحمه، فعالجه حتى شقَّه، فلما رآه أجوف قال: ما أدري، لعل أفسل الأشياء أعظمها جثة وأشدُّها صوتًا.



وإنما ضربت لك هذا المثل رجاء أن يكون الذي يَذعرنا من هذا الصوت ويروعنا لو قد انتهينا إليه وجدناه أيسَر أمرًا مما في أنفسنا، فإن شاء الملك فليبعثني نحوه وليُقِم مكانه حتى أرجعَ إليه ببيان ما يُحبُّ أن يعلم منه، فوافق ذلك الأسد، وانطلق دمنة إلى المكان الذي فيه شتربة.

فلما فصل دمنة من عند الأسد فكَّر الأسد في أمره، فندِم على إرساله، وقال في نفسه: ما أصبتُ بائتماني دمنة على ما ائتمنته، ووجَّهته فيه، فإنَّ الرجل الذي بحضرة السلطان إذا كان قد أطيلت جفوته عن غير جُرم كان منه، أو كان مبغيًّا عليه، أو كان

معروفًا بالحرص والشره، أو كان قد أصابه ضُرٌّ، أو ضيقٌ فلم يُنعَش، أو كان قد أجرم جُرمًا فهو يخافُ العقوبة، أو كان شِرِّيرًا لا يحب الخير، أو كان قد وُقِف على خيانته، أو كان قد حيل بينه وبين ما كان في يده من سلطان، أو كان يلي عملًا فعُزِل عنه أو فُرِّق عليه أو انتُقِص منه أو أُشرك بينه وبين غيره فيه، أو كان أذنب في نظرائه فعُفِيَ عنهم وعوقب، أو عوقبوا جميعًا فبُلِغ منه ما لم يُبلَغ من أحد منهم مثله، أو كان قد أبلى بلاءَ نظرائه ففُضِّلوا عليه في المنزلة والجاه، أو كان غيرَ موثوق به في الهوى والدين، أو كان يرجو في شيءٍ مما يضر بالولاة نفعًا، أو يخافُ في شيءٍ مما ينفعهم ضَرًّا، أو كان لعدوِّ السلطان مُوادًّا، كلُّ هؤلاء ليس السلطان حقيقًا بالاسترسال إليهم، والطُّمَأنينة إلى ما قِبَلهم، والائتمان لهم، وإنَّ دمنة داهٍ أريب، وقد كان ببابي مطروحًا مجفوًّا، فلعله قد احتمل عليَّ بذلك ضِغنًا، ولعل ذلك يدعوه إلى أن يخونني ويبغي عليَّ، ولعله يُصادف صاحب الصوت أقوى مني وأعظمَ سُلطانًا فيرغب فيما عنده، ويميل عليَّ معه فيدلَّه على عورتي، فلم يزل الأسد يحدِّث نفسه بذلك ويراجعها فيه حتى استخفه ذلك وقام من مجلسه، فجعل يمشي وينظر إلى الطريق حتى رُفِع له دمنة من بعيد مُقبِلًا وحده، فاطمأن ورجع إلى مكانه كراهةَ أن يظن دمنة أنَّ شيئًا أقلقه وأزعجه من مكانه.

فلما دخل عليه دمنة، قال له الأسد: ما صنعتَ وما رأيت؟ قال دمنة: رأيت ثورًا، وهو صاحب الصوت الذي سمعتَ، قال الأسد: فما حاله وشدته؟ قال: لا شدةَ له، فقد دنوتُ منه وحاورته محاورة الأكْفَاء، فلم يستطع لي شيئًا. فقال الأسد: لا يغرَّنك ذلك منه، ولا تضعنَّ ذلك على الضعف، فإنَّ الريح الشديدة لا تضُرُّ بصغير الحشيش ولا تحطمه وهي تحطم الشجر، وكذلك الصناديد إنما يصمد بعضها لبعض. قال دمنة: لا يهابنَّ الملك أمره ولا يُكبِرَن في صدره شيئًا منه، وأنا آتيه به حتى يكون له عبدًا سامعًا مطيعًا، ففرح الأسد بذلك وقال له: دونَك.

ثم إنَّ دمنة انطلق إلى شتربة، فقال له غير هائب ولا مُتَعْتِع: إنَّ الأسد أرسلني إليك لآتيه بك، وأمرني إن أنت عجَّلت الإقبال عليه طائعًا أن أؤمِّنك على نفسك وما سلَف منك من الذنب في التأخير عنه والترك للقائه، وإن تأخرت أن أعجِّل الرجعة إليه فأخبره بذلك، قال شتربة: ومن هذا الأسد الذي أرسلك إليَّ، وأين هو؟ قال دمنة: هو ملك السِّباع، ومعه جُند كثيرٌ منهم، فرُعِب الثور من ذلك، وقال: إن أنت جعلت لي على نفسك عهدًا، أو أخذتَ لي منه الأمان أقبلتُ معك، فأعطاه دمنة ما سأل من ذلك.

ثم أقبلا جميعًا حتى دخلا على الأسد، فأحسنَ الأسدُ مسألة شتربة، وألطفه، وقال له: متى قدمتَ هذه الأرض؟ وما نزع بك إليها؟ فقصَّ عليه أمره، فقال له الأسد: الزمني، فإني مُكرِمك ومحسِنٌ إليك، فدعا له شتربة وأثنى عليه.

ثم إنَّ الأسد قرَّب شتربة وأدناه وكرَّمه، وآنس منه رأيًا وعقلًا، فائتمنه على أسراره وشاوره في أموره، ولم تزده الأيام إلَّا إعجابًا به ورغبةً فيه وتقريبًا له، حتى صار أخصَّ أصحابه عنده منزلةً؛ فلمَّا رأى دمنة أنَّ الملك قد استخصَّ شتربة واستدناه دونه ودون أصحابه، وأنه صاحبُ رأيه وخَلَواته وأُنسه ولهوه، اشتدَّ ذلك عليه، فشكا ذلك إلى كليلة أخيه وقال: ألَا تَعجَب لعجز رأيي وصنيعي بنفسي، ونظري فيما ينفع الأسد، وإغفالي أمر نفسي، حتى جلبت ثورًا غلبني على منزلتي؟ قال كليلة: أصابك ما أصاب الناسكَ؟ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زعموا أنَّ ناسكًا أصاب من بعض الملوك كُسوة فاخرة، فبَصُرَ بها لصٌّ فرغب فيها، فصرَّف الحِيَل وقلَّب الأمور لاستراقه إياها، فأتاه فقال: إني أريد أن أصحبك وأتعلم منك وآخذ عنك، فأجابه إلى ذلك، فلزمه ولطف به، وأحسن الخدمة له حتى أَمِنه ووثِق به وفوَّض إليه أمره، حتى إذا ظفر من الناسك بغفلةٍ أخذ الثياب وذهب بها، فخرج في طلبه نحو مدينة من المدائن فمرَّ في طريقه على وَعْلَين يتناطحان وقد سالت دماؤهما، وجاء ثعلب فجعل يَلَغُ في الدماء، فبينما هو يَلَغُ إذ التقيا عليه وهو غافل فقتلاه، ثم مضى حتى أتى المدينة مُمسيًا فنزل على امرأة فاجرة من غير معرفة، وكان لها جاريةٌ تؤاجرها قد عشقت رجلًا فهي لا تريد غيره، فأضرَّ ذلك بمولاتها، فاحتالت لقتل ذلك الرجل الذي عشقته جاريتها في تلك الليلة التي أضافت بها الناسك، فسَقتِ الرجلَ من الخمر صِرفًا حتى سكِر ونام، فعمدت إلى سمٍّ فوضعته في قصبة وجاءت بها إلى دُبُرِه لتنفخه فيه، وفمُها على رأس القصبة، فلما وضعتها بَدَرَتْها ريح خرجت من دُبُرِ الرجل، فرجع السمُّ في حلقها فوقعت ميتة، وكل ذلك بعين الناسك.

ثم أصبح غاديًا في طلب منزل غير ذلك المنزل، فأضافه رجل إسكاف، فقال الإسكاف لامرأته: انظري هذا الناسك فأكرميه وأحسني إليه، فإنه قد دعاني بعض أصحابي إلى منادمتهم.

وكان لامرأة الإسكاف صديق قد عَلِقها وعَلِقته، وكان الرسول فيما بينهما امرأةُ حَجَّام جارةٌ لها، فأرسلت امرأة الإسكاف إلى امرأة الحجَّام، فأمرتها أن تأتي صديقها وتخبره أنَّ الإسكاف غائب في الشرب، وأنه لا يرجع إلَّا مُمسيًا وهو سكران، فتأمره أن يأتي عند العشاء فيقعد على الباب حتى تأذن له فيدخل عليها، فأقبل صديقها عَشيًّا حتى قعد على الباب ينتظر أمر المرأة.

وانصرف الإسكاف إلى بيته حين أمسى وهو سكران، فلمَّا رأى الرجل قاعدًا على باب منزله ارتاب به وغضب، ودخل إلى البيت فأخذ امرأته فأوجعها ضربًا وأوثقها إلى ساريةٍ من سواري البيت، فلما هدأت العيون جاءت امرأة الحجَّام إليها فقالت لها: قد أطال الرجلُ صديقُك القعود، فماذا تريدين؟ فقالت: لو أحسنتِ إليَّ بأن تُخلِّيني وتربطي نفسك مكاني ساعة حتى آتيه ثم أسرع الكرَّة إليك، ففعلت وحلَّتها وربطت نفسها مكانها، فانتبه الإسكاف قبل أن ترجع امرأته، فناداها باسمها فلم تجبه امرأة الحجَّام مخافةَ أن يعرف صوتها، ثم دعاها مرارًا كثيرة وهي لا تجيبه، فازداد عليها غيظًا وحنقًا، ثم قام إليها بسكينٍ فجدع أنفها، وقال لها: تناولي هذا وأتحِفي به خليلك.

فلمَّا رجعت امرأة الإسكاف ورأت زوجها نائمًا، وعرفت ما حلَّ بامرأة الحجَّام حلَّتها وربطت نفسها مكانها، وأخذت امرأة الحجَّام أنفها بيدها ومضت إلى بيتها، وكلُّ هذا بعينِ الناسك.

ثم إنَّ امرأة الإسكاف فكَّرت في أمرها وطلبت المَخرج، فرفعت صوتَها تدعو وتتضرع وتبكي وتقول: اللهمَّ إن كان زوجي قد ظلمني واعتدى عليَّ فأعِد إليَّ أنفي صحيحًا كما كان، ثم نادت الإسكاف أن قُم أيُّها الظالم! وانظر إلى أمر ربك وقضائه ونعمته عليَّ، فإنه قد أعاد أنفي صحيحًا كما كان، فقال الإسكاف: ما هذا الكلام يا ساحرة؟ ثم قام فأوقد نارًا ونظر، فإذا الأمر كما قالت، فتاب إلى ربه واعتذر إلى امرأته وترَضَّاها وتنصل إليها وسأل الله المغفرة.

ولما انتهت امرأة الحجَّام إلى بيتها قلَّبت الحِيَل ظهرًا لبطن، والتمست المخرج مما وقعت فيه، وقالت: ما عُذري عند زوجي وعند الناس في جدْع أنفي؟ فلمَّا كان عند السَّحَر استيقظ الحجَّام وناداها أن ائتيني بمتاعي كلِّه، فإني أريد أن أنطلق إلى بعض الأشراف، فلم تأتِه إلَّا بالموسى وحده، فقال: هاتي متاعي كله، فلم تَزِدْه على الموسى، فغضب ورماها بالموسى، فألقت نفسها إلى الأرض وولولت، وقالت: أنفي أنفي، وأقبلت تصيح وتضطرب، فجاء أقاربها فأخذوه وانطلقوا به إلى القاضي، فقال القاضي للحجَّام: ما حملك على جدع أنف امرأتك؟ فلم تكن له حُجَّة يحتجُّ بها، فأمر بالحجَّام أن يُعاقَب، فلما أُقيم لذلك، قام الناسك فتقدم إلى القاضي فقال: أيها القاضي، لا يشتبِهنَّ عليك، إنَّ اللص ليس سَرَقني، وإنَّ الثعلب ليس الوعلان قتلاه، وإنَّ البغيَّ ليس السم قتلها، وإنَّ امرأة الحجام ليس زوجها جدع أنفها، بل نحن فعلنا ذلك بأنفسنا، فسأله القاضي عن تفسير ذلك فأخبره.

قال كليلة لدمنة: وأنت أيضًا فعلت ذلك بنفسك، قال دمنة: نعم! ما ضرَّني غير نفسي، ولكن ما الحيلة؟ قال كليلة: بل أخبرني أنت عن رأيك، قال دمنة: أمَّا أنا فلستُ ألتمس أن تزداد منزلتي فوق ما كنت، ولكني أُريد أن تعود إلى ما كانت عليه، فإنَّ خِلالًا ثلاثًا المرءُ حقيقٌ بالتفكُّر فيها والاحتيال لها: ما يمضي من الضرِّ والنفع بأن يحترس من الضرِّ الذي أصابه لئلَّا يعود إليه، ويرفق في المحبوب طلب مراجعته، وما هو مُقيم فيه من ذلك فيستوثق مما يوافقه ويهرب مما يُخالفه، وما هو منتظِر له فيطلب المرجو ويلتجئ من المحذور بالاستعداد لما يرجو أو يخاف.

وإني لمَّا نظرتُ في أمري الذي أرجو أن يعود لي منه ما غُلِبت عليه مما كنتُ فيه، لم أجد شيئًا غير الاحتيال لشتربة حتى يُفارق الحياة، فإني إن قدرت على ذلك صرتُ إلى حالي عند الأسد، ولعل ذلك أن يكون خيرًا له، فإن إفراطه فيه[٢١] خليقٌ أن يَشينَه.

قال كليلة: ما أرى على الأسد في شتربة مضرَّة ولا منقصة ولا شينًا، قال دمنة: إنَّ السلطان إنما يؤتى من قِبَل سِتِّ خلال: الحِرمان، والفتنة، والهوى، والفظاظة، والزمان، والخُرق. فأمَّا الحرمان فهو أن يَفقِد الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، أو يُبعد بعض من هو كذلك، وأمَّا الفتنة فهي تحزُّب الناس ووقوع التحارب بينهم، وأمَّا الهوى فهو الإغرام بالنِّساء أو الحديث والشرب والصَّيد وما أشبه ذلك، وأمَّا الفظاظة فالإفراط في الشدة حتى يُبتلى اللسان بالشتم واليدُ بالبطش والضرب، وأمَّا الزمان فهو ما يُصيب الناس من القحط والموت ونقص الثمرات وأشباه ذلك، وأمَّا الخُرق فإعمال الشدَّة في موضع اللين، والرفق في مكان الغلظة.

وإنَّ الأسد قد أُغرِم بشتربة إغرامًا شديدًا، فهو خليقٌ أن يُزرِيَ به ويشينه. قال كليلة: وكيف تُطيق الثور وهو أشدُّ منك، وأكرم على الأسد، وأحسن منزلةً، وأكثرُ أصدقاء وأعوانًا؟ قال دمنة: لا تنظرنَّ إلى صِغَري وضعفي، فإنَّ الأُمور ليست بالقوة والعِظَم، ورُبَّ ضعيف صغير قد بلغ بدهائه وحيلته ورأيه ما يعجز عنه كثيرٌ من الأقوياء، أَوَ لم يبلغك أنَّ غُرابًا احتال لأسْوَد حتى قتله. قال كليلة: وكيف كان هذا الحديث؟ قال دمنة: زعموا أنه كان وَكْر لغراب في شجرة في جبل، وكان بقربه جُحر أسوَد، وكان الغراب كلما فرَّخ عَمد الأسوَد إلى فراخه فأكلها، فاشتد ذلك عليه، وبلغ منه مبلغًا شديدًا، فشكا

[٢١] في النسخ الأخرى: «فإن إفراطه في أمر الثور» أو «... في تقريب الثور.»

ذلك إلى صديق له من بنات آوى، وقال: أردت أن أستأمرك في شيءٍ هممتُ به إن أنت وافقتني عليه، قال: وما هو؟ قال: أن آتيَ الأسوَد وهو نائم، فأنقُرَ عينيه لعلي أفقأهما. فقال ابن آوى: بئست الحيلة هممتَ بها! فالتمس أمرًا تصيب منه حاجتك، ولا يصلُ فيه مكروهٌ إليك، وإياك أن يكون مَثَلُك مثل العُلجوم الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه، قال الغراب: وكيف كان ذلك؟ قال ابن آوى: كان عُلجوم مُعشِّشًا في أجَمَة مُخصِبة كثيرةِ السمك، فعاش هنالك ما عاش، ثم هرِم فلم يستطع الصيد، فأصابه جوع وجَهد، فالتمس الحِيَل وقعد مفكِّرًا حزينًا، فرآه سرطان من بعيد، فلمَّا رأى حاله عرف ما به، فأتاه فقال له: ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ قال العُلجوم: وكيف لا أكتئب وأحزن، وإنما كان معاشي من السمك ههنا وهنَّ كثير، وإني رأيت اليوم صيَّادَيْنِ أتيا مكاننا هذا، فقال أحدهما لصاحبه: إن ههنا سمكًا كثيرًا أفلا نصيده؟ فقال صاحبه: إني عرفت أمامنا مكانًا فيه سمك أكثر منه، فأنا أحب أن نبدأ به ثم نرجع إلى ما ههنا فنفنيه، وقد علمتُ أنهما لو فرغا من هناك رجعا إلينا فلم يَدَعا في هذه الأجمة سمكةً إلَّا صاداها، فإذا كان ذلك فإن فيه هلاكي وموتي، فانطلق السرطان إلى جماعة من السمك فأخبرهنَّ بذلك، فأقبلن إلى العُلجوم وقُلن: أتيناك لتُشير علينا، فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوِّه، إذا كان ذا رأي في الأمر الذي يَشْرَكه فيه، وأنت ذو رأي، ولك في بقائنا صلاح، فأشِر علينا برأيك، قال العُلجوم: أمَّا مُكابرة الصيادَيْنِ وقتالهما فليسا عندنا ولا نطيقهما، ولا أعلمُ حيلة إلَّا أني قد عرفت مكانًا كثيرَ الماء والخُضر، فإن شئتنَّ فانتقلن إليه، فقلن له: ومن يمُنُّ علينا بذلك؟ فقال: أنا، وجعل يحمل منهن اثنتين في كل يوم، ينطلق بهما إلى بعض التلال فيأكلهما.

ثم إنَّ السرَطان قال له: إني قد أشفقتُ مما حذَّرتنا، فلو ذهبتَ بي فاحتمله حتى دنا من المكان الذي كان يأكلُهنَّ فيه، فلمَّا بَصُر بعظامهن مجموعة تلوح، عرف أنه هو صاحِبُهُن وأنه يريد به مثلهن، فقال: إذا لقي المرء عدوَّه في المواطن التي يعلم أنه هالِكٌ فيها، فهو حقيقٌ أن يقاتِل كرَمًا وحِفاظًا، فأهوى بكلاليبه على عُنُقِ العلجوم فعصره، فوقع إلى الأرض ميتًا، ورجع السرطان إلى السمك فأخبرهن.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنَّ بعض الحِيَل مُدَمِّر على صاحبه مُهلِك له، ولكن انطلِق فالتمس حَلْيًا، فإذا ظفرت به فاخطفه، ثم طِر به — وأصحابُه ينظرون إليك حيث لا تفوتُهم فإنهم سيطلبونك — حتى تنتهي به إلى جُحر الأسوَد فترمي به عليه.

فحلَّق الغُراب طائرًا، فإذا بجارية قد ألقت ثيابها وحُلِيَّها وهي تغتسل، فأهوى فأخذ عِقدًا نفيسًا، وحلَّق به طائرًا حيثُ يراه الناس حتى رماه قريبًا من جُحر الأسود، فأتى الناسُ وأخذوا الحلي، ورأوا الأسوَد نائمًا على باب جُحره فقتلوه.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنَّ الاحتيال ربما أجزى ما لا تُجزي القوة.

قال كليلة: إنَّ شتربة لو لم يجمع مع شِدَّته رأيًا كان كذلك، ولكنه قد أُعطيَ مع ما ذكرتَ فضلًا نبيلًا وقِسمًا جسيمًا، قال دمنة: إنَّ شتربة لعلَى ما وصفتَ، ولكنه بي مُغتر، فأنا خليقٌ أن أصرعه كما صرعتِ الأرنبُ الأسدَ. قال كليلة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنَّ أسدًا كان في أرض مُخصِبة كثيرة الوحوش والماء والمرعى، وكان لا ينفَعُهن ما هنَّ فيه من خوفِهن من الأسد، فائتمرن فيما بينهُنَّ، وأتينه فقلن له: إنك لا تُصيبُ منَّا الدابة إلَّا بعد تعبٍ ونَصَب، وقد اجتمعنا على أمرٍ لنا ولك فيه راحة، إن أنت أمَّنتنا فلم تُخِفنا، فقال: أنا فاعل، فقلن: نُرسِل إليك لغَدائك كل يوم دابة منَّا، فرضيَ بذلك وصالحهُنَّ عليه، ووفَى لهنَّ بما أعطاهن من نفسه، ووفَيْنَ له به، ثم إنَّ أرنبًا أصابتها القرعة فقالت لهُنَّ: أيُّ شيء يضرُّكُنَّ إن أنتُنَّ رَفَقْتُنَّ بي فيما لا يضُرُّكُنَّ، وأُرِيحكُنَّ من الأسد؟ فقلن لها: وما ذلك؟ قالت: تأمُرْنَ من يذهب معي ألَّا يتبعني لعلِّي أبطئُ على الأسد حتى يتأخر غداؤه فيغضب لذلك، ففعلن بها ما ذكرته، وانطلقت مُتَّئدة حتى جاءت الساعة التي كان يتغدَّى فيها، فجاع الأسد وغضب وقام عن مربضه يمشي وينظر، فلما رآها قال: من أين جئت؟ وأين الوحوش؟ فقالت: من عِندهُنَّ جئتُ، وهُنَّ قريب، وقد بعثن معي بأرنب، فلمَّا كنتُ قريبًا منك، عَرَض لي أسد فانتزعها مني، فقلتُ: إنها طعام الملك فلا تَغصِبنَّه، فشتمك وقال: أنا أحقُّ بهذه الأرض وما فيها منه، فأتيتُك لأخبرك، فقال: انطلقي معي فأرينيه، فانطلقت به إلى جُبٍّ صافي الماء، فقالت: هذا مكانه وهو فيه، وأنا أفرَق منه، فاحملني في صدرك،[٢٢] فحملها في صدره ونظر في الجُبِّ فإذا هو بظلِّها وظلِّه، فوضع الأرنبَ من صدره، ووثب لقتال الأسد في الجبِّ وطلبه فغرِق، وانفلتت منه الأرنب ورجعت إلى سائر الوحوش فأعلمتهُنَّ بخبره.

[٢٢] جملة «وأنا أفرق منه» مأخوذة من شيخو لتصحيح سياق الكلام، وعبارة شيخو: «هذا مكان الأسد وأنا أفرق منه إلَّا أن تحملني في حضنك فلا أخافه حتى أريكه.»

قال كليلة: إن قدرتَ على هلاك شتربة في غير مشقة تدخلُ على الأسد فافعل، فإنَّ مكانه قد أضرَّ بي وبك وبغيرنا من الجُند، وإن لم تستطع ذلك إلا بما ينغِّص الأسد، فلا تشترين ذلك بذلك، فإنه غدرٌ مني ومنك ولؤم وكفر.

ثم إنَّ دمنة ترك الدخول على الأسد أيامًا، ثم أتاه على خلوةٍ متحازنًا، فقال له الأسد: ما حبسك عني، منذ مدة لم أرَك، أذلك لخير؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا نحن، قال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: هو كلام فظيع، قال الأسد: فأخبرني به، قال دمنة: إنه ما كان من كلام يكرهه سامعه، لم يكد يتشجَّع عليه قائله — وإن كان ناصحًا مشفقًا — إلا أن يثق بعقل المقول له، وإلا كان القائل خَرِقًا، فإنه إذا كان المقول له ذلك عاقلًا احتمله واستمعه وعرف ما فيه؛ لأنه ما كان فيه من نفعٍ فإنما هو للسامع، وأمَّا قائله فلا ينتفع به، بل قلَّما يسلم من ضرره، وأنت أيها الملك ذو فضيلة في الرأي، ورُجحان في الحلم، فأنا متشجِّع على أن أخبرك بما تكره، وأثقُ بأنك تعرف نصيحتي وإيثاري إياك على نفسي، وإنه ليعرض لي أنك غير مصدِّق بما أنا مُخبِرك به، ولكني إذا نظرت فذكرتُ أن أنفسنا — معشر السباع — مُعلقةٌ بنفسك، لم أجد بُدًّا من أداء الحق الذي يلزمني لك، وإن أنت لم تَسَلْني عنه، وخِفتُ ألا تقبله مني، فإنه من كتم السلطان نصيحته، والأطباءَ مرضَه، والإخوانَ رأيَه، كان قد غشَّ نفسه. فقال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: حدَّثني الأمينُ الصادق عندي أنَّ شتربة خلا برءوس جُندك فقال لهم: قد عجَمتُ الأسد، وبَلَوتُ رأيه ومكيدته وقوته، فاستبان لي في كل ذلك ضعف، وإنه كائن لي وله شأن، وأنه لما بلغني هذا عرفت أن شتربة خئونٌ غادر، وقد عرف أنك أكرمته الكرامة كلها، وجعلته نظيرَ نفسك، فهو اليومَ يظنُّ أنه مثلك، وأنك إن زُلتَ عن مكانك صار له مُلكك، فهو لا يَدَعُ جُهدًا، فإنه كان يقال: إذا عَرَف الملك من الرجل أنه قد ساواه في الرأي والمنزلة والهيبة والمال والتبَع فليصرَعْه، فإنه إن لم يفعل كان هو المصروع، وأنت أيها الملك أعلمُ بالأمور وأبلغ فيها رأيًا، وأنا أرى أن تحتال للأمر قبل تفاقمه، ولا تنتظر وقوعه، فإنك لا تأمنُ أن يفوتك ثم لا تستدركه، فإنه كان يُقال: الرجال ثلاثة: حازمان وعاجز، فأحد الحازمَين من إذا نزل به البلاء لم يَدهَش، ولم يذهب قلبه شَعاعًا، ولم يَعْيَ برأيه وحيلته أو مكيدته التي بها يرجو المخرج والنجاة، وأحزُم من هذا المتقدم ذو العُدَّة، الذي يعرف الأمر مبتدأً قبل وقوعه، فيُعظِمه إعظامه، ويحتالُ له حيلته كأنه قد لزمه، فيحسمُ الداء قبل أن يُبتلى به، ويدفع الأمر قبل وقوعه، وأمَّا العاجز فهو الذي لا يزال في التردد وتمنِّي الأمانيِّ حتى يُهلِك نفسه، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ السمكات الثلاث. قال

الأسد: وكيف كان مَثَلُهنَّ؟ قال دمنة: زعموا أنَّ غديرًا كان فيه ثلاثُ سمكاتٍ: كيِّسة، وأكيسُ منها، وعاجزة، وكان ذلك المكان بنجوةٍ من الأرض، لا يكاد يقربه من الناس أحد، فلما كان ذات يوم مرَّ صيادان على ذلك الغدير مجتازَيْنِ، فتواعدا أن يرجعا إليه بشِباكهما فيصيدا الثلاث السمكات اللواتي رأياهنَّ فيه، فلمَّا رأتهما الحازمة ارتابت بهما، وتخوَّفت منهما، فلم تعرِّج أن خرجت من مدخل الماء إلى النهر، وأمَّا الكيِّسة فتلبَّثت حتى جاء الصيادان، فلمَّا أبصرتهما قد سدَّا مخرجها، وعرفت الذي يريدان بها قالت: فرَّطتُ، وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاص وقلَّما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكنَّ العالِم لا يقنطُ على كل حال، ولا يدعُ الأخذ بالرأي، ثم تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبة، فأخذاها فألقياها على الأرض غيْرَ بعيدٍ من النهر، فوثبت فيه فنجت منهما، وأمَّا العاجزة فلم تَزَلْ في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صاداها.

وأنا أرى لكَ أيها الملك معاجلةَ الحزمِ والحيلة، فتحسمُ الداء قبل أن تُبتلى به، وتدفع الأمر قبل نزوله.

فقال الأسد: قد فهمتُ ما ذكرتَ، ولكن لا أظنُّ شتربة يبغيني سوءًا ولم أفعله به. قال دمنة: ألا إنه لا يحمله على ذلك إلَّا ذلك، فإنك لم تَدَع خيرًا إلا صنَعتَه به، ولا مرتبةً شريفةً إلا بلَّغته إياها، فلم يبقَ شيءٌ يسمو إليه إلا مكانُك، فإنَّ اللئيم الكفور لا يزالُ ناصحًا نافعًا حتى يُرفَع إلى المنزلة التي ليس لها بأهل، فإذا فُعِل ذلك به التمس ما فوقها بالغشِّ والخيانة، ولا يخدِم السلطان ولا ينصَح له إلا عن فَرَق أو حاجة، فإذا استغنى وأمِن عاد إلى أصله وجوهره، كذَنَبِ الكلب الأعقف لا يزالُ مُستقيمًا ما دام مربوطًا، فإذا حُلَّ عاد إلى ما كان عليه، واعلم أنَّه من لم يقبل من نُصحائه ما يثقُل عليه مما ينظرون له فيه لم يحمَد مَغَبَّة أمره ورأيه؛ كالمريض الذي يترك ما يَنعت له الطبيب ويعمِد لما تشتهي نفسه، وحقٌّ على وزير السلطان أن يبالغ في الحِضِّيضَى له على ما يزينه، ويكون فيه رشده وكفُّ الشين والْغَيِّ عنه، وخيرُ الأعوان أقلُّهم مصانعة، وأفضلُ الأعمال أحلاها عاقبة، وأحسنُ الثناء ما كان على أفواه الأحرار، وأشرف السلطان ما لم يخالطه بطر، وأيسَر الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرًا، وأفضل الأصدقاء من لم يُخاصِم، وأمثل الأخلاق أعونها على الورَع، وقد قيل: لو أن امرَءًا توسَّد النارَ وافترش الحيَّات كان أحقَّ بأن يَهنِئَه النومُ عليها منه إذا أحس من صاحبه الذي يغدو عليه ويروح بعداوةٍ يُريد بها نفسه، وأعجزُ الملوك آخذهم بالهُوَينا، وأشبههم بالفيل المغتلم

الذي لا يلتفت إلى شيء، فإن حزَبَه أمرٌ تهاون به، وإن أضاع ما ينفعه، جعل ذلك على قرابينه.

قال الأسد: لقد أغلَظتَ القول، وذلك من الناصح مقبول، ولو كان شتربة لي عدوًّا كما تذكر لم يَقدِر على ضُرِّي، وكيف يستطيع ذلك وهو آكِل عُشب وأنا آكل لحم، وإنما هو لي طعام وليس عليَّ منه مكروه، ولا إلى الغدر به سبيل بعد إيماني إياه وإكرامي له، وثنائي عليه على رءوس جندي، فإن أنا غيَّرتُ ذلك أو بدَّلته فقد جهَّلتُ نفسي وخَتَرتُ بذمتي. قال دمنة: لا تغترَّ إلى ذلك، فإنَّ شتربة إن هو لم يستطعك بنفسه احتال لك من قِبَلِ غيره، وقد قيل: إن نزل بك ضيفٌ ساعةً من النهار، وأنت لا تعرف أخلاقَه فلا تأمَنه على نفسك، واحذَر أن يصلَ إليك منه مِثلُ ما وصل إلى القملة من ضيافة البُرغوث، قال الأسد: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنَّ قملةً لزِمَت فِراش رجُل من الأشراف، فكانت تُصيب من دمه وهو نائم، وتدِبُّ دبيبًا رفيقًا فلا يشعر بها، ثم إنَّ بُرغوثًا ضافها، فقالت له: بِت هنا الليلة في دمٍ طيِّب وفراش وطيء ليِّن، ففعل، فلمَّا آوى الرجُل إلى فراشه، لذعه البرغوث فأوجعه، فاستيقظ وأمر بفراشه أن يفتَّش ويُنظر ما فيه، فوثب البرغوث فنجا، وأخذوا القملة فقتلوها.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنَّ صاحب الشر لا يُسلَم منه، وإن ضَعُف احتال بغيره، فإن كنت لا تخاف شتربة وقد وثقت به، فرُبَّ موثوقٍ به غادر، فأشفق من جندك، فإنه قد ألَّبهم وحَمَلهم على عداوتك، وجرأهم عليك، مع أني قد عرفتُ أنه لا يُريد مناظرتك، ولا يكِلُ العملَ إلى غيره في ذلك من أمرك، فوقع في نفس الأسد ما قال دمنة، وقال له: ما ترى؟ فقال دمنة: إنَّ صاحب الضِّرس المأكول لا يزال في أذًى منه حتى يفارقه، والطعامَ الذي غَثِيَت منه النفس راحتُها في قذفه، والعدُوَّ المخوف دواؤه في فقده أو قهره.

قال الأسدُ: لقد تركتني كارهًا لمجاورة شتربة، فأنا مُرسِلٌ إليه فذاكرٌ له ما وقع في نفسي، وآمِرهُ باللحاق حيث أَحَبَّ، فكره دمنة ذلك، وعرف أنَّ الأسد إن كلم شتربة وسمع مرجوعه عليه، عَذَره وصدَّقه ولم يَخْفَ عليه أمره، فقال: ما أرى ذلك لك أيها الملك؛ فإنه لا يزال لك من رأيك الخيارُ ما دام لا يعلم بأنَّ أمره قد وصل إليك، فإنَّه إن شعر بذلك خِفتُ أن يكابرك أو يتنحَّى عنك، فإن قاتلك قاتلكَ مُستعِدًّا، وإن فارقك فارقكَ حذِرًا، وكان له عليك في ذلك الفضلُ، مع أن الملوك حَزَمَة لا يُعلِنون بالعقوبة إلا لمن ظهر ذَنبه، وما كان من ذلك مكتومًا سترُوها منه.

قال الأسد: إنَّ الملك إذا عاقب أحدًا أو أهانه عن أمرٍ — يظُنُّه به — لا يستيقنه، ثم علم أنَّ ذلك ليس كما بلغه، فبِنَفسه فعل ذلك، وإياها عاقب ونكب.

قال دمنة: فلا يدخلَنَّ عليك شتربة إلَّا وأنت مستعدٌّ له، واحذر أن يصيب منك غِرَّةٌ، فإني لا أحسبك لو قد نظرتَ إليه حين يدخل عليك إلَّا ستعرف أنه قد همَّ بعظيمةٍ، ومن علامات ذلك أن ترى لونَه مُتغيِّرًا وأوصاله ترتعد، وهو يلتفت يمينًا وشمالًا، ويُهيئ قرنيه كأنه يهمُّ بالنطح.

قال الأسد: سآخذ بمشورتك في ذلك، ولئن أنا رأيتُه على ما وصفتَ فليس في أمره عندي شك.

فلمَّا فرغ دمنة من تضريب الأسد على الثور، وأوقع في نفسه الذي أراد، همَّ بأن يذهب إلى شتربة ليُغريه به ويَحمله عليه، وأحبَّ أن يكون ذلك بأمر الأسد وعن علمه، لئلا يبلُغه ذلك عن غيره فيتَّهمه فيه، فقال: ألا آتِي شتربة فأنظرَ إلى حاله وأسمعَ كلامه لعلِّي أطَّلع على بعض أمره، فأُعلِم الملك به؟ قال الأسد: شأنُك وما تريده، ثم إنَّ دمنة انطلق إلى شتربة فدخل عليه كالحزين المكتئب، فرَّحب به شتربة، وقال: لم أرَك منذ أيام، فما حَبَسك؟ أهو خير؟ فقال دمنة: ومتى كان من أهل الخير من لا يملك نفسه، ومن إنما أمرُه بيد غيره، ممن لا يُوثق به، ومَن لا ينفكُّ في خوف منه، حتى ما مِن ساعةٍ يأمنُه فيها على نفسه؟

قال شتربة: فما ذلك؟ قال دمنة: حَدَث أمر، فمَن ذا يغلِب القَدَر؟ ومَن بلغ في الدنيا جسيمًا فلم يَبطَر، أو اتَّبع الهوى فلم يَعثر، أو جاور النساء فلم يفتَتِنْ، أو طلب إلى اللئام فلم يُهَنْ ويُحرم، أو واصل الأشرار فسلم، أو صاحَبَ السلطانَ فدام له منه الإحسان؟ لقد صدقَ الذي يقول: إنما مَثَلُهم — في قِلَّة وفائهم لأصحابهم وسخاء أنفُسهم عمَّن فَقَدوا منهم — مَثَلُ المكارى[٢٣] كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه. فقال شتربة: أسمع لك كلامًا أعرف به أنه قد رابك من الأسد شيء، قال دمنة: ذلك كذلك، ولكن ليس في أمر نفسي، وقد تعرِف حقَّك عليَّ، ووُدَّ ما بيني وبينك، وما كنتُ جعلتُ لك من ذِمَّتي أيامَ كان الأسد أرسلني إليك، فلم أجد بُدًّا من حِفظِك والنصيحة لك، وإطلاعك على ما أخاف فيه الهلكة عليك، قال شتربة: وما ذلك؟ قال دمنة: حدَّثني الأمينُ الصدوق أنَّ الأسد قال

[٢٣] في الأصل ونسخة شيخو: «مَثلُ البغيِّ كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه»، وقد غيرنا العبارة لشناعتها.

لبعض أصحابه: لقد أعجبَني سِمَن شتربة، وليست بي حاجةٌ إليه، وما أراني إلا آكِلَه ومُطعِمَكم منه، فلمَّا بلغني ذلك عرفتُ كفره وغدره، وأقبلت إليك لأحذِّرك لتحتال في نجاتك في رِفق.

فلمَّا سَمِعَ شتربة كلام دمنة، وتذكَّر ما كان جعل له، وفكَّر في أمر الأسد، ظنَّ أنه قد صدَقه، فاهتمَّ وقال: ما ينبغي للأسد أن يغدر بي، ولم أُذنب إليه، ولا إلى أحدٍ من جُنده، وأظنُّه قد حُمِل عليَّ، وشُبِّه عليه في أمري، فإنه قد صحبه قوم سوءٍ، جرَّب وعرف منهم أشياء هي تُصدَّق عنده ما بلغه عن غيرهم، فإنَّ مُقارنة الأشرار رُبَّما أورثت أهلَها تُهمَة الأخيار، وحَمَلهم ذلك على خطأ كخطأ البطة التي رأت في الماء ضوء كوكب فحاولت أن تصيده، فلمَّا لم ترَه شيئًا تركته، حتى إذا كان عند المساء أبصرتْ فيه نونًا فحسبت أنه مِثلُ ما رأت قبله فرفضت طلبه.

فإن كان ما بلغه عني باطلًا فحقَّقه لِما اختبر من غيري، فبالحريِّ، وإن كان لم ينتهِ إليه من ذلك شيءٌ فأراد هلاكي عن غير عِلة فذلك عجب، وأعجب منه أن أكون أطلبُ رضاه وموافقته فلا يرضى، وأعجب من ذلك أن ألتمس محبَّته وأجتنب مخالفته فيغضب ويسخط، وإن كان موجِدته عن غير سبب انقطع الرجاء؛ لأنَّ العِلَّة إذا كانت المعتَبة في ورُودها كان الرِّضا في إصدارها، وهي تذهب أحيانًا وتوجد أحيانًا، والباطلُ قائم غير مفقود، وقد تذكَّرتُ فلا أعلم لي ذنبًا فيما بيني وبين الأسد — إن كان — إلا صغيرًا، ولَعَمْري ما يستطيع امرؤ صاحَبَ أحدًا أن يتحفَّظ حتى لا يَفرُط منه شيءٌ يكرهه، ولكنَّ الرجلَ ذا العقل والوفاء إذا سَقَط صاحبُه نظر في ذلك، وما حدُّ مَبلغه، وخطأً كان أو عمدًا، وهل في الصفح عنه مَخوف، ثم لا يؤاخذه مهما وجد إلى العفو عنه سبيلًا. فإن كان الأسدُ يعتدُّ عليَّ جُرمًا فلستُ أعرفه إلَّا أني كنتُ أُخالف عليه في بعض رأيه، فلعله يقول: ما جرَّأه على أن يقول «نعم» إذا قلت «لا»، أو يقول «لا» إذا قلت «نعم»؟ ولا أجِدُني في ذلك مخصومًا؛ لأني لم أكن أريد بذلك إلا منفعته، ولم أكن أجاهره به على رءوس جنده، ولكن أخلو به فأكلِّمه فيه وأنا هائبٌ له، وعرفت أنه من التمس الرخصة من الإخوان عند المشاورة، والأطباء عند المرض، والفقهاء عند الشُّبهة، فقد أخطأ الرأي، وزاد في المرض، واحتمل الوِزر. فإن لم يكن هذا فعسى أن يكون من سكرات السلطان، فإنَّ منها أن يسخط على من لم يستوجب السخط، ويرضى عمَّن لم يستحق ذلك في غير أمرٍ معلوم، وكذلك قيل: قد غرَّر من لجَّج في البحر، وأشَدُّ منه مخاطرةً صاحب

السلطان؛ فإنه خليقٌ — وإن هو لزمهم بالوفاء والاستقامة والمودَّة والنصيحة — أن يعثر فلا ينتعش.

وإن[٢٤] لم يكن هذا فلعل بعضَ ما أُعطيته من الفضل جُعل فيه هلاكي، فإنَّ الشجرة الحسنة رُبَّما كان فسادها في طيب ثمرتها إذا تُنُوولت أغصانها وجُذِبت حتى تُكسر وتفسد، والطاووسَ رُبَّما صار ذَنَبه الذي هو حسنه وجماله وبالًا عليه، فاحتال إلى الخفة والنجاة ممن يطلبه، فيشغله عن ذلك ذَنَبه، والفرسَ الجواد القويَّ ربما أهلكه ذلك فأُجهِد وأُتعِب واستُعمِل لما عنده من الفضل حتى يَهلِك، والرجلَ ذا الفضل ربما كان فضله ذلك سبب هلاكه؛ لكثرة من يحسُده ويبغي عليه من أهل السوء، وأهلُ الشرِّ أكثرُ من أهل الخير بكل مكان، فإذا عادَوه وكثُروا عليه أوشَكوا أن يُهلكوه. فإن لم يكن هذا فهو إِذَن القدرُ الذي لا يُدفع، فإنَّ القدر هو الذي يسلُب الأسد شِدَّته وقوَّته حتى يُدخِله التابوت، وهو الذي يحمل الضعيف على ظهر الفيل، وهو الذي يسلِّط الحوَّاء على الحية فينزع حُمَتها فيلعبُ بها كيف شاء، وهو الذي يُعجِز الأريب ويُحزم العاجز، ويثبِّط الشهم ويشهِّم الثبيط، ويُوسِّع على المُقتر ويُقتر على الموسر، ويشجِّع الجبان ويُجبِّن الشجاع عندما تعثر به المقادير من معاريض العلل التي عليها قُدِّرت مجاريها.[٢٥]

قال دمنة: إنَّ إرادة الأسد لما يريد ليس لشيءٍ مما ذكرت من تحميل الأشرار ولا غير ذلك، ولكنه الغدر والفجور، فإنه جبَّارٌ غدَّارٌ، أوَّلُ طعامه حلاوة، وآخره مرارة، بل أكثره سمٌّ مميت، قال شتربة: صدقتَ، لعمري لقد طعمتُ فاستلذذت، فأراني قد انتهيت إلى الذي فيه الموت، وما كان — لولا الحَيْنُ — مُقامي مع الأسد وهو آكل لحم وأنا آكل عشب، فقبحًا للحرص وقبحًا للأمل، فهما قذفاني في هذه الورطة، واحتبساني عن مذهبي كاحتباس النحل فوق النَّيلَوفر — إذا وجدت ريحَه واستلذت به وأغفلت منهاجها الذي ينبغي لها أن تطير فيه قبل انضمام النيلوفر — فتلجُّ فيه فتموت، ومن لم يرضَ

[٢٤] من أول «وإن لم يكن هذا فلعل» إلى «ساعة من نهار» صفحات ساقطة من الأصل، وقد أخذناها من نسخة شيخو، وهي أقرب النسخ إلى نسختنا.

[٢٥] في النسخ المصرية ونسخة طبارة: «من العلل التي وضعت عليها الأقدار»، وفي نسخة اليازجي: «بالعلل التي اتفقت لها»، وعبارة هذه النسخة المنقولة عن نسخة شيخو أقرب إلى أسلوب الكاتب في مثل هذا الموضع (انظر قوله: «ولكل سبب علة، ولكل علة مجرى») [انظر: باب توجيه كسرى أنو شروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر)].

بالكفاف من الدنيا، وطمحت نفسه إلى الفضول والاستكثار، ولم ينظر فيما يتخوَّف أمامه، كان كالذباب الذي ليس يرضى بالشجر والرياحين حتى يطلبَ الماء الذي يسيل من أُذُن الفيل المغتلم، فيضربُه الفيل بأذنيه فيقتله، ومن بذلَ نصيحته واجتهاده لمن لا يشكر له؛ فهو كمن بذر بذرة في السباخ أو أشار على الميت.

قال دمنة: دعْ عنك هذا الكلام، واجتهد لنفسك، قال شتربة: بأيِّ شيءٍ أحتال لنفسي إن أراد الأسد قتلي؟ فما أَعْرَفَني بأخلاق الأسد ورأيه، وأعرفني بأنه لو لم يُرِد بي إلَّا الخير ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكي عنده قَدَروا على ذلك! فإنَّه لو اجتمع المَكَرة الظلَمة على البريء الصحيح كانوا خُلَقاء أن يُهلكوه، وإن كانوا ضعفاء وكان قويًّا، كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجملَ، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخِلابة؛ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال الثور: زعموا أنَّ أسدًا كان في أجمة مجاورةٍ طريقًا من طرق الناس، له أصحاب ثلاثة: ذئبٌ وابن آوى وغُراب، وأنَّ أناسًا من التُّجار مرُّوا في ذلك الطريق فتخلَّف عنهم جملٌ لهم، فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد، فقال له الأسد: من أين أقبلتَ؟ فأخبره بشأنه، فقال له: ما تريد؟ قال أريد صحبة الملك، قال: فإن أردتَ صُحبتي فاصحبني في الأمن والخِصب والسعة، فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان يومٌ توجَّه الأسد في طلب الصيد؛ فلقيَ فيلًا فقاتله قتالًا شديدًا، ثم أقبل الأسد تسيل دماؤه مما جرحه الفيل بنابه، فوقع مُثْخَنًا لا يستطيع صيدًا، فلبثَ الذئب وابن آوى والغراب أيامًا لا يُصِبن شيئًا مما كُنَّ يَعِشنَ به من فضول الأسد، وأصابهم جوعٌ وهزال شديد؛ فعرف الأسد ذلك منهم فقال: جُهِدتُنَّ واحتجتُنَّ إلى ما تأكلن، فقلن: ليس همُّنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى، ولسنا نجد للملك بعضَ ما يُصلحه، قال الأسد: ما أشُكُّ في موَّدتكم وصحبتكم، ولكن إن استطعتم فانتشروا، فعسى أن تُصيبوا صيدًا فتأتوني به، ولعلِّي أكسِبكم ونفسي خيرًا، فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد فتنحَّوْا ناحية وائتمروا بينهم، وقالوا: ما لنا ولِهَذا الجمل الآكل العُشب، الذي ليس شأنُه شأنَنا، ولا رأيُه رأينا؟ ألَا نُزَيِّن للأسد أن يأكله ويطعمنا من لحمه؟ قال ابن آوى: هذا ما لا تستطيعان ذكره للأسد، فإنه قد أمَّن الجمل، وجعل له ذمة. قال الغراب: أقيما مكانكما ودعاني والأسد، فانطلق الغراب إلى الأسد، فلمَّا رآه، قال له الأسد: هل حصَّلتم شيئًا؟ قال له الغراب: إنما يجد مَن به ابتغاء، ويُبصر مَن به نظر، أمَّا نحن فقد ذهب منَّا البصر والنظر لِما أصابنا من الجوع، ولكن قد نظرنا في أمر واتفق عليه رأينا، فإن وافقتنا عليه فنحن مُخصِبون؛ قال الأسد: وما ذلك الأمر؟ قال الغراب: هذا الجمل الآكل

للعشب المتمرِّغ بيننا في غير منفعة، فغضب الأسد وقال: ويلك! ما أخطأَ مقالتَك، وأعجَزَ رأيَك، وأبعَدَكَ من الوفاء والرحمة! وما كنت حقيقًا أن تستقبلني بهذه المقالة، ألم تعلم أني أمَّنتُ الجمل وجعلت له ذمَّة؟ ألم يبلُغك أنه لم يتصدق المتصدِّق بصدقة — وإن عظمت — هي أعظم من أن يُجير نفسًا خائفة، وأن يَحقِن دمًا مهدورًا؟ وقد أجَرتُ الجمل، ولستُ غادرًا به، قال الغراب: إني لأعرف ما قال الملك، ولكنَّ النفس الواحدة يفتدي بها أهلُ البيت، وأهل البيت تفتدي بهم القبيلة، والقبيلة يفتدي بها المصر، والمصرُ فِدَى الملك إذا نزلت به الحاجة، وإني جاعلٌ للملك من ذمته مخرجًا، فلا يتكلف الأسد أن يتولى غدرًا ولا يأمر به، ولكنَّا محتالون حيلة فيها وفاءٌ للملك بذمته وظفرٌ منَّا بحاجتنا، فسكت الأسد.

فأتى الغراب أصحابه فقال: إني قد كلَّمتُ الأسدَ حتى أقرَّ بكذا وكذا، فكيف الحيلة للجمل إذا أبى الأسدُ أنْ يليَ قتله أو يأمرَ به؟ قال صاحباه: برفقك ورأيك نرجو ذلك، قال الغرابُ: الرَّأي أن نجتمع والجملَ، ونذكر حال الأسد، وما قد أصابَه من الجوع والجَهد، ونقول: لقد كان إلينا مُحسنًا، ولنا مُكرِمًا، فإنْ لم يرَ منَّا اليوم — وقد نزل به ما نزل — اهتمامًا بأمره وحِرصًا على صلاحه، أنزل ذلك منَّا على لؤم الأخلاق وكُفْر الإحسان، ولكن هلمُّوا فتقدَّموا إلى الأسد نذكر له حُسن بلائه عندنا، وما كنَّا نعيش به في جاهه، وأنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا، وأنَّا لو كنَّا نقدر له على فائدة نأتيه بها لم ندَّخر ذلك عنه، فإنْ لم نقدر على ذلك فأنفسنا له مبذولة، ثم ليعرض عليه كلُّ واحد منَّا نفسه، وليقل: كُلني أيها الملك، ولا تمُت جوعًا، فإذا قال ذلك قائل، أجابه الآخرون: وردُّوا عليه مقالته بشيءٍ يكون له فيه عُذر، فيسكت ويسكتون، ونسلمُ كلُّنا ونكونُ قد قضينا ذمام الأسد، ففعلوا وواطأهم الجمل على ذلك.

ثم تقدموا إلى الأسد، فبدأ الغراب وقال: إنك احتجت أيها الملك إلى ما يُقيمُك، ونحن أحقُّ أن نهبَ أنفسنا لك، فإنَّا بك كنَّا نعيش، وبك نرجو عَيش مَن بعدنا من أعقابنا، وإن أنتَ هلكتَ فليس لأحد منَّا بعدك بقاء، ولا لنا في الحياة خير، فأنا أُحبُّ أن تأكلني، فَمَا أطيبَ نفسي لك بذلك؛ فأجابه الذئب والجمل وابن آوى أنِ اسكتْ فما أنت؟ وما في أكلك من الشبَع للملك؟ قال ابن آوى: أنا مُشْبِع الملك. قال الذئب والجمل والغراب: أنت مُنتِن البطن والريح، خبيثُ اللحم، فنخافُ إن أكلك الملك أن يقتله خُبْث لحمك، قال الذئب: لكني لست كذلك، فليأكلْني الملك، قال الغراب وابن آوى والجمل: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم الذئب، فإنه يأخذه منه الخُناق، وظنَّ الجمل أنه إذا قال مثل ذلك عن

نفسه يلتمسون له مخرجًا كما صنعوا بأنفسهم، ويسلمُ ويُرضِي الأسد، قال الجمل: لكن أيها الملك، لحمي طيب ومريء، وفيه شِبَع للملك، قال الذئب والغراب وابن آوى: صدقتَ وتكرمتَ وقلتَ ما نعرف، فوثبوا عليه فمزقوه.

وإنما ضربتُ هذا المثل للأسد وأصحابه لعلمي بأنَّهم إن اجتمعوا على هلاكي لم أمتنع منهم، ولو كان رأيُ الأسد فيَّ غيرَ ما هو عليه، ولم يكن في نفسه إلَّا الخير، فإنه قد قيلَ: إنَّ خير السلطان من أشبه النسور حولها الجيف، لا من أشبه الجيف حولها النسور، ولو أنَّ الأسد لم يكن في نفسه إلَّا الرَّحمةُ والحبُّ لم تُلبِثه الأقاويل إذا كثرت عليه أن يذهب ذلك كله حتى يستبدل به الشرارَة والغلظة، أَلَا ترى أنَّ الماء ألينُ من القول، وأنَّ الحجر أشدُّ من القلب، وليس يلبث الماء إذا طال تحدُّره على الحجر الصَّلد أن يؤثِّر فيه؟

قال دمنة: فماذا تريد أن تصنع؟ قال شتربة: ما إنْ أرى إلَّا أن أُجاهده، فإنه ليس للمصلِّي في صلاته، ولا للمُتَصَدِّق في صدقته، ولا للورِع في ورعه مثلُ أجر المُجاهد بنفسه ساعةً من نهار إذا كان مُحِقًّا، وكان عدوُّه مُبطِلًا، فإنه من ذلك على أمرين يستيقن منهما الأخيار: إن قُتِل فالجنة، وإن قَتَل فأجْرٌ وظَفَرٌ.

قال دمنة: ليس ينبغي لأحد أن يُخاطر بنفسه، فإنَّه إن فعل ذلك وهلك كان قد أضاع نفسه وأثِم، وإن ظفِر كان من قِبَل القضاء، ولكنَّ ذا العقل يجعل القتال آخِرَ حِيَله، ويبدأ بما استطاع من رِفق أو تمحُّل ولا يَعجَل، وقد قيل: لا تحقِرَنَّ العدوَّ الضعيف المَهين، ثم لا سيما إن كان ذا حيلة، فكيف بالأسد، وهو في جُرأته وشدته على ما قد عرفت؟ فإنه من استصغر أمر عدوِّه وتهاون به أصابه ما أصاب وكيلَ البحر من الطِّيطَوَى. قال شتربة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أن طائرًا من طيور الماء يُدعى الطيطوى كان هو وزوجته في بعض سواحل البحر، فلمَّا كان إبَّان بيضها أعلمته بذلك، وقالت له: التمس مكانًا حريزًا أَبِيضُ فيه. فقال لها: ليكُن ذلك في منزلنا، فإن العُشب والماء كثير، ومنَّا قريب، وذلك أرفق بنا من غيره. فقالت: يا غافِلُ، لِتُحسِن نظرك فيما تقول، فإننا بمكاننا هذا على غَرَر؛ لأنَّ البحر لو قد مد ذَهَب بفراخنا؛ فقال: لا آراه يحمل علينا لما يخاف الوكيل عليه من الانتقام منه، فقالت: ما أشدَّ بغيك في هذه المقالة! أوَ مَا تستحي وتعرفُ قَدْر نفسِك في وعيدك مَن لا طاقة لك به، وتهدُّدِك إياه؟ وقد قيل: إنه

ليس من شيءٍ أشدَّ معرِفةً لنفسه من الإنسان،[٢٦] وذلك حقٌّ فاسمع كلامي، وأطِع أمري، فأبى أن يُجيبها إلى ما تدعوه إليه.

فلمَّا رأت ذلك قالت: إنَّ من لا يسمع القول النافع من أصدقائه يُصيبه ما أصاب السلحفاة؛ قال: وكيف كان ذلك؟ قالت: زعموا أنَّ عينًا كان فيها بطتان وسُلَحفاة، وكان قد أَلِف بعضُهم بعضًا وصادقه، ثم إن تلك العين نقص ماؤها في بعض الأزمان نُقصانًا فاحشًا، فلمَّا رأت البطَّتان ذلك قالت: إنَّه لينبغي لنا تَركُ ما نحن فيه والتحوُّل إلى غيره، فودَّعتا السلحفاة وقالتا: عليكِ السلام؛ فإنَّا ذاهبتان. قالت السلحفاة: إنما يشتدُّ نُقصان الماء على مِثلي؛ لأني لا أعيش إلَّا به، فاحتالا لي واذهبا بي معكما؛ فقالتا: لا نستطيع أن نفعل ذلك بك حتى تشترطي لنا أننا إذا حملناك فرآك أحدٌ فذكرك ألَّا تجيبيه؛ فقالت: نعم، ولكن كيف السبيل إلى ما ذكرتما؟ فقالتا: تَعَضِّين على وسَط عُود، وتأخذُ كل واحدةٍ منَّا بطرفه، فرضيت بذلك وطارا بها، فرآها الناس فقال بعضهم لبعضٍ: انظروا إلى العجب، سلحفاة بين بطتين تطيران بها في الهواء، فلمَّا سمعت ذلك قالت: رغمٌ لأنفكم، فلما فتحت فاها بالمنطق وقعت إلى الأرض فماتت.

فقال الطيطوى للأنثى: قد فهمتُ ما ذكرتِ، فلا تخافي وكيلَ البحر، ولا ترهبيه، فباضت مكانها وفرَّخت، فلمَّا سمع وكيلُ البحر ذلك أحبَّ أن يعلم كُنْه الذي يقدر عليه الطيطوى من الاجتزاء منه، وما حيلته في ذلك، وأمهله حتى مدَّ البحر، وذهب بالفراخ في عُشِّهن فغيَّبهن، فلمَّا فقدتهن أمُّهُنَّ قالت للطيطوى: قد كنتُ عارفةً في بدء أمرِنا أنَّ هذا كائن، وأنَّها سترجع عليَّ وعليك؛ قِلَّة معرفتك بنفسك، فانظر إلى ما أصابنا من الضرِّ في سبب ذلك، فقال: سترين صُنعي، وما يصيرُ إليه عاقبة أمري، وانطلقَ إلى أصحابه فشكا ذلك إليهم، وقال: إنكم إخوتي وأهلُ مودَّتي وثقتي، وأنا أطلب ظُلامتي، فأعينوني

[٢٦] هذه الجملة: «إنه ليس من شيءٍ أشد معرفة … إلخ» ليست في النسخ الأخرى ما عدا شيخو، وفي نسخة شيخو: «ليس شيءٌ أقل معرفة لنفسه من الإنسان»، وفي منظومة ابن الهبارية:

قد قيل أقوى الناس جمعًا معرفه عارفُ قدرِ نفسه بلا صِفه (سفه؟)

وفي ترجمة نصر الله بن عبد الحميد: «خويشتن شناسي نيكوست» أي: معرفة النفس حسنة، ويرى القارئ أنَّ ذكر الإنسان هنا لا يخلو من غموض.



وظافِروني، فإنَّه عسى أن ينزل بكم مثلُ ما نزل بي. فقالوا له: نحن على ما وصفتَ، وأنت أهلٌ لأن تُسعف بما طلبتَ، ولكن ما عَسينا أن نقدِر عليه من ضُرِّ البحر ووكيله؟ قال: فاجتمعوا بنا، فلنأتِ سائرَ الطير فلنذكُر ذلك لهم، فأجابوه إلى ذلك، وأعلمهنَّ ما أصابه وحلَّ به، وحذَّرهن أن ينزل بهنَّ مثله، فقلن له: الأمرُ على ما ذكرتَ، فما الذي نستطيع من مساءة البحر ووكيله؟ فقال: إنَّ مَلِكنا، معشرَ الطير، العنقاء،[٢٧] فتعالوا نصرُخ بها حتى تبدو لنا؛ ففعلوا ذلك، فظهرت لهنَّ وقالت: ما جَمَعكنَّ؟ ولِمَ دعوتموني؟ فأنهَينَ إليها ما لَقين من البحر ووكيله، وقلن لها: إنك مَلكَتُنا، والملك الذي يقتعدك أقوى

[٢٧] للعنقاء التي تسمَّى بالفارسية «سِيمُرغ» مكانةٌ في أدب الإيرانيين والآريين عامة (انظر التعليقات على الترجمة العربية للشاهنامه ص٥٦، وصفحات أخرى مبينة في الكشَّاف وهو فهرس الأعلام).

من وكيل البحر، فانطلقي إليه فليُعِنَّا عليه، ففعلت ذلك، فأجابها إلى ما سألت، وانطلق ليقاتله، فلما علِم بذلك وكيل البحر، وعرف ضعفه عند قوَّته، ردَّ فِراخ الطيطوى عليه.

وإنما ضربتُ لك هذا المثلَ لأني لا أرى لك قتالَ الأسد، ولا المُجاهرة له به، قال شتربة: ما أنا بناصِبٍ للأسد العداوة، ولا مُتغيِّرٍ له عمَّا كُنتُ عليه؛ حتى يبدُوَ لي ما أتخوف منه فأُغالبه، فكِره ذلك دمنة، وظنَّ أنَّ الأسد إن لم يرَ من شتربة العلامات التي وصف له اتهمه، فقال: انطلق، سيستبين لك إذا دخلتَ عليه آياتُ ما ذكرتُ لك، قال شتربة: وكيف أعرف ذلك؟ فقال دمنة: إن أنتَ رأيت الأسد حين تدخل عليه ينتصب مُقْعِيًا ويرفع صدره، ويسدِّد إليك بصره، ويضرب بذَنَبِه، ويتلمَّظ، فاعلم أنه يريد قتلك، فاحذره ولا تغتر إليه، فقال شتربة: لئن أنا عاينتُ منه ما وصفت، فما في أمره عندي شك.

فلمَّا فرغ دمنة من تحميل الأسد على شتربة وشتربة على الأسد، توجه إلى كليلة، فلما لقيه قال: إلامَ انتهى عملك الذي كنت فيه؟ فقال دمنة: يا أخي، قد تقارب نجاحه على الذي تُحب، فلا تشُكَّن في ذلك، ولا تظنَّن أنَّ الإخاء بين الأخوين ثابت إذا احتال لقطعه الأريب الرَّفيق، فانطلقا حتى أتيا الأسد في عرينه، ووافقا شتربة قد دخل عليه فرآه على حال ما ذكر دمنة ووصفه له، فاستيقن بالهلكة، وقال: ما صاحبُ السلطان — فيما يُتخوَّف من بوادره عندما يرقى أهلُ البغي إليه — إلَّا كمجاور الحيَّة في بيته، والأسد في عرينه، والسابح في الماء الذي فيه التماسيح[٢٨] لا يدري متى يهيج به بعضُهن؛ ففكَّر في ذلك وتهيَّأ لِقتاله، ونظر إليه الأسدُ فعرف ما كان دمنة ذكر له منه، فواثَبه فاقتتلا قتالًا شديدًا سالت منه الدماء بينهما.

فلما رأى كليلة ذلك قال لدمنة: أيها الفسْل! انظُر إلى حيلتك، ما أنكدها وأوخم عاقبتها! فإنك قد فضحتَ الأسد، وأهلكت شتربة، وفرَّقت كلمة الجُند، مع ما استبان لي من خُرقك فيما ادَّعيت فيه الرفق، أوَلست تعلم أنَّ أعجَزَ الرَّأي ما كلَّف صاحبه القتال، وهو عنه غَنِي؟ وأنَّ الرجل رُبَّما أمكنَته فرصتُه في عدوه فتركها مخافةَ تعرُّض النكبة، ورجاءَ أن يقدِر على حاجته بغيرِ ذلك، وإذا كان وزير السلطان يأمُره بالمحاربة

[٢٨] ذكر «التماسيح» هنا ليس مستغربًا، فإنَّ أنهار الهند فيها تماسيح، حتى ظنَّ بعض القدماء أن نهر السند والنيل متَّصلان لِما في السند من تماسيح.

فيما يقدر على بُغيته فيه بالمسالمة فهو أشدُّ من عدوِّه له ضررًا، وكما أنَّ اللسان يُدركه الضَّعف عن نهكة الفؤاد، فكذلك النجدة تلحقها السخافة عن خطأ الرأي، فإنهما إذا فقد أحدُهما صاحبه لم يكن للآخر عمل عند اللقاء، وللرأي عليها الفضل؛ لأنَّ أمورًا كثيرة يجزئ فيها الرأي، ولا تبلغُ هي شيئًا إلَّا به، ومن أراد المكر ولم يعرف وجه الأمر الذي يأتيه منه ويحيد فيه عنه، كان عمله كعملك، ومن عرف التمحُّل والرِّفق، وهو ضعيفٌ بنفسه وعدوُّهُ قويٌّ، فإنه أقوى من عدوه؛ لأنَّ الفيل والأسد مع قوتهما، والحية الأسود مع سمه ونهشته، وقوة الماء والنار والريح والشمس، فإنَّ الرجل الضعيف بالرفق والحيل يظفر بهم، وبالحيل يَركَب الفيل، ويأخذ الحيَّة ويلعَب بها، ويُصيِّر الأسدَ في التابوت، ويُجري الماء على موضع ما يُريد، ويَمنَع مضرة النار والريح والشمس، ويستخدم القَوِيَّ. وقد كانت لي معرفة ببغيك وعُجبك بنفسك، ولم أَزَلْ أتوقع منذ رأيت شَرَهَك وحرصك داهيةً تجني بها عليَّ وعليك، فإنَّ ذا العقل يُفكِّر في الأشياء قبل مُلابَسَتها، فما رجا أن يتمَّ له أقدَمَ عليه، وما خاف أن يتعذَّر عليه انصرف عنه، ولم يمنعني من تأنيبك في أول أمرك ووقفِك على خَطَل رأيك إلَّا أنَّ ذلك كان ما لا أستطيعُ إظهاره، ولا ابتغاء الشهود عليك فيه، فأمَّا الآن فإني سأفسِّر لك ما أنت عليه من ذلك؛ فإنَّك تُحسِن القولَ ولا تُحكِم العمل، وقد قيل: ليس شيءٌ بأهلَكَ للسلطان ممن كان كذلك، وهذا الذي غرَّ الأسد منك، ولا خير في الكلام إلَّا مع الفعل، ولا في الفِقه إلَّا مع الورع، ولا في الصدقة إلَّا مع النية، ولا في المنظر إلَّا مع المَخْبر، ولا في المال إلَّا مع الجُود، ولا في الحياة إلَّا مع الصحة والسرور والأمن. وقد سوَّطتَ أمرًا لا يُداويه إلَّا العاقل الرفيق، كالمريض الذي يجتمع عليه فساد المِرَّة والبلغم والدم، فلا يُذهب ذلك عنه إلَّا الطبيب الحاذق الماهر.

واعلم أنَّ الأدب يدفع عن اللبيب السُّكْر، ويزيد الأحمق سُكرًا، كالنهار فإنه ينير لكل ذي بصر من الطير وغيره، ولا تستطيع الخفافيش الاستقلال فيه، وذو الرأي لا تُبطره منزلة أصابها؛ كالجبل الذي لا يتزلزل وإن اشتدت الريح، وذو السخف يُنزفه أدنى أمر كالحشيش الذي يُميله الشيء اليسير. وقد قيل: إنَّ السُّلطان إن كان صالحًا، ووزراؤه غيرَ صَالحين قلَّ خَيره على الناس، وامتنع منهم، فلم يجترِ عليه أحد، ولم يدنُ منه؛ كالماء الصافي الطيِّب الذي فيه التماسيح، فلا يستطيع الرَّجل دُخولَه وإن كان سابحًا وإليه مُحتاجًا، وإنما حِليةُ الملوك وزينتُهم قرابينهم أن يكثُروا ويَصلُحوا، وإنك أردتَ ألَّا يدنُوَ من الأسد غيرك، وإنما السلطان بأصحابه وأعوانه كالبَحر بأمواجه، ومن الحُمق التماس الإخوان بغير الوفاء، والأجر بالرِّياء، ومودة النساء بالغِلظة، ونفعِ المرء

نفسه بضرِّ الناس، والفضل والعلم بالدَّعَة والخفض، ولكن ما غَناءُ هذه المقالة وَجَدَا هذا التأنيبِ، وأنا أعرف أنَّ الأمر فيه كما قال الرجل للطائر: لا تلتَمِس تقويم ما لا يعتدل، ولا تُبَصِّر من لا يفهم. فقال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زَعَموا أنَّ جماعةً من القِرَدة كُنَّ في جبل، فرأين في ليلة باردة يراعةً، فحسبنها نارًا، فجمعن حطبًا فوضعنه عليها، وجعلن ينفُخن بأفواههن، ويروِّحن بأيديهن، وقُرْبَ ذلك الموضِع شجرةٌ عليها طائر، فقال لهنَّ: لا تُتعِبن أنفسكن، فإن الذي ترَين ليس بنار كما تحسبن، فلم يَسْمَعن منه، ولم يُطعنه. فلمَّا طال ذلك عليه، نزل إليهنَّ، فمرَّ به رجل فقال: أيها الطائر، لا تلتمس تقويم ما لا يعتدل، وتبصير من لا يفهم، فإنَّ الحجر الذي لا يُقدَر على قطعه لا تُجرَّبُ به السيوف، والعودَ الذي لا ينحني لا يُعالَج حَنْيُه، فإنَّ من فعل ذلك ندم؛ فلم يلتفت إلى قوله، ودنا منهنَّ ليبصِّرهن، فتناوله بعضهم وضرب به الأرض فقتله، فهذا مثلك في قلة الانتفاع بالموعظة، معَ أنَّه قد غلب عليك المكر والعُجب، وهما خَلَّتا سُوء، إنه سيصيبك من عاقبة ما أنت فيه ما دخل على الخَبِّ شريكِ المغفَّل، قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

فقال كليلة: زعموا أنَّ رجلين، أحدهما خبٌّ والآخر مغفَّل اشتركا، فبينما هما يتمشيَّان إذ وجدا بدرةً فيها ألف دينار فأخذاها، وبدا لهما أن يرجعا إلى مدينتهما، فلمَّا دَنَوَا منها قال المُغفَّل للخبِّ: خذ نصفها وأعطني نصفها، فقال الخبُّ: وكان قد أضمر الذهاب بها كلها: لا، فإنَّ المُفاوضة أدوم للمصافاة، ولكن يقبضُ كل واحد منَّا منها شيئًا ينفقه، وندفن بقيتها مكانًا حريزًا، فإذا احتجنا إليها استثرناها؛ فأجابه إلى ذلك، ودفناها تحت شجرة عظيمة، ثم خالف إليها الخبُّ فذهب بها، ولقيه المغفل فقال: اخرُج بنا إلى وديعتنا فلنقبضها؛ فانطلقا إلى المكان فاحتفراه فلم يجداها، فجعل الخبُّ ينتف شعره ويدُقُّ صدره، ويقول: لا يثقنَّ أحدٌ بأحدٍ، رجعْتَ إليها فأخذتها. وجعل المغفَّل يحلف أنه ما فعل، ثم انطلق به إلى القاضي فقصَّ عليه الأمر، فقال له: هل من يشهد: قال نعم! الشجرةُ تشهد لي بما أقول، فأنكر ذلك عليه القاضي أشدَّ الإنكار، وأمر به فكُفِل، وقال: وافوني به غدًا باكرًا، فانصرف إلى أبيه وأعلمه بذلك، وقال: إني لم أقل الذي ذكرتُ إلَّا لأمر قد رَوَّأتُ فيه، فإن أنتَ طاوعتني أحرزنا ما أخذنا، وأضفنا إليه مثله من المغفَّل، فقال: وما ذاك؟ قال: إني قد كنتُ توخيتُ بالدنانير شجرة عظيمة من الدوح جوفاء فيها مدخل لا يُرى، فدفنته في أصلها، ثم خالفته إليها فأخذتها وادَّعيت

على المُغفَّل،[٢٩] فأنا أحِبُّ أن تذهب الليلة فتدخلها، فإذا جاء القاضي فسألها قلتَ: «المغفل أخذ الدنانير»، فقال: يا بُنيَّ، إنه رُبَّ امرئٍ قد أوقعه تمحُّله في ورطة، فإياك أن تكون كالعُلجوم الذي أهلكه تحيُّله.[٣٠] قال: وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أنَّ عُلجومًا كان مُجاورًا لأسوَد، وكان لا يدع له فَرخًا إلا أكله، وكان وطنُه قد وافقه وأعجبه، فحزن لذلك واهتم، ففطِن له سَرَطان، فسأله عن حاله فأخبره به، فقال: ألا أدُلُّك على شيء يُريحك منه؟ قال: بلى! فأشار إليه وقال: انظُر إلى ذلك الجُحر، إنه[٣١] جُحر ابنِ عِرس — وأَعْلَمَه عداوته إياه وجوهره — وقال: اجمَع سمكًا واجعله له سَطرًا فيما بين مكانيهما، فإنه يأكل الأول فالأول حتى ينتهي إليه فيهلكه، ففعل ذلك به فتبعه حتى وجد الأسوَد فقتله، ثم جعل ابنُ عِرس يخرج من بعد ذلك يلتمس العادة، فلم يزل يطوف حتى وقع على عُشِّ العلجوم، فأكله وفراخه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنَّه من لم يتثبت، أوقعه ما يحتال به فيما عسى ألا يخلُص منه، قال: قد فهمتُ ما ذكرتَ، فلا تهابنَّ، فإنَّ الأمرَ يسير، فلم يزل به حتى أطاعه، واتَّبع رأيه.

فلمَّا انتهى القاضي إلى الشجرة وسألها، أجابه من جوفها بأنَّ المغفَّل أخذ الدنانير، فاشتدَّ عجبُه من ذلك، وطاف بها فلم ير شيئًا، فأمر بحطبٍ فجُمِع، وأُلقيَ عليها، وجعل فيه نارًا، فلما دخل عليه الدخان ووصل إليه الوهج، تصبَّر ساعة ثم صاح، فأُخرِج بعد ما أشفَى على الموت، ثم عاقبه القاضي وابنه، فمات الشيخ وانصرف به ابنه يحمله ميِّتًا، ورجع المغفل وقد أخذ الدنانير وفَلَج عليهما.

وإنَّما ضربتُ لك هذا المثل؛ لأنَّ الخديعة والمكر رُبما كان صاحبهما هو المغبون، وأنت يا دِمنةُ جامعُ الخصال الرديَّة التي وصفتُ، فكان الذي اجتنيت من ثمرة عملك ما ترى، مع أني لا أحسَبُك تنجو، فإنك ذو لونين ولسانين، وإنما صلاح أهل بيتٍ ما

[٢٩] في عبارة الأصل هنا خلل ونقص تداركناهما من النسخ الأخرى، وعبارة الأصل: «أني كنت توخيت أعظم ما أقدر عليه من الروح خوفًا حتى أصيبه.»

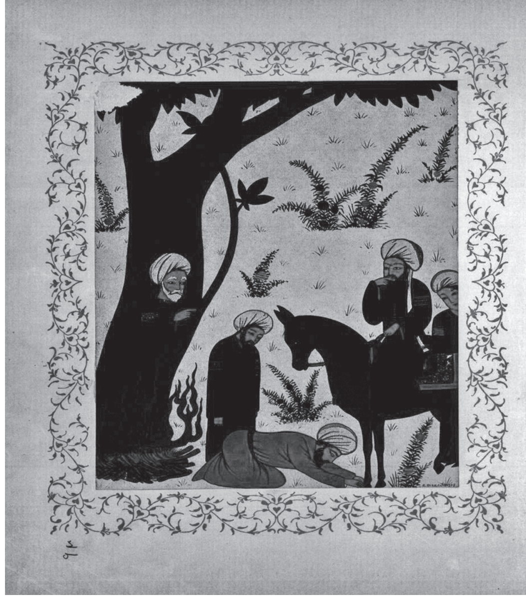
[٣٠] محاورة الخب وأبيه ومَثَلُ العلجوم والأسْود ليسا في النسخ المصرية ونسخة طبارة.

[٣١] في الأصل: «انظر جحر ابن عرس … إلخ»، وقد صححناه بما يوافق سياق الكلام ويُفهَم من النسخ الأخرى.

لم يدخل فيه مُفسِد، وبقاءُ إخاء الإخوان ما لم يَحْتَلْ له مثلُك، فإنَّه لا شيءَ أشبَهُ بك من الحيَّة التي يجري من نابها السم، وقد كنتُ لذلك من لسانك خائفًا مُشفِقًا، لقربك مني كارهًا، فإنَّ العُقلاء قد قالوا: اجتَنِب أهلَ الفُجور، وإن كانوا ذوي قرابتك، فإنَّ من كان كذلك فإنما هو بمنزلة الحيَّة التي يرقيها صاحبُها ويمسحها، ثم لا يكون له منها إلا اللدغ، وكان يُقال: الْزَم ذا العقل والكرم واسترسل إليه، وإياك وفراقه، ولا عليك أن تصحب مَن لا جُودَ له إذا كان محمود الرأي، واحترس من سيئ أخلاقه، وانتفِعْ بما عنده، ولا تدَع مُواصلة السخِي وإن كان لا نُبل له، واستمتع بسخائه، وانفعه بلُبِّك، واهرُب من اللئيم الأحمق. وأنا بالفرار منك والتنحِّي عنك جديرٌ حقيقٌ، وكيف يرجو إخوانك وفاءك لهم، وقد صنعتَ بملِكك الذي شرَّفك ما أرى؟ ومَثَلُك في ذلك قولُ التاجر: إنَّ أرضًا يأكُل جُرذانها مائة مَنٍّ من الحديد، غيرُ مُسْتَنْكَر أن تخطف بُزاتُها الفيلة. فقال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زعموا أنه كان بأرض مردات[٣٢] تاجرٌ مُقِلٌّ، فأراد الشخوص إلى حاجة له، وكان له مائة منٍّ من حديد، فاستودعها رجلًا من معارفه، وانطلق إلى حاجته. فلمَّا رجع طلبها منه، وكان قد باعها واستنفق ثمنها، فقال له: كنتُ تركتها في ناحية البيت فأكلها الجُرذان، فقال له: لقد يبلُغُنا أنه ليس شيء بأقطع للحديد من أنيابهنَّ، وما أهوَنَ المرزيةَ في ذلك إذا سلَّمك الله، ففرح بما سمع منه، وقال: اشرَب اليوم عندي، فوعده بذلك، وخرج فأخذ ابنًا له صغيرًا حتى خبَّأه في بيته، ثم رجع إليه، فلم يزالا في شأنهما حتى ذكر التاجر ابنه وافتقده، فقال له: هل رأيت ابني؟ فقال صاحب الحديد: لقد رأيتُ حين دنوتُ منكم بازيًا اختطف غلامًا فلعله هو، فصاح التاجر وقال: يا مَن حضر! هل سمعتم بمثل هذا قط؟ فقال: إنَّ أرضًا يأكل جرذانها مائةً منٍّ حديدًا ليس بمستكبَرٍ لها أن تختطف بُزاتها الفيلة، فقال: أنا أكلتُ حديدك، وسُمًّا أدخلتُ جوفي، فادفع إليَّ ابني، وأَرُد إليك ما أكلت لك، وما كنتَ استودعتني، ففعلا ذلك.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرتَ بملِكك ذي البلاء الحسَن عندك، فإنه لا شكَّ في صنيعك مثلَ ذلك بمن ساواك، وأنه ليس للمودَّة عندك منزلة ولا مكافأة، فإنه لا شيء أضيع من إخاءٍ يُمنح من لا وفاء له، وبلاءٍ يُضيَّع عند من لا شُكر له، وأدبٍ

[٣٢] ليس في النسخ الأخرى تسمية الأرض، ولكن فيها: «أرض كذا»، وكذلك تُحذَف من النسخ الأخرى كثيرٌ من أسماء البلاد والأشخاص، وفي هذا تمتاز نسختنا أيضًا.



يُستودع من لا يفهمه، وسرٌّ يُستكتمه مَن لا يحفظه، ولستُ في طَمَع مِن تغيُّر طبيعتك ولا تحوُّل أخلاقك، فإني قد عرفتُ أنَّ ثمرة الشجرة المُرَّة لو طُلِيت بالعَسَل لم تنقلب عن جوهرها، وقد خفت صحبتَك على رأيي وأخلاقي، فإنَّ صُحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورِثُ الشرَّ، كالريح إذا مرَّت على النتن حملت نتنًا، وإذا مرَّت بالطِّيبِ حملت طيبًا.

وقد عرفتُ ثِقَل كلامي عليك، وكذلك الجهَّال لم يزالوا يستثقلون عقلاءهم، واللؤماء كِرامهم، والسفهاء حلماءهم، والمعوجُّ منهم المستقيم.

فانتهى كلام كليلة إلى هذا المكان، وقد فرغ الأسد من شتربة، وفكَّر بعدما قتله وقد ذهب عنه الغيظ، فقال: لقد فجعني شتربة بنفسه، وقد كان ذا رأي وعقل، ولا أدري لعلَّه كان مَبغِيًّا عليه، فحزن وندم.

وبصُر به دمنة، فترك مُحاورة كليلة وتقدَّم إلى الأسد، وقال: قد أظفرك الله أيُّها الملك، وأهلك عدوك، فما الذي تهتم له ويحزُنك؟ فقال الأسد: لقد أشفقتُ على قتل شتربة لعقله وكرم خُلُقه، فقال دمنة: لا تفعلنَّ ذلك أيها الملك ولا ترحم من تخافه، فإنَّ الملك الحازم رُبَّما أبغض الرجلَ وأقصاه، ثم تكاره عليه، فقرَّبه وولاه لما يَعرفه من غَنَائه وفضله، فِعْلَ المتكاره على الدواء البشع رجاء منفعته ومغبَّته، ورُبَّما أحبَّ الرجلَ وأدناه ثم أهلكه واستأصله مخافة ضرِّه، كالذي تلدغ الحيَّة إصْبَعه فيقطعُها مخافةَ أن ينتشر السمُّ في جسده كله فيقتله، فلمَّا سمع الأسد ذلك منه صدَّقه وقرَّبه.

ثم[٣٣] قال الفيلسوف للملك: فكان في صُنع دمنة — في صِغَرِهِ وضعفه وهو من أرذل السباع وأحقرها — بالأسد والثور ما شغب به بينهما، وألَّب كل واحد منهما على صاحبه، حتى قطع وُدَّهما وإخاءهما، من الأعاجيب والعِبَر لذوي الألباب في الاتقاء والحذر لأهل النميمة والوهْس، والنظر فيما يزوِّقون من خديعتهم ومكرهم وسِعايتهم، وذوو العقول أحقُّ أن يتقوا كذب أولئك ويتجنبوا عطبهم، ويفحصوا عن هذه الأشياء منهم، ثم لا يُقدِموا على شيءٍ من أقاويلهم إلا عن تثبت وضياء ونور، وأن يرفضوا كل من عَرَفوا مِثلَ ذلك منه؛ فإنه الرأيُ والحزمُ والأخذُ بأمر السعادة إن شاء الله.

[٣٣] هذه الخاتمة تنفرد بها نسختنا.

باب الفحص عن أمر دمنة[1]

قال دَبشَليم ملك الهند لبَيْدبَا الفيلسوف: قد سمعتُ خبرَ الواشي المُحتال الماهر بالخِلابة كيف يُفسِد — بتشبيهه وتلبيسه — الودَّ الثابتَ بين المتحابَّيْنِ، فأخبرني إلامَ آل أمره، وما كانت عاقبته.[2]

قال بيدبا: إنَّا وجدنا في الكتب أنَّ الأَسَدَ لَمَّا قتل شتربة، ومرَّ لذلك أيام، خرج النَّمِر ذات يوم — وكان يُدعَى المعجِب الوشْي، وكان معلِّمَ الأسد وأمينه وموضع سرِّه — يطلب قبسًا، فاضطرَّته السماء إلى منزل كليلة ودمنة، فلما انتهى إلى الباب سمع كليلة يُعاتب دمنة ويلومه على سوء رأيه وصنيعه، وما ارتكب من شتربة في غير ذنب أتاه إليه، فكان في بعض قوله: إنَّ الذي أتيتَ من النميمة والخِلابة سيظهر للأسد ويطَّلع طِلعه بعد اليوم، ولستَ بناجٍ منه إلا بأكثر مما يُعاقَب به أهل الذنوب، ولستُ أنا أيضًا — فيما بعد اليوم — بمتَّخذك خليلًا، ولا مُفشٍ إليك سرًّا، ولا مُقارِبك في شيء، فإنَّ العلماء قد قالوا: تباعَدْ ممن لا رغبة له في الصلاح، وإنما عَمَله النميمة والخلابة، وكذلك حملتَ الملك على خليله البريء الرَّفيق العالِم شتربة، ولم تزل به حتى اتهمه فقتله.

[1] هذا الباب يُحسب من زيادات النسخة العربية لكتاب «كليلة ودمنة»، فهو لا يُعرف في الأصل الهندي ولا الترجمة السريانية القديمة، ويظنُّ بعض الباحثين أنَّه لم يكن في الترجمة الفهلوية أيضًا (انظر المقدمة).

[2] في النسخة السريانية الحديثة يطول سؤال الملك فيتضمن الاستفهام عن موضوع الباب كله: كيف اتُّهم دمنة، وكيف دافع عن نفسه، وكيف عُرِف أمره، وكيف عوقب؟ ونسختنا أوجز من النسخ الأخرى في هذا السؤال، كما أنها لا تشير في آخر الباب السابق إلى موضوع هذا الباب.

فلمَّا سمع النَّمِر قول كليلة رجع فدخل على أمِّ الأسد فحدَّثها الحديث الذي سَمِعَ كله، فلمَّا أصبحتْ انطلقت إلى ابنها فرأته حزينًا كئيبًا، فلمَّا عاينت ذلك منه عرفتْ أنَّه ليس إلَّا على شترَبة، فقالت: إنَّ الأسف والهمَّ لا يردَّان شيئًا، وهما يُنحِلان الجسم، ويُذهِبان العقل، ويُضعِفان القوَّة، فأعلِمْني شأنك، فإنْ كَانَ مِمَّا ينبغي لك أن تحزن له وتخبل عنه فلستُ ولا أحدٌ من جندك يخلو من ذلك، وإن كان إنما هو لقتل شترَبة فقد استبان لنا ولك أنك ركبتَ ذلك منه ظُلمًا على غير جُرمٍ ولا غِشٍّ ولا حَدَثٍ، فلو كنتَ فكَّرت في أمره، وقِستَ ما لك في نفسه بما تجد في نفسك له؛ لكان في ذلك مُعتَبَر؛ فإنه يُقال: إنَّ امرأ لا يَوَدُّ أحدًا ولا يُبغِضه إلَّا وجد له في نفسه مثلَ ذلك، فأعلمني هل ترى ضميرك يشهد أنَّ الذي فعلت بشترَبة كان على حقد وعداوة؟ فإن كان كذلك فهو لك عدوٌّ، وقد أظفرَك الله به وأراحك منه، فَدَعِ الحزن عليه والتأسف لفراقه، فإنَّ العداوة لا تُستقال، وإن كان قلبك لا يشهد بعداوته ولا يذكر منه حقدًا ولا مخالفةً لك، فأنت حريٌّ بالحزن عليه، فقال الأسد: ما زلتُ لشترَبة سليمَ الصدر، واثقًا به، مُعجبًا برأيه، مُحبًّا له، مُسترسلًا إليه، وقد دخل عليَّ لقتله همٌّ شديد، وما أنكرتُ من نفسي له شيئًا قبل قتله ولا بعده، وإني لنادِمٌ على ما كان منِّي، متلهفٌ له موجَع، وما أشكل عليَّ الرأيُ أنه بريء مما لُطِخ به غيرُ متَّهم، ولكن قُتِل لتحميل الأشرار وبَغيهم وزخرفتهم الكلام الكاذب. ولكن أعلِميني هل سمعتِ شيئًا أو حدَّثكِ به أحدٌ؟ فإنه إذا كان الرَّأي موافقًا لإخبار الموثوق به كان أسدَّ للبصيرة وأثلج للصدر، وأحرى أن يُقدِم المرء به على غير الشبهة والشك.

فقالت أم الأسد: حدَّثني الأمينُ الصدوق عندك أنَّ دمنة لم يركب من شترَبة الذي ركب من تحميله إياك عليه، إلا لحَسَده إياه على منزلته منك، ومكانه عندك؛ فقال الأسد: ومن خبَّرك بهذا؟ فقالت أم الأسد: قد استحفظنيه، والمستكتَمُ مُؤتمن، ومن أفشى سرًّا استودعه فقد خان أمانته، ومن فعل ذلك كان بشرِّ المنازل في المعاد؛ فقال الأسد: لعمري لقد صدقتِ، ولكن ليس هذا مما ينبغي أن يُكتَم، بل يحقُّ على صاحبه أن يُعلِنه، ويُظهِرَ شهادته عليه، ويستكملَ الأجر فيه، ولا يبطلَ حقًّا عليه — ولا سِيَّما في دم المظلوم —

فإن الكاتم لجُرم المجرم في وَتَغ مُبتغٍ شركه فيه،[٣] وإنَّ السلطان لا ينبغي له أن يُعاقب على الظنِّ والشبهة، فإنَّ الدم عظيم شأنه، وأنا — وإن كنتُ أُوطئتُ عشوة في شتربة — أكره أنْ أركب من دمنة مثلها بغير بيِّنة ولا يقين، وقد رمى إليكِ من أخبرك بما ذكرتِ، وقذفه في عنقك. قالت أمُّ الأسد: صدقتَ، ولكني كنتُ أظنُّ أنك تستكفي بي فيما حدَّثتك وتصدِّقني به، فلا تتهمني عليه.

فقال الأسد: ما أنتِ عندي بمردودة القول، ولا أنتِ في نفسي بمتَّهَمَة، ولا أنا في نصحك بمرتاب، ولكن أُحبُّ أن تُعلِميني من هو ليكون أشفى لصدري، قالت أم الأسد: فإن كنتُ عندك كذلك فعاقب هذا الفاجر عقوبةَ مِثلِه. قال الأسد: وما عليكِ أن تُخبريني من ذكر ذلك لك؟ فإنه لا مضرةَ فيه عليك، فقالت أم الأسد: ضرَر هذا عليَّ في خلالٍ ثلاث: أمَّا الأولى فانقطاع ما بيني وبين صاحب هذا السر من المودة لإباحتي بسرِّه، والثانية خيانتي ما استُحفِظت من الأمانة، وأما الثالثة فوَجَل من كان يسترسل إليَّ قبل اليوم وقطعُهم أسرارهم عني، ومتى أفعلْ ذلك لا يثِق بي أحد، ولا يطمئن إليَّ. فلمَّا سَمِعَ الأسدُ ذلك منها وعرف أنَّها غير مخبرته باسم من أخبرها قال: الأمر على ما قلتِ، وما أنا عمَّا كرهتِ بالمفتش، وما يختلج في صدري الارتياب بنصحك، فأخبريني بجملة الأمر إذا كرهتِ أن تخبريني باسم صاحب السر.[٤] فأخبرته بجملة الأمر، وقالت: لستُ أجهل قول العلماء في تعظيم فضل العفو عن أهل الجرائم، ولكنَّ ذلك إنما هو فيما دون النفوس، أو خيانة العامة التي يقع بها الشرُّ، ويحتجُّ بها السفهاء عند ما يكون من أعمالهم السيئة، واستغشاش الملك بالأمر الذي يصل خطأً — إن كان فيه — إلى العامة، وكان فيما يُقال: لا ينبغي للولاة استبقاء الخونة الفُجَّار أهلِ الغدر والنميمة، والتحيُّل والإفساد بين الناس، ومَن يَكرهون صلاحهم ولا يرحمونهم لما نزل بهم، وأولى من نَفَى عن الرعية ما أفسدهم، وساق إليهم ما أصلحهم، القادة المتولُّون لأمورهم، وأنت بقتل دمنة حقيقٌ، فإنه كان يُقال: إفساد جُلِّ الأشياء من قِبَلِ خَلَّتين: إذاعةُ السر، وائتمان أهل الفجور،

[٣] في الأصل: «فإن الكاتم لدم المجرم في رتغ منتفع شركه إياه فيه»، وهي عبارة محرَّفة مختلة، وقد صححناها جهد الطاقة في العبارة التي هنا.

[٤] سقطت من نسختنا الكلمات التي بين «أخبرها» و«فأخبرته»، فتداركناها من شيخو على قدر الضرورة.

وإنَّ الذي أنشب العداوة بينك وبين شتربةَ أنصحِ الوزراءِ وخيرِ الأعوانِ حتى قتلته غدرًا، دمنةُ بحيلته وخِلابه ومكره وخيانته، وقد اطلعت على مكنونه، وبدا لك ما كان يخفى عليك، وعلمتَه في نحو ما تذكر من حديثه إياك قبل اليوم، فالراحة لك ولجندك — إذ ظهر لك منه ما يكتم — قتلُه عقوبةً لجريمته، وإبقاءً على جندك من شرِّه، فإنه ليس على مثلها بمأمون، ولعلك أيُّها الملك أن تركن إلى ما آثرتَهُ من العفو عن أهل الجرائم، فإن روَّأت في ذلك فاعلم أنه ليس منهم من يبلغ جُرمه جرمَ دمنة.

فلما سمع الأسد ذلك نادى في جموعه، فحضروا وأُتيَ بدمنة، ونكَّس الأسد مستحييًا مما ركب من قتل شتربة، فلما رأى دمنة ذلك قال لبعض من يليه متجاهلًا: ما لي أرى الملك مكتئبًا مهمومًا؟ هل حدث أمر جَمَعكم له؟ فلمَّا سمعت ذلك أمُّ الأسد قالت مجيبة له: الذي كرَب الملكَ بقاؤك حيًّا إلى اليوم — مع عظيم حَدَثك وجُرمِك — أيها الغادر الكذوب! قال دمنة: وما الذي جنيت مما يُستحلُّ به قتلي ويكرُب الملك بقائي؟ قالت أم الأسد: أعظمُ الحدث حدثك، وأشدُّ الخيانة خيانتك، واستجهالك الملك، وقتلُك البريء من وزرائه. قال دمنة: إن تصديق ما كان يُذكر قد حضر، فإنه كان يُقال: من اجتهد في طلب الخير أسرع إليه الشر، ولا يكون الملك وجنوده المثَل السوء، وقد علمت أنَّ ذلك إنما كان قيل في صحبة الأشرار أنه مَن صحبهم وهو يعلم علمهم لم ينجُ من شرِّهم، ولذلك رفض أهل الدين والنسك الدنيا ولذَّتها، واختاروا الوَحدة وتركوا مُخالطة الناس ومحادثتهم؛ لِما يرون فيها من مُؤاخذة الأبرار بأعمال الفجار، وإثابة الفجَّار بأعمال الأبرار، وآثروا العمل لله على العمل لخلقه؛ لأنه ليس أحدٌ يجزي بالخير خيرًا إلَّا الله، وأمَّا من دونه فقد تجري أمورُهم فُنونًا يغلب على أكثر ذلك[٥] الخطأ، وما أحدٌ أحقُّ بالصفات الجميلة من الملك الموفَّق الذي لا يُصانع أحدًا لحاجة به إليه، ولا لعاقبةٍ يتخوَّفُها منه، فإنَّ أحقَّ ما عظمت فيه رغبة الملوك من محاسن الصواب المكافأة لأهل البلاء الحسن عندهم،[٦] ومن يُرقى إليهم نصيحته، وهذا أقرب من أمري وأشبه فيما حملني النصحُ للملك، والإيثار له على غيره، والنَّظرُ للعَامَّة من إعلان سرِّ الخائن الكفور، وما كان ربَض في نفسه

[٥] وَضع اسم الإشارة موضع الضمير في قوله: «فنونًا يغلب على أكثر ذلك الخطأ.» يشبه التعبير الفارسي.

[٦] كان في الأصل: «رغبة الملك» بالإفراد مع إعادة الضمير جمعًا فيما بعده، وليس هذا بعيدًا من أسلوب الكتاب وأساليب الفرس، ولكن لم نثق بعبارة الكتاب لكثرة تحريفها فغيَّرنا كلمة «الملك» إلى «الملوك» مجاراةً للنسخ الأخرى، ولعلها كانت في الأصل «السلطان» وهو يستعمل جمعًا في هذا الكتاب.

وارتفعت إليه همته من الغدر بالملك والوثوب عليه، وقد كان استبان للملك، الذي كان منطويًا عليه ومُضمرًا له من العداوة والغل، بالأمارات البيِّنات الواضحات التي لا تحتاج معها إلى غيرها بالذي لقيه به حين لقيه وثاوَره، ولم يأتِ إليه شيئًا إلَّا عن بصيرة، وإن هو أيضًا تحرَّى الأمر وسأل عنه ونظر فيه عرف مصداق ما كنتُ قلتُ له، فإن النار التي تكون في الحجر والعود إنما تُستخرج بالحيل، وليس يخفى مثل ذلك، فإنَّ جُرم المرء إذا فُحِص عنه وفُتِّش ازداد استنارة واستبانة، كما أنَّ كل نَتْن من حَمْأة وغيرها إذا ثُوِّرت ظهر ريحها وقذرها، ولقد علم الملك ومَن حضر أنَّه لم يكن بيني وبين الثور أمرٌ أضطغنه عليه ولا أبغيه به غائلة، وما كان يملك من ضرٍّ ولا نفعٍ لي، ولقد كان الملك — فيما أعلمتُه من أمره حتى أبصَر مِصداقه — أفضَلَ رأيًا وأشد عزمًا، وإني لأعرف أنه يتخوف مثلها منِّي غيرُ واحدٍ من أهل الغشِّ والعُدوان والعداوة للملك، فنصبوا لمصيبتي واجتمعوا على هلاكي.

فلما سمع الأسد قوله ارتاب به، فأخرجه وأمر بالفحص عنه ورفعِه إلى القضاة لينظروا في أمره، فسجد دمنة للملك وقال: أيها الملك، لستَ بحقيقٍ بمعاجلة أحدٍ بالعقوبة عن قول الأشرار دون الفحص والتثبُّت، وإني لواثقٌ عن فحصك ببراءتي وتصديق مقالتي، وقد قالت العلماء: إنَّ من استخرج النار من الحجر — وهي كامِنَةٌ فيه — كالقادر أن يستخرج بالفحص وطول البحث ما خفيَ عليه من الأمور، ولو كنتُ مُجرمًا سرَّني تركُك التفتيش عنِّي، ولَمَا كُنت مُرابِطًا بباب الملك، ولو كنتُ مذنبًا هربتُ في الأرض وكان لي فيها مذهب، ولكن — لثقتي وبراءتي ونصيحتي — لم أبرحه ولم أفارقه، وأنا أرغب إليه — إن كان في شك من ذلك — أن يأمر بالنظر فيه، ويكون من يولِّيه إياه ذا أمانة وإسلام،[٧] لا تأخذه في الحقِّ لومةُ لائم، ولا يكون عنده محاباة لأحدٍ ولا غمزُه، ويرفعُ إليه عذري وما يسمع من غيري فينظرُ فيه ولا يأخذه فيه أقاويل البُغاة عليَّ الحَسَدة لي؛ فإنه قد كانت لي منه منزلةٌ أنافَسُها وأُحسَد عليها، فإن هو لم يفعل ذلك فيَّ، ويكن رأيه عليه، فلا مؤمَّلَ لي ولا مَنجى إلَّا الله الذي يعلم سرائر العباد وخِفيَّ ضَمِيرهم. ولعلِّي ألَّا أكون بذلك أضرَّ منه، وقد كان يُقال: إنَّ الذي يعمل بالشبهة ولا يتَّئِد عندها ولا يتثبت

[٧] كلمة «إسلام» ليست في النسخ الأخرى، ولعلها من سهو واضع هذا الباب، وربما تعدُّ من الأدلة على أن هذا الباب موضوع في العربية ابتداءً (انظر المقدمة).

فيها يكون قد صدَّق ما ينبغي أن يشُكَّ فيه، وكذَّب ما ينبغي أن يُصدِّقه، فيكون أمره كأمر المرأة التي بذلت نفسها لعبدها حتى فضحها. قال الأسد: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: كانت بأرض كشمير مدينة تُسمى بَرود، وكان فيها تاجر يُقال له كَبِيرَغ،[٨] وكانت له امرأة ذات حُسن، وكان له جار مصوِّرٌ، وهو صديقٌ لها، فقالت له المرأة في بعض أحيانها التي كان يأتيها فيها: إن استطعتَ أن تصنع شيئًا يكون علامة بيني وبينك أطَّلع بها على مجيئك إذا جئتني بالليل من غير نداء ولا رمي ولا شيءٍ يُرتاب به، رفَق ذلك بك وبي، قال المصوِّر: نعم، مُلاءة بلقاء، بياضها كضوء القمر، وسوادها كسواد الحدقة، فإذا رأيتِها فاخرُجي فهي آيةٌ بيني وبينك. فأعجبها ذلك وفرحت به، وكان يأتيها في تلك الملاءة متى أراد، وسمع عبدُ التاجر حديثَ الملاءة، وكان لأَمةِ المصوِّر صديقًا، فطلب العبدُ إلى أَمَة المصوِّرِ أن تُعيره الملاءة التي له ليُريها صديقًا له ويُسرع ردَّها — وكان المصوِّر غائبًا في دار الملك — فأعطته إياها ولم تَرْتَبْ بشيءٍ من شأنه، فأخذها ومضى إلى سيدته ليلًا، فلم تَرْتَبْ به لمَّا رأتها عليه، فظنَّته صديقها المصوِّر فبذلت له نفسها، وقضى حاجته، ورجع العبد بها إلى الأَمة فوضعها في موضعها، ولما مضت هَدأة من الليل رجع المصوِّر إلى بيته فلبسها، ثم أتى المرأة، فلمَّا رأته دنت منه وقالت له: ما شأنك؟ لقد أسرعت العودة بعد قضاء حاجتك. فلمَّا سمع كلامها عرف أنه قد دُهيَ، ومضى من وقته إلى وليدته فأوجعها ضربًا، فحدَّثته الحديث فأخذ الملاءة فخرقها وأحرقها.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لئلا تعجل لأمر فيه تشبيه وكذب، فإنَّ الكذب مُعْنِتٌ لصاحبه، وأنتَ بالنظر في أمري جدير، ولست أقول ما تسمع شفقًا من الموت، فإنه — وإن كان كريهًا — لا مَنجى منه ولا مَحيص عنه، ولو كنتُ أعلم لي مائة نفس، أعلم هواه في تلفها، جُدتُ بها له، فقال بعض جلساء الملك: لم تنطق بهذا لحبِّ الملك ولا لكرامته عليك، ولكن ذلك للدفع عن نفسك، ولطلب الخلاص من الورطة التي قد لزمتك، والتماس العُذر مما وقعت فيه؛ فأقبل عليه دمنة فقال: إني إن كنتُ كما ذكرتَ، فلستُ أَجِدُني مخصومًا ولا ملومًا على دفع البلاء عن نَفسي ما استطعت، والتماسِ البراءة لها، وجرِّ العافية إليها، ولا أَحَد أقربُ إلى الإنسان من نفسه، ولا أولى بنصحها وإظهار عذرها منه،

[٨] في نسخة شيخو اسم المدينة: «تاثرون»، واسم التاجر: «حبل»، وليس في النسخ الأخرى العربية تسمية المدينة ولا التاجر، واسم التاجر في السريانية: «بكيزيب».

فأمَّا أنت فلك الويل بما أظهرت من ضعف عهدك وودِّك لنفسك وسوء حالها عندك وأنَّكَ عدوُّها فمَنْ دونَها أَوْلى، وقد قالت العُلماء: إنَّ المُستهجِن لنفسه المبغِض لها، لِغَيرها أشنأ وأقطع، ولمن سواها أَغَشُّ وأرفض، وما أنزِّه الملك عن صحبتك، بل أجدني منزِّهًا للبهائم عن أخلاقك، مكرمًا لها عن خلطتك. فلمَّا سَمِعَ ذلك من دمنة لم يُحِرْ جوابًا، فقالت أم الأسد: إنَّ من العجب انطلاق لسانك بالقول مُجيبًا لمن تَكلَّم، وقد كان منك الذي كان، فقال دمنة: فعلامَ تنظرين بعينٍ واحدةٍ وتسمعين بأُذُنٍ واحدةٍ؟ ولذلك شقي جَدِّي، مع أني أرى كل شيءٍ تغيَّر وتنكر، فليس أحدٌ ينطق بحقٍّ ولا يتكلم إلا بالهوى، ومن بباب الملك — لثقتهم بلينه وطُمأنينتهم إلى كرمه — لا يتقون ذلك فيما وافق الحقَّ أو خالفه؛ لأنَّه لا يغيِّر عليهم ولا يبدَهُهم ولا يزجُرهم؛ فقالت أمُّ الأسد: انظروا إلى هذا الفاجر الذي يركب الأمر العظيم، ثم هو يأخذ بأعين الناس ليُبطله ويُبرِّئ نفسه منه. قال دمنة: إنَّ صاحب ما ذكرتِ من يُذيع السرَّ ولا يدفنه، والرجل الذي يلبَس لباس المرأة، والمرأةُ التي تلبس لباس الرجل، والضيف الذي يزعم أنه ربُّ البيت، ومن ينطق في المجمع عند الملك بما لا يُسأل عنه؛ فقالت أُمُّ الأسد: أما تعرف سوء عملك فتحذَرَه، وتبصرُ غرَّة قولك فتَتَّقِيَها؟ فقال دمنة: إنَّ الذي يركب المنكر لا يُحب لأحدٍ خيرًا، ولا يدفع عنه مكروهًا. قالت أم الأسد: أيها الفاجر، إنك لتجترئ على مثل هذا القول عند الملك! عجبًا له كيف تركك حيًّا! فقال دمنة: إنَّ صاحب ما وصفتِ الذي يؤتى بالنصيحة، ويمكَّن من عدوه، فإذا استمكن منه قتله، ثم لا يشكر ذلك ولا يعرفه لمن فعله، ويُريد قتله بغير ذنب اجترمه. فقالت أم الأسد: أيها الكاذب، أترجو أن تنجو من ذنبك العظيم؟ فقال دمنة: إنَّ أهل ما ذكرتِ الذي يقولُ ما لم يكن، وإني نطقت بالحق، وجئت عليه بالثَّبَت والحُجَّة، فقالت أم الأسد: ما الذي كنتَ قلتَ، وما الذي صَدَقْتَهُ به؟ فقال دمنة: الملك يعلم أني لو كنت كاذبًا لم أَقُلْ هذه المقالة عنده، وإني أرجو أن يستبين له صدقي وبراءتي وصحة ما قلت؛ فلمَّا رأت أم الأسد أن الأسد لا ينطق بشيءٍ في أمر دمنة شكَّت في أمره وقالت: لعله مكذوب عليه فيما رُميَ به، فإنَّ المعتذر عند الملك بمحضر من الجند — لا يُردُّ عليه شيءٌ من منطقه — لَشبيه بأن يكون مُحِقًّا فيما تكلم به.

فأمر الأسد عند ذلك بدمنة فقُذِفت في عنقه جامعةٌ ثم حُبِس، وأمر بالنظر في أمره؛ فقالت أمُّ الأسد: لقد بلغني عن هذا الفاجر الكذَّاب شرُّ ما يُقال عن أحد، وتتابعت الألسن عليه، وهو له مُحيل، وليس يخفى أمره عليَّ، والذي ذكره لي الأمين الصدوق، فَلْيسترحْ

منه ولا يناظره، فقال الأسد: اسكتي عني واهدئي، فإني ناظرٌ في أمره وفاحصٌ عنه، وغيرُ عاجلٍ عليه، ولا أشتري ضرَّ نفسي باتباع هوى غيري ممن لا أدري ما صِدقه من كَذِبه، مَنِ الذي وصفتِ؟ فسمِّيه لي، فقالت أمُّ الأسد: هو خليلك ومؤدِّبُك وأمينك النمِر، فقال الأسد: بحَسبكِ! سترين ما أصنع به وآمرُ فيه، فانصرفي؛ فلمَّا ذهبت هدأةٌ من الليل بلغ كليلةَ أنَّ دمنة قد حُبِس واستُوثِق منه، فانطلق إليه يهمس همسًا، فلمَّا رآه موثقًا بكى بكاءً شديدًا، وقال: قد بلغ الأمر يا أخي إلى ما لا أبالي ألَّا أغلظ لك معه في الكلام، ولا أستقبلك بما تكره منه، وإنه ليخطر ببالي ما كنتُ أشير به عليك، ولقد كنتُ رأيتُ ذلك وأبلغتُ في الموعظة، فلم تقبل منِّي ولم تأخذ به لإعجابك برأيك، فويلٌ لحلمك وفطنتك! لقد ضلَّا عنك ونُزِعا منك وذهبا مع حياتك ضياعًا، فقال دمنة: إنك لم تَزَلْ تتكلم بالحقِّ وتأمر به، ولكن لم أسمع منك لما كان فيَّ من الشَّرَهِ والشهوة، ولِما كُتِب عليَّ من البلاء، ولولا ذلك كان فيما وعظتني به ما مِثلُه أنتهي إليه وأنتفع برأيك فيه، قالت العلماء: إنَّ الذي لا يسمع من إخوانه ونُصَحائه يصير أمره إلى النَّدامة، وقد حلَّ ذلك بي: ولكن ما عسيتُ أن أصنع؟ فإنَّ الحرص وطموح العين يغلبان رأي الحليم ونظر العالِم؛ كالمريض الذي قد عرف أنَّ شهوته من الطعام مُضِرَّةٌ به مُشدِّدةٌ للوجع عليه، فلا يدعُ تناولَها والإصابةَ منها، فيزدادُ مرضًا ولعلَّه يموتُ منه، ولستُ أحزَن اليوم على نفسي، ولكن عليك؛ لأني أخافُ أن تؤخذ فيَّ بسبب الذي بيني وبينك من القرابة، فتعذَّب فلا تجد من إطلاعهم على أمري بدًّا، فأُقتَل بإظهارك سرِّي وتصديقهم إياك عليَّ. فقال كليلة: قد فكَّرتُ في ذلك، وليس يُعدَل بالحياة شيء، وقد يُضطرُّ الرجل إذا نزل به البلاء إلى أن يقرِف نفسه بما لم يفعل ولم يعلم رجاءَ الحياة والتخفيف عنه، وقد قالت العلماء: إنَّه من أريدت مهجته لأمر يُسأل عنه، غيرُ مقتصر على ما كان، ولكنَّه قائل ما لم يكن إشفاقًا عليها، فالذي وَجلَت منه نفسُك عليَّ هو ما حاذرت، وقد طال مقامي عندك، وأنا منطلق خيفة أن يدخل أحد فيراني عندك أو يسمع تحاورنا مستمع، وأنا أُشير عليك أن تعترف بجُرمك وتبوح بذنبك، فإنك ميِّتٌ لا محالة، وإنك إن تُقتل في الدنيا بما كان منك خيرٌ لك من العذاب الدائم في الآخرة مع الأثَمَة الفُجَّار. قال دمنة: قد صدقت فيما ذكرت، ولكنَّ العمل به شاقٌّ، ولكني غيرُ مُجِيرٍ كلامًا حتى يُفرَق في أمري، ثم إنَّ كليلة انطلق إلى منزله فوقع في همٍّ وحَزَنٍ مخافةَ أن يؤخذ بذنب دمنة، فاستُطْلِقَ بطنُه فمات في ليلته.

وكان في السجن سَبُع، وكان نائمًا قريبًا من كليلة ودمنة حيث اجتمعا في السجن، فاستيقظ بكلامها، فسمع جميع ما تحاورا فيه وتراجعاه بينهما، فحفظ ذلك وكتمه.

ثم إنَّ أمَّ الأسد دخلت عليه من الغد، فقالت: اذكر الذي وعدتني البارحة في أمر هذا الفاجر، وقولك لجندك: إنه لينبغي للمرء أن يعمل بالتقوى ولا يتوانى في ذلك، وإني لا أعرف أمرًا أعظم أجرًا من الاستراحة منه، فإنَّه قد قالت العلماءُ: إنَّ المُعين لذي الآثام على خيانته شريكٌ له في أعماله، فأمَرَ الأسد النَّمِرَ والقاضي أن يجلسا ويدعوا بدمنة على رءوس الجند، ثم يسألا عنه، ويَرفعا إليه الذي يذكرون لهما منه[٩] وجوابه إياهم فيه، ولا يَدَعا من ذلك شيئًا إلَّا أنهياه إليه، فخرجا لذلك وجمعا الجند، وبعثوا إلى دمنة، فلمَّا أُتِيَ به توسَّط مَحفِلهم، فانتصب النمر قائمًا وجهر بصوته، وقال: قد علمتم، معشر الجند، ما دخل على الملك من التألُّم بقتل شتربة والتوجع له، ولم يَزَلْ مَهْمُومًا حزينًا وجِلًا أن يكون دمنة شَبَّه عليه في أمره، وأرهقه فيه مَيْنًا وباطلًا، وأَحَبَّ أن يستيقن ذلك، وقد نصبنا للنظر في أمرهما، فأنتم أحقُّ ألَّا تكتموه سرًّا ولا تدَّخِروا عنه نُصحًا، ولا تُخفوا عليه حرفًا، وليقُلْ كل امرئ منكم ما يعلم، فإنه لا يُحِبُّ أن يَفرُط بعقوبة أحد لِهَوًى منه أو لغيره في ذلك، من غير استيجاب منه للعقوبة.

فقال القاضي: انظروا ما يتكلم به الأمين فاتَّبعوه، وقد سمعتم الذي قيل لكم، فلا يكتُمَنَّ أحدٌ منكم شيئًا عَلِمه لثلاثِ خِلال: أمَّا واحدة فالصدق فيما استُشهِدتم به، وألا تجعلوا العظيم من الأمر في الحقِّ صغيرًا، ولا ينبغي لكم أن تكرهوا وقوع القضاء على ما وافقكم أو خالفكم، ولا تُصغِّروا منه شيئًا، وأيُّ عظيمٍ أعظم من ستر عورة من أَفْرَطَ الأخيارَ واستَزَلَّهُم بوَشْيِهِ وكيده؛ فالكاتم عليه غير بريءٍ من مضرَّة حِيلته، ولا بعيدٍ من أن يكون شريكًا له في عمله، فإنَّ يسير الحقِّ عظيم، وأفظع منه عند الله أن يُقتل بريء على غير ذنب لنميمةِ فاجرٍ كذَّابٍ. والثانية أنَّ عقوبة المذنب بذنبه مَقْمعة لأهل الرِّيبة، ومَصلحة للملك والرعية. والثالثة أنَّ الأشرار إذا قُتِلوا ونُفُوا من الأرض كان في ذلك راحةٌ للملك والرعية وصلاحٌ لهم. فليقُلْ كل امرئ منكم ما يعلم، كيما يكونَ القضاء في ذلك على الحق لا على الهوى والبغي، فرمَق بعضُهم بعضًا وأطرقوا مَلِيًّا لا يُحِيرون كلامًا؛ لأنهم لم يعلموا من أمره عِلمًا واضحًا يتكلمون به، وكرهوا القول بالظنون تخوُّفًا أن يفصِل قولهم حُكمًا، ويوجبَ قتلًا.

[٩] إن لم تكن «منه» محرفة عن «عنه» فهي ترجمة الكلمة الفارسية «أز» التي تأتي بمعنى من وعن، وتستعمل في مثل هذا التركيب [انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر)].

فقال دمنة: ما يُسكِتكم؟ ليَقُل كل امرئٍ منكم ما يعلم، واعلموا أنَّ لكل قُربة ثوابًا إمَّا عاجلًا وإمَّا آجلًا، ولا بدَّ أن تقولوا في أمري بعلمكم، وليعلمْ كل متكلمٍ منكم أنَّ منطقه في قولي حُكم في إحياء نفس أو موتها، واعلموا أنَّ من قال ما لم يَرَ، وادَّعى عِلمَ ما لم يعلم أصابه ما أصاب الطبيب الجاهل المتكلف. فقال له القاضي: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنَّه كان في مدينة من مدائن السند[١٠] طبيبٌ عالمٌ رفيقٌ فمات، فنظروا في كتبه؛ فكانوا ينتفعوا بها ويتعلمون منها، فأتاهم رجلٌ زعم أنه طبيب وأنَّ له رِفقًا ولم يكن كذلك، وكانت لملكهم ابنة كريمة عليه وكانت حامِلًا، فأصابها بَطَن فجعلت تُحسُّ الأعراض، فبعث الملك في طلب الأطباء فأتت رسله رجلًا منهم كان له علم على رأس فرسخ، فوجدوه قد عمِيَ فوصفوا له وجع ابنة الملك، فأمرهم أن يسقوها دواء يُقال له زامْهران، فرجعوا إلى الملك فأخبروه بذلك، فأمر أن يُطلب طبيب ليهيئ ذلك الدواء، فأتاه الرَّجل الجاهل فأخبره أنه عالمٌ عارفٌ بالأدوية وأخلاطها، فدعا الملك بالأسفاط التي فيها أدوية الطبيب، فوُضعت بين يديه، فأخذ من أحدها صرَّة فيها سمٌّ فجعل منها ومن غيرها زامْهران، فلمَّا رأى الملك سُرعة فراغه من ذلك ظنَّ أنه عالم، فأمر له بحلًى وكسوة حسنة، وسقى الجارية منه فلم تلبث أن تقطَّع أمعاؤها فماتت، وأمر أبوها فسُقيَ الطبيب من الذي صنع لها من الأدوية فهلك.

وإنما ضربتُ هذا المثل في جماعتكم كيلا تتكلموا بما لم تعلموا — تلتمسون به رضا غيركم — فيصيبَكم ما أصاب ذلك الطبيبَ الجاهل؛ فإنَّ العلماء قد قالوا: إنما جزاء كل أحدٍ بقوله وفعله، وأنا بريءٌ مما لُطِخت به، قائمٌ بين أيديكم؛ فتكلم سيد الخنازير[١١] إدلالًا بمنزلته من الأسد وأمِّه فقال: اسمعوا معشر الجند، وتفكَّروا فيما أقول لكم؛ فإن العلماء لم يَدَعُوا شيئًا من آيات الأسرار والأخبار إلَّا قد أثبتوه، وإنَّ علاماتِ الفجور في هذا الشقيِّ ظاهرةٌ، وقد طار له مع ذلك نَثَا سُوء؛ فقال عظيم الجند لرأس الخنازير: قد سمعنا ذلك، وقليلٌ من يعرفه، فأعلِمنا ما الذي رأيتَ في هذا البائس، فقام

[١٠] في النسخة السريانية الحديثة: «في مدينة ساحلية من مدن الحبشة»، ونسخة شيخو توافق نسختنا، وليس في النسخ الأخرى تسمية المكان.

[١١] في شيخو والسريانية: «فتكلم صاحب المائدة»، وفي ابن الهبارية: «الخباز»، وفي النسخ الأخرى: «سيد الخنازير»، واتفقت النُّسخ على أنه صاحب المائدة، ونحسب أنَّ عمله هذا قد يسَّر أن تحرَّف «الخنازير» إلى «الخبَّازين» والكلمتان مُتشابهتان خطًّا.

رأس الخنازير وأخذ بيد دمنة وقال: إنَّ في كتب العلماء أنَّ من كانت عينُه اليسرى صغيرة كثيرة الاختلاج، وأنفه مائلًا إلى شِقِّه الأيمن، وما بين حاجبيه من الشعر متباعدًا، ومنابت شعره ثلاث شعرات ثلاث شعرات، وإذا مشى نكَّس ولا يزال مُلتفتًا إلى خلفه، فإنه صاحب نميمة وفجور وغدر، وهذه العلامات كلُّها بيِّنة في هذا الشقي؛ فقال دمنة: نحن كلنا تحت السماء ولسنا فوقها، وأنتم ذوو الأحلام وتقيسون بالعلم الكلام، وقد فهمتهم ما قال فاستمعوا منِّي، فإنه يظن أنه لا أحدَ أعرفُ بالأمور منه، وأنه لا عِلمَ إلَّا عِلمُه، وإن كان ما ذكر من العلامات حقًّا، فلا أسمع أنَّ أحدًا يقدر على أن يعمل خيرًا ولا شرًّا إلَّا بها، وإنَّما تجازُون بذلك وتعاقِبون عليه، وليس لامرئ من رأيه شيء، فليس مُجتهدٌ وإن حرَص على الخير بنافعه حرصه، ولا مسيء وإن أذنبه بِضَائِره ذنبُه، وقد شقيتُ أنا بالعلامات التي في جسدي، وذلك أمرٌ ليس إليَّ إن كانت، وأعوذ بالله أن تكون، ولو كان إلى الناس من ذلك شيءٌ جعلوا فيه أفضل ما يقدرون من الآيات والشامات، ولم يكن مني غير العادة، ولم أركب غير الحقِّ، وقد استبان لمن حضرك قلةُ عقلك وعلمك بالأمور وبصرِك بها، وقد قال رجل مرة لامرأته: احفظي نفسك ثم اطعني على غيرك، ودعي الناس وأصلحي عيوبك التي أنتِ بها أعرف، وذلك مَثَلُك؛ فقال سيدُ الخنازير لدمنة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنه كان مدينة تدعى بَرزجِر[١٢] قد أغار عليها العدوُّ، فقتلوا الرجال وسَبَوُا النساء والذرية، فأصابَ رَجُل من أولئك في الغنيمة رجلًا حرَّاثًا وامرأتين له، فكان يُسيء إليهم في المطعم والمشرب ويُجيعهم ويُعريهم، فانطلق الرجل وامرأتاه ذات يوم يحتطبون، فوجدت إحداهما خِرقة بالية في الصحراء فغطت بها عورتها؛ فقالت الأخرى لزوجها: ألا تنظر إلى هذه الزانية تمشي عُريانة؟ فقال لها زوجها: ويحك ألا تنظرين أنت إلى نفسك؟ فإنَّ جسمك كله عارٍ، وتعيبين التي قد غطَّت عورتها.

وأنت أيضًا أيها المتكلم، أمُرك عَجَب حين تدنو من طعام سيدك وتقوم بين يديه، مع ما بجسمك من القذر والقبح والنتن واللؤم وما فيه من العيوب، ثم أن تجترئ أن تقوم بين يدي الملك وتلي طعامه، وقد علم عيوبك غيري من الجند، ولم يكن ينبغي لي

[١٢] اسم المدينة في نسخة شيخو: «بورخشت»، وليس في النسخ الأخرى تسمية المدينة، وفي النسخة العبرية «مَروات».

التكلم بها، إلَّا أنه لم يكن يضر أحدًا إكرامُه إياك، وكنتُ لك أخًا وقد كنتُ أحفظك لذلك، فأمَّا إذ باديتني بالعداوة ونطقتَ بالبهتان عليَّ من غير علم، فإنَّه لا ينبغي أن يكون صاحب السلطان دبَّاغًا ولا حجَّامًا، دع أن يكون بالمنزلة التي أنتَ بها منه، فقال رأس الخنازير: ألي تقول ما أسمع؟ فقال: نعم! حقًّا لك أقول، فإنك قد جمعت أنك آدَرُ مبسورٌ تحكُّ ذلك النهار كله، أفدَعُ متسايلُ الخلق خبيثه. فلما سمع ذلك رأس الخنازير وما رماه به، خنقته العَبرة فبكى لجُرأته عليه وإغلاظه له؛ قال له دمنة: إنه لينبغي أن تبكيَ وتُكثِر دموعك، فإنَّ الملك لو قد اطَّلع على أمرك وعلم الذي أنت عليه أقصاك وأبعدك، فلمَّا سمع ذلك أمينُ الأسد الذي أمره بحفظ ما يقولون — وكان اسمه شَهرَخ[١٣] — رفعه إليه، فعزل رأس الخنازير عن عمله، وأمر بإخراجه وإقصائه عنه.

وكتب النمر والقاضي ما قال دمنة وما قيل له، وختما عليه، وبعثا به إلى السجن.

ثم إنَّ صديقًا لكليلة يُقال له فَيروز[١٤] انطلق إلى دمنة فأخبره بموت كليلة، فبكى بكاءً شديدًا، وقال: ما أصنع اليوم بالحياة وقد هلك أخي وصَفِيِّي؟ لقد صدق القائلُ: إنَّ الإنسان إذا ابتُليَ أتاه الشرُّ من كل جانب، واكتنفه من الهمِّ والحزن مثل الذي بي، وقد رُزئت — مع ما دخل عليَّ — بمؤدِّبي ومُتعهِّدي بما فيه رشدي، وقد أبقى الله لي منك أخًا ليس بدونه، بل أرجو أن تكون أفضل منه عطفًا عليَّ ونظرًا لي، وأن تهتَمَّ في أمري بما يعتني به أخو الحفاظ، فإن رأيت أن تنطلق إلى منزل كليلة فتأتيني بما كان لي وله فيه فافعل، فلما جاء به أعطاه نصيب كليلة كله، وقال: أنت أحقُّ به من غيرك، وطلب إليه أن يَحضُره عند الأسد بخير، وأن يُعلِمه ما تذكرُ أمُّ الأسد منه[١٥] عنده، فوعده ذلك، وقبل ما أعطاه.

ثم إن فَيروز غدا إلى الأسد فوافق النمِرَ عنده والقاضي، قد أتياه بالكُتُب فوضعاها بين يديه، فنظر فيها وأمر كاتبه بنَسخِها ودفعها إلى النمر، وقال له وللقاضي: انطلِقا

[١٣] ليس في النسخ الأخرى تسمية هذا الأمين، وفي نسختَي اليازجي وطبارة والنسخ المصرية أنه «شعهر» كان الملك ائتمنه، وفي العبرية: «شهرج» ويظهر أن «شعهر» في النسخ الأخرى محرَّف عن هذا الاسم.

[١٤] في النسخة السريانية الحديثة والنسخ الأخرى: «رُوزبه» بدل «فيروز»، وهذا اختلافٌ جديرٌ بالنظر، فإنَّ ابن المقفع فيما يُقال كان اسمه «رُوزبه»، والظاهر أنه لا يستحسن وضع اسمه في مثل هذه القصة، فـ «فيروز» أقرب إلى الصواب من «روزبه» هنا. وقصة فيروز هذه ليست في نسخة شيخو.

[١٥] وهذا مثلٌ آخرُ من استعمال هذه العبارة: «يذكر منه»، وهي شبيهة بالتعبير الفارسي.



بدمنة فقِفاه للجُند، ثم ارفعا إليَّ ما يكون منه، وعُذرَه في ذلك؛ فلمَّا خرجوا من عند الأسد أتته أمُّه فقرأ عليها تلك الكتب، فقالت أم الأسد: لا تَجِدَنَّ عليَّ إن أنا أغلظت لك في القول، فإني لا أراك تعرف ما يضرُّك مما ينفعُك، أليس هذا ما كنتُ أنهاك عنه من استماع قول هذا الفاجر المحتال؟ فإنك إن استبقيته أفسد عليك جُندك وفرَّق ملأهم، وانصرفَتْ من عنده وهي غَضْبَى عليه، ثم إنَّ فيروز أتى دمنة فأخبره بذلك، فبينما هو في حديثه إذ أتاه رسولُ القاضي فانطلق به إليه، فقال عظيم الجند: قد علمتُ أمرك وتيقنتُه، وأتاني به مَن هو عندي أمين، وليس ينبغي لي أن أَسْأل عن شأنك ولا أنظر فيه سوى ما قد فحصت، فإنَّ العلماء قالت: إنَّ الله جعل لكل شيءٍ من أمر الآخرة عَلَمًا ومصداقًا في الدنيا دلَّت عليه أنبياؤه ورسله، ولولا ما أمرنا به الملك — لرأفته ورحمته بالرعية — لكان القضاء بيِّنًا عليك. فقال دمنة: إنَّ منطقك ليس بذي وجهٍ ولا رأفةٍ، ولا نظرٍ في أمر مظلوم، ولا طلبٍ للحق والعدل، ولكني أراك راكبًا لهواك، تريد قتلي ولم يستضئ

لك شيءٌ من أمري وما قُذِفتُ به، ولم أبلغ ثلاثَةَ أيامٍ بَعدُ، ولستَ بملومٍ بذلك عندي؛ لأنَّ الفاجر لا يُحِبُّ الصلاح وأهله، ولا من يعمل أعمال التقى؛ فقال القاضي: إنَّ حقًّا على الوالي أن يُجازِيَ المرء بصلاحه، ويَعرِفه له؛ لأنَّه أهلٌ لكل خيرٍ أُتي إليه، وأن يُنكِّل بالمجرم عن إساءته ويعذِّبه ويُعاقبه عليها؛ ليزداد أهلُ الخير في الصلاح رغبة، وأهل الجرائم عن الإساءة نُزوعًا، ولَعَمْرِي لَأَنْ تُعاقب في الدنيا خيرٌ لك من أن تُعذَّب في الآخرة غدًا، فأقِرَّ بذنبك، وبُؤْ بإساءتك، واعترِف بصنيعك؛ فإنه أفضل لك في عواقب الأمور إن أنت هُدِيت إلى ذلك ووُفِّقت له. فقال دمنة: أيها القاضي الصالح، نطقت بالعدل، وقلت مقالة الحكماء، ولعمري إنَّ من سعادة المرء ألَّا يبيع آخرته بدنيا فانية منقطعة، ولا يشتري رَوْحًا يسيرًا بعذابٍ طويل، ولكنِّي مما قُرفتُ به بريء، فكيف آمُر بقتل نفسي وأُعِينُ عليها وأنا مظلوم، بل أنطق بكذب لم أتفوه به ولم يُعرف مني؟ فشديد عليَّ أن أقِرَّ بما لم أعمل، وأن أبوء بما لم أجْنِ، فأكونَ مُعينًا على نفسي، وشريكًا لمن أراد قتلي، فإنك تعرف عِقَاب مَن فعل ذلك في الآخرة، وأنا بريءُ العِرض، بارِز العُذر، فإن أردتم قتلي مظلومًا فكفى بالله ناصرًا، ولعل ذلك — إن فعلتموه — ألَّا يكون شرَّ أموري لي عاجلًا وآجلًا، فأنا أقول اليوم مثل مقالتي أمس: اذكروا حساب الآخرة وعقابها، ولا تأسفوا غدًا إذا دخلتم اليوم في أمر تندمون عليه حين لا تنفع الندامة؛ فإنَّ القضاة لا تقضي بظنونها، وأنا أعلم بنفسي منكم، وإياكم أن يُصيبكم ما أصابَ القائلَ بما لا يعلم، وما لم يُحِطْ به خُبْرًا.

فقال عظيم الجنود والقاضي: وكيف كان ذلك؟ فقال دمنة: زعموا أنه كان مَرزبان في مدينة فاروات،[١٦] وكانت له امرأة حسناء عاقلة، وكان للمرزبان عبدٌ بازيار،[١٧] وقد هَوِيَها وعَرَّض لها مِرارًا، كل ذلك لا تلتفت إليه، فأضمر في نفسه فضيحتها، فخرج ذات يوم إلى الصيد فصاد فرْخَيْ ببَّغَاء، فهيَّأ لهما وَكرًا، وجعل يعلِّم أحدهما أن يقول: «رأيتُ البوَّابَ مضاجعًا مولاتي»، وعلَّم الآخر أن يقول: «أمَّا أنا فلستُ بقائلٍ شيئًا»، فحفظ الفرخان ذلك بلسان البَلْخيَة، ولم يكن أهلُ تلك البلاد يعرفونها، فلمَّا كان ذات يوم ومولاه يشربُ إذ أتاه بهما، فصاحا بِتَيْنِكَ الكلمتين بين يديه، فأعجب المرزبان ترجيعُهما

[١٦] في السريانية: «مازَرب»، وليس في النسخ الأخرى تسمية المدينة، والقصة كلها ناقصة في شيخو.

[١٧] «البازيار» كلمة فارسية معناها القائم على البزاة المعدَّة للصيد.

ما قالا بأصواتهما — من غير أن يكون فَقِه شيئًا مما قالاه — وأمر امرأته بالاحتفاظ بهما والإحسان إليهما، وألطف الغلام وأحسن إليه، ومكثا عنده زمانًا.

ثم إنه قدم عليه أناسٌ من عظماءِ أهل بلخ، فصنع لهم طعامًا وشرابًا، فلمَّا أصابوا من ذلك دعا بالفرخين ليُعجِّبهم منهما، فصوَّتا، فلمَّا سمعوا صياحهما نظر بعضهم إلى بعضٍ ونكَّسوا رءوسهم حياءً منه، ثم قالوا له: هل تعلم ما يقولان؟ فقال: لا، غير أنَّ ذلك لي مُعجِب، فقال بعضهم له:[١٨] لا تَجِدْ علينا إن حدَّثناك به، فإنَّ أحدهما يزعم — بلسان البلخية — أنَّ البواب يَفجُر بامرأتك، وأمَّا الآخر فيقولُ: «أمَّا أنا فلست بقائل شيئًا»، وإن من شأننا ألَّا نُصيب في بيت امرئٍ — امرأتُهُ فاجرةٌ — طعامًا، فنادى البازيارُ من خارج: أنا أشهد على مقالتهما أنها حق، وأنِّي قد رأيتُ ذلك غير مرة، فأمر المرزبان بقتل امرأته، فأرسَلَت إليه أن افحص عمَّا ذُكِر لك، فسيبدو لك مَنِ الفاجر الكذَّاب؟ ومُرْ هؤلاء العظماء فليسألوهما ولينظروا هل يعلمان أو يُحسنان من لسان البلخية غير هاتين الكلمتين، فتعلموا أنَّ ذلك من تعليم البازيار؛ لأنَّه أرادني على نفسي فامتنعت منه، ففعل ذلك، فكلَّمُوهُما فإذا هما لا يُحسِنان غيرهما، فعرفوا أنَّ ذلك من تعليم البازيار، فأرسل إليه فأتاه وعلى يده بازٍ، فقالت له المرأة: ويلك! أنت رأيتني على ما قذفتني به؟ قال: نعم! فوثب البازي عليه فنزع عينيه بمخالبه؛ فقالت المرأة: لقد عجَّل الله لك النكال بكذبك عليَّ، فإنك زعمت أنك عاينت ما لم ترَ، وشهدتَ عليَّ بزورٍ وباطلٍ.

وإنما ضربتُ لكم هذا المثل لتعلموا أنَّ من عمل بمثلِ ما عمل به البازيار من الافتراء والبهتان كان جزاؤه العقوبةَ في العاجل والآجل.

ثم إنَّ القاضي كتب ما قيل لدمنة، وما ردَّ عليهم، وأرسل به إلى السجن، وانطلق عظيم الجند إلى الملك، وتفرَّق سائرهم، وُحبِس دمنة بعد ذلك سبع ليال يتكلم بعذره، فلم يقدروا أن يقرِّروه بشيءٍ من ذنبه، ولا يخصموه فيه.

ثم إنَّ أمَّ الأسد قالت له: لئن أنت خلَّيت سبيل دمنة — بعد الذي ارتكب من الذنب العظيم — ليجترِئن عليك جندُك، ولا يتخوفُ منهم أحد — في فظيع يرتكبه — عقوبَتك، ولينتشرنَّ أمرُك بما لا تطيق لمَّ شَعثه، ولا شَعْب صَدعِه، ولا رَتْق فَتقِه، وأحضرَت النَّمِر فشهد على دمنة بما سمع منه ومراجعة كليلة إياه.

[١٨] في النسخ الأخرى أنَّ صاحب الدار سأل الضيوف عمَّا يقول الببغاوان فامتنعوا أن يخبروه، فألحَّ عليهم حتى أخبروه، والنسخة السريانية الحديثة توافق نسختنا.

وَلَّمَا شهد النَّمِر بذلك أرسل السبع المسجون — الذي سمع قول كليلة لدمنة ليلة دخل عليه في السجن — أن عندي شهادة فأخرجوني لها، فبعث إليه الأسد، فشهد على دمنة بما سمع من قول كليلة وتوبيخه إياه بدخوله بين الأسد والثور بالكذب والنميمة حتى قتله الأسد، وإقرار دمنة بذلك.[١٩] فلمَّا كرَّرت أم الأسد ذلك عليه وكلَّمته فيه ووقع في نفسه أنَّ دمنة حمله على زَيغٍ وأوطأه عَشوة أمر به فقُتِل شرَّ قِتلة.

ثم قال الفيلسوف للملك: فلينظر أهل التفكر في الأمور في هذا وأشباهه، وليعلموا أنه مَن يلتمس منفعةَ نفسِه بهلاك غيره — ظالِمًا له بخديعةٍ أو مكرٍ أو خِلابةٍ — فإنه غيرُ ناجٍ من وَبالِ ذلك عليه وعاقبته ومغبَّته، وأنه مُكافأٌ به ومَجزِيٌّ بما عمل عاجلًا وآجلًا، وصائرٌ إلى البوار على كل حال.

[١٩] من قوله: «ولَّمَا شهد النمر» إلى قوله: «فلمَّا كررت أم الأسد» منقول من نسخة شيخو، وهو موافق للنُّسخ كلها، وهو مقتضى سياق القصة، فقد أراد واضعها أن يأتي بشاهدين على إقرار دمنة بذنبه، ولذلك نجد في النسخ الأخرى أنَّ الأسد سأل النمر والسبع: ما منعكما من الشهادة؟ فاعتذرا بأنَّ شهادة الواحد لا توجبُ حكمًا، وفي نسخة شيخو أن الذي سُئِل هذا السؤال هو السبع المسجون وحده.

باب الحمامة المطوقة

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ مَثَل المتحابَّيِن يقطع بينهما الكذوب الخائن النمَّام، وما يصير إليه أمرُه، فأخبرني عن إخوان الصفاء كيف يبدأ تواصلهم، ويستمتع بعضهم ببعض.

قال الفيلسوف: إنَّ العاقل لا يَعدِل بصالح الأعوان شيئًا من الُعقَد والمكاسب؛ لأنَّ الإخوان هم الأعوان على الخير كله، والمواسون عندما ينوب من مكروه، ومن أمثال ذلك مَثَل الحمامة المطوَّقة والظبي والغراب والجُرَذ والسُّلَحفاة؛ قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض دستاد، عند مدينة يُقال لها: «ماروات»،[1] مكان للصيد يتصيَّد فيه الصيادون، وكان في ذلك المكان شجرة عظيمة كثيرة الغصون مُلتفة الورق، وكان فيها وَكرُ غُراب يُقال له حائر.[2] فبينما الغراب ذات يوم واقف على الشجرة إذ بَصُر برجل من الصيَّادين قبيحِ المنظر سيئ الحال، وعلى عُنُقه شبكة، وفي يده شَرَك وعصا، وهو مُقبِل نحو الشجرة، فذُعِر الغراب منه وقال: لقد ساق هذا الصياد إلى ههنا أمرٌ، فما أدري ما هو! أَلِحَيْني أم لِحَيْنِ غيري؟ ولكني ثابتٌ على كل حال، وناظرٌ ما يصنع؛ فنصب الصيَّاد شبكته ونثر فيها حبَّه وكمَن قريبًا، فلم يلبث إلَّا قليلًا حتى مرَّت

[1] في النسخ الأخرى: «أرض سكاوندَجين، عند مدينة داهر»، وقد وقع في النسخ العربية والسرياية تحريفٌ كثيرٌ في هذين الاسمين، وأصلهما في السنسكريتية: «دكشيناباتا» و«ماهِلاروبيا» (انظر مقدمة النسخة السريانية لرَيْت The Book of Kalilah and Dimnah P. XVIII)، وليس في شيخو تسمية الأرض ولا المدينة.

[2] ليس في النسخ الأخرى تسمية الغراب.

به حمامة يُقال لها المطوَّقة — وكانت سيدة الحمام — ومعها حمام كثير، فرأت الحبَّ ولم ترَ الشبكة، فانقضَّت وانقضَّ الحمام معها، فوقعن في الشبكة جميعًا، وجعلت كل حمامة منهنَّ تضطرب على ناحيتها وتعالج الخلاص لنفسها، فقالت المطوَّقة: لا تَخاذَلن في المُعالجة، ولا تَكُنْ نفسُ كل واحدة منكنَّ أهمَّ إليها من نفس صاحبتها، ولكن تعاونَّ فلعلنا نَقلع الشبكة فيُنجي بعضُنا بعضًا، ففعلن ذلك فانتزعن الشبكة حين تعاونَّ عليها، وطِرْنَ بها في عُلوِّ السماء، ورأى الصيادُ صنيعهنَّ فأتبعهنَّ يطلبهنَّ، ولم يَقطع رجاءه منهن وظنَّ أنهنَّ لا يطِرن إلَّا قريبًا حتى يقعنْ، وقال الغرابُ: لأُتبِعهنَّ حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرُهنَّ وأمرُه، والتفتت المطوقة فلما رأت الصياد يقفوهنَّ قالت للحمام: ها هو ذا جاء يطلبكنَّ، فإن نحن أخذنا في الفضاء لم يَخْفَ عليه أمرنا، ولم يزل يُتبِعنا، وإن نحن أخذنا في الشجر والعُمران لم نلبث أن يَغبَى عليه أمرُنا، ولم يزَل يُتبِعنا حتى ييأس منَّا فينصرف، ومع ذلك إنَّ قريبًا من الطريق جُحْر جُرَذ، وهو صديقٌ لي، فلو انتهينا إليه لقطع عنَّا هذه الشبكة وخلَّصنا منها.

ففعل الحمام ما أمرتهنَّ به المطوَّقة، وخَفِين على الصياد فأيس منهنَّ وانصرف، وثبت الغراب على حاله لينظر هل للحمام من حيلة للخروج مما هنَّ فيه فيتعلَّمها، وتكون عُدَّة لنفسه إن وقع في مثلها. فلمَّا انتهت المطوَّقة إلى مكان الجرذ أمرت الحمام بالنزول فوقعن، ووجدت الجرذ قد أعدَّ مائة جُحر للمخاوف، فنادته المطوَّقة باسمه — وكان اسمه زيرَك[3] — فأجابها من الجحر وقال: مَن أنت؟ فقالت له: خليلتك المطوَّقة، فخرج إليها مُسرعًا، فلمَّا رآها في الشبكة قال لها: يا أختي، ما أوقعك في هذه الورطة وأنتِ من الأكياس؟ قالت له: أما تَعلم أنه ليس من الخير والشر شيءٌ إلَّا وهو محتوم على من يُصيبه بأيَّامه وعِلَله ومُدَّته وكُنْهِ ما يُبتلَى به من قِلَّته وكَثرته؟ فالمقادير هي التي أوقَعَتني في هذه الورطة، ودلَّتني على الحَبِّ، وأخْفَت عليَّ الشبكة حتى لججتُ فيها وصُوَيحباتي، وليس أمري وقلة امتناعي من القدَر بعَجَب؛ لأنَّ المقادير لا يدفعها من هو أقوى مني، أما تعلم أنَّ بالقدر تُكسَف الشمس والقمر، وتُصاد السمكة في البحر الذي لا يسبح فيه أحد، ويُستَنزل الطير من الهواء إذا قُضيَ ذلك عليهم، والسبب الذي يُدرِك به العاجز حاجته هو الذي يحول بين الحازم وحاجته. ثم إنَّ الجُرَذ أخذ في تقريض العُقَد

[3] «زيرك» بالفارسية: الذكي، واسم الفأر في الأصل الهندي: «هِرَنياكا».

التي كانت فيها المطوَّقة، فقالت له: ابدأ بتقريض عُقَد سائر الحمام قَبْلي وانصرِف إليَّ؛ فأعادت ذلك عليه مرارًا — كلُّ ذلك لا يلتفت إلى قولها — فلمَّا ألحَّت عليه قال لها: قد كرَّرتِ عليَّ هذه المقالة كأنَّك ليس لك في نفسك حاجة، ولا تَرَين لها عليكِ حقًّا، فقالت له المطوَّقة: لا تَلُمني على ما سألتك، فإني قد كُلِّفت لجماعتهنَّ بالرياسة، فحقٌّ ذلك عليَّ عظيم، وقد أدَّين إليَّ حقِّي في الطاعة والنصيحة، بمعونتهنَّ وطاعتهنَّ، وبذلك نجَّانا الله من الصيَّاد، وإني تخوَّفت — إن أنت بدأت بقطع عُقدتي — أن تملَّ وتكِلَّ ويبقى بعضُ مَن معي، وعرَفت أنك إن بدأت بهن وكنتُ أنا الأخيرة لم تَرْضَ — وإن أدرَكك الكَلال والفتور — حتى تُخلِّصني مما أنا فيه؛ فقال لها الجرَذ: وهذا أيضًا مما يزيد أهل موَدَّتك فيك رغبة، وعليك حِرصًا؛ وأخذ في قَرض الشبكة حتى فرغ منها، وانطلقت المطوقة والحمام راجعات إلى أماكنهنَّ.

فَلمَّا رأى الغراب صُنع الجُرَذ وتخليصَه الحمام، رغب في مصادقته، وقال: ما أنا بآمنٍ أن يُصيبني ما أصابهنَّ، ولا أنا عن موَدَّة الجرذ بغَنِيٍّ، فدنا من جُحره وناداه باسمه، فقال له: مَن أنت؟ قال: أنا الغراب، كان من أمري كيت وكيت، فلمَّا رأيتُ وفاءك لأصدقائك رغِبتُ في إخائك، وجئت أطلب ذلك منك؛ فقال الجرذ: ليس بيني وبينك سبيلُ تواصُل، وإنما ينبغي للعاقل أن يلتمس من الأمور ما يرجو دَرَكه، ويترك طلب ما لا يقدر عليه؛ لئلا يُعَدَّ جاهلًا، كرجل أراد أن يُجريَ السفُن في البرِّ، ويجُرَّ العَجَل على الماء، وليس إلى ذلك سبيل، وكيف يكون بيننا سبيلُ تواصُل! وإنما أنا لحم وأنت آكلُ لحم فأنا لك طُعم! قال الغراب: اعتَبِر بعقلك: إنَّ أكلي إياك — وإن كنت طعامًا لي — لا يُغني عنِّي شيئًا، وإنَّ في بقائك وموَدَّتك أُنسًا لي، واعتبِر بما جرَّبت طول الدهر، هل تجِد مَن يبيع منفعته بمضرَّته على عِلم منه بذلك؟ وإني لم أرغَب فيك — إذ رغبتُ — إلَّا لنفسي والمنفعة لها، فإنَّ بقاءك لي فيه منفعةٌ من نائبة أو نازلة تنزل بي، وأنت حقيقٌ — إذ رغبتُ فيك — ألَّا تُبعدني من نفسك ولا تنازِعَك النفس إلى سوء الظنِّ مع ما أسوِّغك من نفسي، وأوَثِّق لك من عهدي، وقد ظهر منك جميل الخُلُق، وذو الفضل لا يخفَى فضله — وإن هو أخفاه وكتمه بجهده — كالمسك الذي يُخفى ويُكتَم، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح، فلا تُغيِّرنَّ عليَّ ودَّك، ولا تمنعني خُلَّتك. فقال الجرذ: إنَّ أشدَّ العداوةَ عداوةُ الجوهر، وهي ضربان: منها عداوة من يجتزيان على ذلك كعداوة الأسد والفيل، فإنَّه رُبَّما قتل الأسدُ الفيلَ، ورُبَّما قتل الفيلُ الأسدَ، والأخرى إنما ضررها من أحد الجانبين على الآخر، كعداوةِ ما بيني وبين السِّنَّوْر، وبيني وبينك، وليست لضرٍّ منِّي عليكم، ولكن

للشقاء الذي كتب الله عليَّ منكم، وليس من عداوة الجوهر صُلح إلَّا ريثما يعود إلى العداوة، وليس صُلح العدوِّ بموثوق به، ولا مركون إليه، فإنَّ الماء إن هو أُسخِن بالنار وأُطيلَ إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفاء النار إذا صُبَّ عليها، ولا تمنعه سخونته من الرجوع إلى أصل جوهره، وليس ينبغي للعاقل أن يغترَّ بصلح العدوِّ ومصاحبته، فإنه يكون كصاحب الحيَّة الذي وجدها وقد أصابها البَرد، فأخفاها في كُمِّه، فلمَّا دَفِئ النهار عليها ووجدت سخونة الثياب، تحرَّكت فنهشته، فقال لها: أهذي مكافأتي على جميل فعلي بك وصنيعي إليك؟ فقالت له: هذا لي دأبٌ وعادةٌ وخُلُقٌ وطِباعٌ، وأحمق الناس المُريد لإزالة شيءٍ عن أصله وطباعه إلى غير أسِّه وجوهره، ولا يستأنس العاقل إلى عدوِّه الأريب، بل ما يستوحش منه أكثر. قال الغراب: قد فهمت ما تقول، وأنت حقيقٌ أن تأخذ بفضل خليقتك، وتعرف صدق مقالي، ولا تُصَعِّب الأمور عليَّ بقولك: ليس لنا إلى التواصل سبيل، فإنَّ العقلاء الكُرماء يبتغون إلى كل معروف ووُصلة سبيلًا، والمودَّة بين الصالحين سريعٌ اتصالها بطيءٌ انقطاعها، ومَثَل ذلك مَثَل كوز الذَّهب الذي هو بطيء الانكسار سريع الإعادة والصلاح إن أصابه ثَلْم أو وَهَن، والمودَّة بين الأشرار سريعٌ انقطاعها، بطيءٌ اتصالها، كالإناء من الفخار مكسره أدنى شيء ثم لا وَصل له أبدًا، والكريم يودُّ الكريم على لَقية واحدة ومعرفة يوم فقط، واللئيم لا يصل أحدًا إلَّا عن رغبة أو رهبة، وأنت كريم، وأنا إلى وُدِّك محتاج، وأنا لازمٌ بابك وغيرُ ذائقٍ طعامًا ولا شرابًا حتى تؤاخيني.

فقال له الجرذ: قد قبلتُ إخاءك، فإنِّي لم أردَّ أحدًا عن حاجةٍ قط، وإنما ابتدأتُك بما سمعت إرادة الإعذار إلى نفسي، فإن أنت غدرت بي لم تقُل: وجدت الجرذ ضعيفَ الرأي سريع الانخداع، ثم خرج إليه من جُحرِه فأقام عند بابه، فقال له الغراب: ما يحبِسك ويمنعك من الخروج إليَّ والأنس بي؟ أوَ في نفسك رِيبةٌ منِّي بعد؟ فقال الجرذ: إنَّ الإخوان أهلَ الدنيا يتعاطون بينهم أمرين ويتواصلون عليهما: ذاتُ النفس وذاتُ اليد، فأمَّا المتعاطون ذات النفس فهم المتعاونون المتصافون، يستمتع بعضهم ببعض، وأمَّا المتعاطون ذات اليد فهم المتعاونون المستمتعون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض، ومَن كان إنما يصنع المعروف ابتغاء الأجر والاكتساب لبعض شُئون الدنيا، فإنما مَثَله — فيما يُعطِي ويبذل — مثل الصياد وإلقائه الحبَّ للطير، لا يريد بذلك منفعتهنَّ بل يريد بذلك نفع نفسه، فتبادُل ذاتِ النفس أفضلُ من تبادل ذات اليد، وإني قد وثقتُ بذات نفسك ومنحتُك مثلَ ذلك من نفسي، وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظنٍّ مني بك، ولكن قد عرفت أنَّ لك أصحابًا جوهرهم كجوهرك، وليس رأيهم فيَّ كرأيك، وأنا

أخاف أن يراني بعضهم فيُهلكني. قال الغراب: إنَّ من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقًا، ولعدوِّ صديقه عدوًّا، وليس لي بصاحب ولا أخ من لم يكن لك مُحِبًّا ولا فيك راغبًا، وقد تهون عليَّ قطيعةُ مَن كان عدوًّا لك، فإنَّ صاحب الجِنان إذا نبت في جنانه ما يُفسِدها ويضرُّها اقتلعه وقذف به.

ثم إنَّ الجرذ خرج إلى الغراب فتصافحا وتصافيا وتصادقا، وأنِس كل واحدٍ منهما إلى صاحبه حتى أتت عليهما أيَّام، فقال له الغراب: إن جُحرك قريبٌ من طريق الناس، وأنا أخشى أن يَرموني فأعطَب، وقد عرفتُ مكانًا ذا عُزلة وخِصب من السمك والماء، ولي فيه صديق من السلاحف، وأنا أُريد أن أنطلق إليه وأعيشَ معه آمنًا مطمئنًا، فقال الجرذ: وأنا أذهب معك، فإني لمكاني هذا كاره، فقال الغراب: وما يُكَرِّهه إليك؟ فقال الجرذ: إنَّ لي أخبارًا وقصصًا سأُسِرها إليك لو قد انتهينا إلى حيث تريد؛ فأخذ الغراب بذَنَب الجرذ فطار به حتى دنا من العين التي فيها السلحفاة، فلمَّا رأت الغراب ومعه جرذ ذُعِرت منه ولم تعلم أنه صاحبها، فغاصت في الماء، فوضع الغراب الجرذ على الأرض ووقع على شجرة قُربها ونادى السلحفاة باسمها، فعرفت صوته، فخرجت إليه ورحبت به وسألته من أين أقبل، فأخبرها بسببه حين تبع الحمام وحضوره أمرَهنَّ، وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها، فعجبت السلحفاة من عقل الجرذ ووفائه، ودنت منه ورحبت به، وقالت له: ما ساقك إلى هذه الأرض؟ فقال الجرذ: رغبتُ في صحبتكم والإقامة معكم.

ثم إنَّ الغراب قال للجرذ: أرأيتَ الأخبار والقِصص التي زعمت أنك مُسِرُّها إليَّ، حدِّث بها الآن واقصُصها عليَّ، فإنَّ السلحفاة منك بمنزلتي؛ فقال الجرذ: كان أولُ منزلي في مدينة يقال لها ماروت،[٤] في بيت رجلٍ من النسَّاك لم يكن له عيال، وكان يؤتى كل ليلة بسلَّةٍ من طعام، فيتعشَّى منه ثم يضعُ فيها بقيته ويُعَلِّقها، فأرصُده حتى يخرج ثم آتي إليها فلا أدع فيها شيئًا إلَّا أكلته ورميتُ به إلى الجرذان، فجَهِد النَّاسك مرارًا أن يجعلها في مكان لا أناله، فلم يقدر على ذلك، ثم إنَّ الناسك نزل به ضيفٌ ذاتَ ليلة فأكلا

[٤] ليس في شيخو وابن الهبارية تسمية المدينة، وفي السريانية: «مازرب»، ويرى رَيْت أنها محرَّفة عن «مهراروب» أو «ماهِلاروبيا» التي تقدمت في رقم (١) من هذا الباب، وفي النسخة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد: «مدينة نيشابور»، وظاهرٌ أنه تغييرٌ من النُّسَّاخ. يقارن هذا الاسم بفاروات [انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر)]، وماروات [انظر: باب الحمامة المطوقة (الناشر)].

جميعًا حتى إذا كانا عند الحديث قال الناسك للضيف: من أي أرضٍ أنتَ؟ وأين وجهك الآن؟ وكان الضيفُ رجلًا قد جال الآفاق ورأى الأعاجيب، فأنشأ يحدِّثه عما وطئ من البلدان ورأى من الأمور، فجعل الناسك يصفِّق بيديه أحيانًا ليُنفِّرني عن السلة، فغضب الضيف من ذلك، وقال: أنا أحدِّثك وتهزأ بي وتصفِّق بيديك! فما حَمَلك على أن تسألني وأنت تفعل هذا؟ فاعتذر إليه وقال: إني لم أرتَبْ بحديثك — وقد لذَّ لي — ولكن كنتُ أفعل الذي رأيت لأُنفِّر جُرَذًا في البيت لستُ أضَع فيه طعامًا إلَّا أكله، وقد شقَّ عليَّ ذلك، فقال له الضيف: أجرَذ واحد هو أم جُرْذان كثيرة؟ فقال الناسك: جرذان البيتِ كثيرة، وفيها واحدٌ هو الذي قد آذاني وبرَّح بي، ولا أستطيع له حيلة. فقال له الضيف: ما هذا إلَّا لشيءٍ، وإنَّه ليُذكِّرني قولَ الرجل الذي قال: لأمرٍ ما باعت هذه المرأة السمسم المقشور بغير المقشور، قال الناسك: وكيف كان ذلك؟ فقال الضيف: نزلتُ مرَّة برجل بمدينة كذا وكذا، فتعشينا جميعًا ثم فرش لي وانصرف إلى مضجعه مع صاحبته — وكان بيني وبينها خُصٌّ من قَصَب — فسمعتُ الرجل يقول لامرأته: إني أريد أن أدعو غدًا رَهْطًا يأكلون عندي. فقالت: وكيف تفعل ذلك وليس لك في بيتك فضلٌ عن عيالك، وأنت رجل لا تُبقِي شيئًا ولا تدَّخره؟ فقال لها: لا تندمي على شيءٍ أطعمناه وأنفقناه، فإنَّ الجمع والادِّخار ربما كان عاقبةُ صاحبهما كعاقبة الذئب؛ قالت المرأة: وكيف كان ذلك؟ قال الزوج: خرج رجلٌ من القُنَّاص غاديًا بفرسه ونُشَّابه يلتمس الصيد، فلم يُجاوِز بعيدًا حتى رمى ظبيًا فأصابه، وحمله ورجع مُنصرفًا يريد منزله، فعرض له في طريقه خنزير فحمل عليه، فوضع الرجلُ الظبي وأخذ القوس ورماه بالسهم فأنفذه، وأدركه الخنزير فضربه بنابه ضربة أطارت القوس والنشَّاب من يده، فوقعا جميعًا مَيْتَين، فأتى عليهما ذئب، فلمَّا رآهما وثق بالخِصب في نفسه، وقال: ينبغي أن أدَّخر ما استطعت، فإنَّه مَن فرَّط في الجمع والادِّخار فليس بحازمٍ، وأنا جاعلٌ ما وجدتُ كنزًا، ومكتفٍ يومي هذا بوتَر القوس، فدنا منه ليأكله، فلما قطع الوتر طارت القوس فأصابت سِيَتها مقتلًا من جوفه فمات.

وإنما ضربتُ لكِ هذا المثل لتعلمي أنَّ الحرص على الجمع والادِّخار وخيمُ العاقبة؛ فقالت له المرأة: نِعِمَّا قلتَ، وعندي من الأرز والسمسم ما فيه طعام لستَّة رَهْط أو سبعة، وأنا غَادية على صنيعه، فادعُ من أحببت غدًا، وأخذت — حين أصبحت — في قَشر السمسم، فبسطته في الشمس ليجفَّ، وقالت لزوجها: اطرُد عنه الطير والكلاب، وأسرعَت لصنيعها، فغفل الرجل عنه وذهب لبعض شأنه، وذهب كلب لهم إليه فأكل

منه، فبصُرت به المرأة فقذرته وكرهت أن تصنع منه طعامًا، فانطلقت إلى السوق به وأخذت به سمسمًا غير مقشور مِثلًا بمِثْل، وأنا أُبصِر ذلك، فسمعتُ رجلًا يقول: لأمرٍ ما أعطت هذه المرأة سمسمًا مقشورًا بغير مقشور، وكذلك قولي في هذا الجرذ الذي ذكرتَ أنه يثب في السلَّة حيث تضعها دون أصحابه، إنه من عِلة قَوِيَ على ما ذكرتَ منه، فالتمس لي فأسًا لعلِّي أحفِر جُحره وأطَّلع على بعض شأنه؛ فأتاه الناسك بفأس — وأنا حينئذ في جُحر غيري أسمُع كلامَهما — وكان في جُحري ألفُ دينار لم أدرِ مَن كان وضعها فيه، فكنت أفترشها وأفرح بها وأعِزُّ بمكانها وأتقلَّبُ عليها، وإن الضيف احتفر الجُحر حتى انتهى إليها فاستخرجها، وقال: ما كان يقوى هذا الجرذ على الوثوب حيث كان إلَّا بمكان هذه الدنانير، فإنَّ المال جُعِل زيادة في القوَّة والرأي، وسترى أنه بعد اليوم لا يقوى ولا يستطيع ما كان يصنع، ولا يكون له فضل على سائر الجرذان، فعرفت أنه قد صدق، وأحسست في نفسي ضُعفًا ونُقصانًا وانكسارًا حين أُخرِجت الدنانير من جُحري، وانتقلت إلى جُحرٍ آخر، فلمَّا كان من الغد اجتمع الجرذان اللاتي كنَّ يُطِفن بي، فقُلن: قد أصابنا جوع، وفَقَدنا ما كنتَ عوَّدتنا — وأنت رجاؤنا — فانظرَنَّ في أمرنا، فانطلقتُ إلى المكان الذي كنت أثِب منه إلى السلة، فأردتُ الوثوب مرارًا، كل ذلك لا أقدر عليه، فاستبان لي أنَّ حالي قد تغيَّرت، وزهِد فيَّ الجرذان، وسمعتُ بعضهن يقولُ لبعض: قد هلك هذا آخرَ الدهر، فانصرِفنَ عنه، ولا تطمَعن فيما عنده، فإنَّا لا نراه يقوى على ما كان يفعل، بل نحسبه سيحتاج إلى من يعوله؛ فتركْنَني ولحقن بأعدائي ومن كان يحسُدني، فأخذن في انتقاصي عندهم، وجعلن لا يُقرِّبنني ولا يلتفتن إليَّ، فقلت في نفسي: ما أرى التبَع والإخوان والأهل إلَّا مع المال، ولا تظهر المُروءةُ والرأي والمودَّة إلَّا به، فإني وجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمرًا قعد به عنه العُدْم، كالماء الذي يبقى في الأودية عن مطر الصيف، فلا هو إلى بحر ولا إلى نهر، فيبقى في مكانه لأنَّه لا مادَّة له، ووجدتُ من لا إخوان له فلا أهل له، ومن لا وَلَد له فلا ذِكر له، ومن لا عقل له فلا دُنيا له ولا آخرة، ومن لا مال له فلا عقل له؛ لأنَّ الرَّجل إذا أصابه الضرُّ والحاجة رفضه إخوانه، وقطع ذوو قرابته وُدَّه، وهان عليهم، واضطرته المعيشة وما يُعالج منها لنفسه وعياله إلى التماس الرزق فيما يُغرِّر فيه بنفسه ودينه وهلاك آخرته، فإذا هو قد خسر الدنيا والآخرة، فلا شيء أشدُّ من الفقر.

فإنَّ الشجرة النابتة في السباخ، المأكولةَ من كل جانب أمثَلُ حالًا من الفقير الذي يحتاج إلى ما في أيدي الناس، فالفقر رأس كل بلاء، وداعيةُ المقت إلى صاحبه، وهو

مَسلَبة للعقل والمُروءة، ومَذهبة للعلم والأدب، ومعدنٌ للتهمة، ومجمعة للبلايا، ومَن نزل به الفقر لم يجد بدًّا من ترك الحياء وتضييعه، ومن ذهب الحياء منه ذهب سَروُه ومُروءته، ومن ذهبت مُروءته مُقِت، ومن مُقِت أوذي، ومن أوذي حزِن، ومن حزن فقدَ عقله واستنكر فهمه وحِفظه، ومن أصيب في ذلك كان أكثرُ قوله عليه لا له، ووجدت الرَّجل إذا افتقر اتَّهمه من كان له مُؤتمنًا، وأساء به الظن من كان يظنُّ به حَسَنًا، فإن أذنب غيرُه كان للتهمة مَوضِعًا، وليس من خَلَّة هي للغنيِّ مَدح إلَّا وهي للفقيرِ ذمٌّ، فإن كان جوادًا سُمِّي مُفسِدًا، وإن كان حليمًا سُمِّي ضعيفًا، وإن كان وقورًا سُمِّي بليدًا، وإن كان لَسِنًا سُمِّي مهذارًا، وإن كان صَموتًا سُمِّي عَيِيًّا، فالموتُ أهون من الفاقة التي تضطرُّ صاحبها إلى المسألة، وتضع المرء بمواضع الهوان، وتدنيه بعد ارتفاعه، وتقصيه بعد تقرُّبه، وتُبعده بعد توسُّطه، وتُزري به وتَمقُته بعد المحبة، ولا سيما مسألةُ الأشِحَّاء الأدنياء اللؤماء، فإنَّ الكريم لو كُلِّف أن يُدخل يده في فم التِّنين فيستخرج منها سُمًّا فيبتلعه كان أخفَّ عليه من الطلب إلى اللئيم، وقد قيل: «من ابتُلي بمرضٍ في جسده لا يفارقه، أو بفراق الأحبَّة والإخوان، أو بالغُربة حيث لا يعرف مبيتًا ولا مقيلًا ولا يرجو إيابًا، أو بفاقةٍ تضطره إلى المسألة، فالحياة له موت والموت له راحة»، وربما كره الرجل المسألة وبه حاجة فحملَه ذلك على السرقة والغصب، وهما شرٌّ من التي زاغ عنها، فإنَّه قد كان يُقال: الخَرَسُ خير من اللَّسَن المُطَعَّم بالكذب، والعِنِّينُ خيرٌ من العاهر، والفاقةُ والفقرُ خيرٌ من النعمة والسَّعة من أموال الناس، والاجتهادُ في الكفاف خير من الإسراف والتبذير فيما لا يحلُّ.

وقد كنت رأيت الضيفَ حين أخرج الدنانير من الجحر قاسمها الناسك، ثم وضع نصيبه منها في خريطة عند رأسه، فطمِعت أن أُصيب منها شيئًا أرُدُّ به بعض قوَّتي ويراجعني به أصدقائي، فانطلقت وهو نائم حتى كثبت منه، فاستيقظ لحركتي، وإلى جانبه قضيب، فضربني على رأسي ضربة فأوجعني فسعيتُ إلى جحري حتى دخلته، فلمَّا سكن عنِّي ما كان بي من الوجع نازعني الحِرص والشَّرَه، وغلباني على عقلي فدببت بمثل طمعي الأول حتى دنوت منه وهو يرصُدني، فعاد لي بضربة أخرى على رأسي سالت منها الدماء وانقلبتُ ظهرًا لبطن، وانجررت حتى دخلت جُحري مَغشِيًّا عليَّ لا أعقِل ولا أدري، وأصابني من الوجع والفزع ما بَغَّض إليَّ المال حتى إني لأسمع بذكره فيُداخِلُني منه رُعب وذُعر، ثم ذكرتُ فوجدت البلايا في الدنيا إنما يسوقها إلى صاحبها الحرص والشره، فلا يزال صاحبها يتقلَّب في تعبٍ منها، ورأيتُ بين السخاءِ

والشحِّ تفاوتًا بعيدًا، ووجدتُ ركوب الأهوال الشديدة وتجشُّم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهونَ على المرء من بسط يده بالمسألة، ووجدت الرضا والقُنوع هما جميع الغنى، وسمعتُ العلماء يقولون: لا عقل كالتدبير، ولا وَرَع كالكفِّ، ولا حَسَب كحُسنِ الخُلُق، ولا غِنى كالقناعة، وأحقُّ ما صُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل، وكان يُقال: أفضلُ البرِّ الرحمة، ورأسُ المودَّةِ الاسترسال، وأنفعُ العقل المعرفةُ بما يكون وما لا يكون، وطيبُ النفس وحُسنُ الانصراف عمَّا لا سبيل إليه، فصار أمري إلى أن قنِعتُ ورضيت، وانتقلت من بيت الناسك إلى البرِّيَّة.

وكان لي صديقٌ من الحمام فساقت إليَّ بصداقتها صداقةَ الغُراب، فذكر لي الغرابُ ما بينك وبينه، وأخبرني أنه يريد أن يأتيك، فأحببت أن أراكِ معه، وكرهت الوَحدة، فإنه ليس من سرورِ الدنيا شيءٌ يَعدِل صُحبة الإخوان، ولا فيها غمٌّ يَعدِل فقدهم، وقد جرَّبت وعرفت أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يلتمس من الدنيا طلبًا فوق الكفاف الذي يدفع به الحاجة والأذى عن نفسه، وذلك يسيرٌ إذا أُعين بسعة يدٍ وسخاءِ نفس، فأمَّا ما سوى ذلك ففي مواضعه ليس له منه إلَّا ما لغيره من حظِّ العين، ولو أَنَّ رجلًا وُهِبت له الدنيا بما فيها لم ينتفع من ذلك إلَّا بالقليل الذي يكفُّ به الأذى عن نفسه، فأمَّا ما سواه ففي مواضعه لا يناله، فأقبلتُ مع الغراب على هذا الرأي، وأنا أخٌ لكِ فلتكن كذلك منزلتي عندكِ.

فلمَّا فرغ الجرذ من مقالته أجابته السلحفاة بكلام لطيف رقيق، فقالت له: قد سمعت مقالتك فأحسِن بها مقالةً وأكرم بها، غير أني رأيتك تذكر بقايا أمور في نفسك منها ومن اغترابك شيء، فتناسَ ذلك ولا يكونن من رأيك، واطرحَنَّه عنك، واعلم أنَّ حُسن القول لا يكون إلَّا بالعمل، فإنَّ المريض الذي قد عُلم دواءه إذا هو لم يتعالج به لم ينتفع بما سوى ذلك، ولم يجد له راحةٌ ولا شفاء، فاستعمل علمك، ولا تحزن لقلَّة مالك، فإنَّ الرَّجل ذا المروءة قد يُكرَم على غير مال؛ كالأسد الذي يُهاب وإن كان رابِضًا، والغَنِي الذي لا مُروءة له يُهان وإن كثر ماله؛ كالكلب الذي يُهان وإن طُوِّق وخُلخِل، ولا تُكبِرنَّ في نفسك اغترابَك؛ فإنَّ العاقل لا غُربة عليه ولا وحشة، ولا يتغرَّب إلَّا ومعه ما يكتفي به من علمه ومُروءته؛ كالأسد الذي لا يتقلَّب إلَّا ومعه قُوَّته التي بها يعيش حيثما توجَّه، ولتُحسِن تعهدك لنفسك فيما تكون به للخير أهلًا؛ فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك، كما يلتمس الماء المتطامِنَ من الأرض، وكما يطلب طيرُ الماء الماء، وإنما جُعِل الفضل للبصير الحازم المتفقد، فأمَّا الكسلان المتردد المدافع المُتواكل فإنَّ الفضل قلَّما يصحبه، كما لا تطيب المرأة الشابة نفسًا بصحبة الشيخ الهرِم، ولا يحزُنك

أن تقول: كنتُ ذا مال فأصبحتُ مُعدِمًا، فإنَّ المال وسائر متاع الدنيا سريعٌ إقبالُه إذا أقبل، وشيكٌ إدباره إذا أدبر، كالكُرة فإنَّ ارتفاعها وإقبالها وإدبارها ووقوعها سريع، وقد قالت العُلماء في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظلُّ الغمام، وصحبة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب، والمال الكثير، فإنه ليس يفرح عاقل بكثرة ماله، ولا يحزن لقلته، ولكن الذي ينبغي أن يفرح به عقله وما قدَّم من صالح عمله؛ لأنَّه واثقٌ أنه لا يُسلَب ما عمله، ولا يؤاخَذ بغيره، وهو حقيقٌ ألَّا يَغفُل عن أمر آخرته، والتزوُّد لها، فإنَّ الموت لا يأتي إلَّا بغتة، وليس بينه وبين أحد وقت معلوم، وأنت غنيٌّ عن موعظتي، وبما ينفعك بصير، ولكن قد رأيتُ أن أقضيَ من حقك الذي يجب، وأنت أخونا فما قِبَلنا لك مبذول.

فلما سمع الغراب ذلك من قول السلحفاة وردها على الجرذ وإلطافها إيَّاه وحسن مقالتها، سرَّه ذلك وأفرحه، وقال: لقد سررتِني وأنعمتِ عليَّ، ولطالما فعلتِ، وأنتِ جديرة أن تفرح نفسك مما لهجت لك به، فإنَّ أولى أهل الدنيا بطيب العيش وكثرة السرور وحُسن الثناء من لا يزال رَحله موطوءًا من إخوانه وأصدقائه وتعاهُدِهم، فإنَّ الكريم إذا عَثَر لم يستقِل إلَّا بالكرام، كالفيل إذا وحِل لم يستخرجه إلَّا الفِيَلة، ولا يرى العاقلُ معروفًا يصطنعه كثيرًا وإن كثر، وإن خاطر بنفسه وغرَّر بها في بعض وجوه المعروف لم يرَ ذلك عيبًا، بل يعلم أنه إنما باع الفاني بالباقي، واشترى العظيم بالصغير، وأغبَطُ الناس أكثرُهم مُستجيرًا وسائلًا مُنجِحًا، ولا يُعدُّ غنيًّا من لا يُشارَك في ماله، ولا عاش من كان عيشه من فضله مُوئِسًا، ولا يُعَدُّ الغُرْم غُرمًا إذا ساق غُنمًا، ولا الغُنم غُنمًا إذا ساق غُرمًا.

فبينما الغراب في كلامه إذ أقبل ظَبيٌ نحوهم يسعى، ففزِعوا منه، ودخل الجرذ جُحرًا، وطار الغرابُ فوقع على الشجرة، وغاصت السلحفاة في الماء، وانتهى الظبيُ إلى الماء فشرب قليلًا ثم قام مذعورًا، فحلَّق الغُراب في جوِّ السماء لينظر هل يرى للظبي طالبًا، فلمَّا لم يرَ شيئًا نادى الجُرذ والسلحفاة ليخرجا، وقال لهما: لست أرى ههنا شيئًا تخافانه، فخرجا واجتمعوا، فقالت السلحفاة للظبي حين رأته ينظر إلى الماء ولا يقرَبه: اشرب إن كان بك عطَش ولا تخف، فلا بأس عليك، فدنا الظبيُ منها وحيَّاها، فقالت: من أين أقبلت؟ فقال: كنت أكون في هذه البرية، فلم يزل الأساوِرة يطردونني من مكانٍ إلى مكانٍ، ورأيت اليوم شَبَحًا فأشفقتُ أن يكون قانصًا فأقبلتُ ههنا مذعورًا؛ فقالت السلحفاة: لا تخف؟ فإنَّا لم نرَ القُنَّاص فيما ههنا قطُّ، فكن معنا ونحن نبذل لك وُدَّنا، والمرعى قريب منَّا، فرغب في صحبتهم وأقام معهم.



وكان لهنَّ عريشٌ من الشجر، فكُنَّ يأتينه كل يوم يجتمعن فيه ويلهون ويتحدثن ويتذاكرن الأمور، ثم إنَّ الغُراب والسلحفاة والجرذ اجتمعن يومًا في العريش، وغاب الظبي عنهنَّ فتوقَّعنه، فلمَّا أبطأ عليهن أشفقن أن يكون أصابته آفة، فقالت السَّلحفاة والجرذ للغراب: انظر هل تراه في شيءٍ مما يلينا، فحلَّق الغراب في الهواء، فإذا هو بالظبي في حبائل القنَّاص، فانقضَّ مسرعًا حتى أخبرهنَّ، فقال الغراب والسلحفاة للجرذ: هذا أمرٌ لا نرجو فيه غيرك، فأغِث أخانا وأخاك، فخرج يسعى فانتهى إليه فقال له: كيف وقعت في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟ فقال وهل يُغني الكَيِّس مع القدر المغَيَّب الذي لا يُرى فيُتَوَقَّى؟ فبينما هما في تحاورها إذ وافت السلحفاة، فقال لها الظبي: ما أصبتِ بمجيئك إلينا ههنا، فإنَّ القانص إن هو انتهى إلينا، وقد فرغ الجرذ من قطع حبالي سبقته حُضْرًا، وللجرذ معاقل كثيرة في الجِحَرة، والغرابُ يطير، وأنتِ ثقيلة لا سعي لك، وأنا أشفِق عليك، فقالت السلحفاة: لا خير في العيش بعد فراق الأحبة، وإنَّ من المعونة

على تسلية الهمِّ وسكونِ النفس — عند نزول البلاء — لقاء المرء أخاه، وإفضاء كلٍّ واحدٍ منهما إلى صاحبه، وإذا فُرِّق بين الأليف وإلفه فقد سُلِب سروره، وغُشِّيَ على بصره، فلم تفرغ السلحفاة من كلامها حتى طلع القانص، ووافق ذلك قطعَ الجرذ الشبكة عن الظبي، فانجحر الجرذ، وطار الغراب، ونجا الظبي، فلمَّا دنا من حباله ورآها مقطوعة عجب وجعل ينظر فيما حوله، فلم ير غير السلحفاة فأخذها واستوثق منها، واجتمع الغراب والظبي ينظرن إليه وهو يربِطها، فاشتد حزنهن لذلك، فقال الجرذ: ما نرى أنَّا نجاوز من البلاء عَقَبة إلَّا وقعنا في أخرى، لقد صدق الذي يقول: لا يزال المرء مُستقِلًّا ما لم يَعثُر فإذا هو عثَر لجَّ به العِثار ولو مشى في جَدَد، وما كان شؤمي الذي فرَّق بيني وبين قطيني وأهلي ومالي وولدي ليرضى حتى يفرِّق بيني وبين ما كنتُ أعيش فيه من صحبة السلحفاة التي لم تكن مودَّتها للمجاراة ولا لالتماس المكافأة، ولكنها خُلَّة الكرم والوفاء والعقل، ومودَّتها أفضل من مودة الوالد ولده، المودَّة التي لا يزيلها إلَّا الموت، يا ويح هذا الجسد الموكَّل به البلاء! الذي لا يزال في تصرُّف وتقلُّب لا يدوم له شيء ولا يلبث معه، كما لا يدوم لطالع النجوم طلوعُها ولا لآفلها أفولُها، ولكنها في تقلُّب، فلا يزال الطالع آفلًا والآفلُ طالعًا، والمُشرِّق مُغَرِّبًا، والمُغرِّب مُشرِّقًا، وهذا الحزن الذي أنا فيه وتذكُّري إخواني كالجُرح المندمل تصيبه الضربة فيجتمع على صاحبها ألمان: ألم الضربة وألم انتقاض الجُرح، وكذلك من خفَّت كُلُومُه للقاء إخوانه ثم فقدهم انتكأت قروحه.

فقال الغراب والظبي: حُزننا وحُزنك وكلامُنا وكلامك، وإن كان بليغًا، لا يُغنِي عن السلحفاة شيئًا، فدع هذا والتمس المخرج والحيلة، فإنه قد كان يُقال: إنما يُختبَر ذو البأس عند اللقاء، وذو الأمانة عند الأخذ والإعطاء، والأهلُ والولدُ عند الفاقة، والإخوان عند النوائب. فقال الجرذ: إنَّ من الحيلة أن تذهب أنت أيها الظبي، حتى تكون بصددٍ من طريق القانص، فتربِضَ كأنك جريح مُثبت، ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك، وأتبعه فأكون قريبًا منه، فإني أرجو لو نظر إليك أن يضع ما معه من قوسه ونُشَّابه ويضع السحلفاة ويسعى إليك، فإذا هو دنا منك فِفرَّ عنه متظالعًا حتى لا ينقطع طمعه فيك، وأمْكِنه مرارًا حتى يدنوَ إليك، ثم امدُد به على هذا النحو ما استطعت، فإني أرجو ألَّا ينصرف إلَّا وقد قطعت الحبل عن السلحفاة وخلَّصتها، ففعل الظبي ذلك هو والغراب، فأتْبَعه القانص طويلًا ثم انصرف وقد قطع الجرذ وَثاق السلحفاة، ونجَونَ جميعًا، فلمَّا رأى ذلك القانص ورأى حباله مقطوعة، فكَّر في أمر الظبي المتظالع، والغراب الواقع عليه كأنه يأكل منه وليس يأكل، وتقريض حباله قبل ذلك عن الظبي، فاستوحش، وقال: إنْ

هذه إلَّا أرضُ سَحَرة أو جن، فانصرف مذعورًا مُوَلِّيًا لا يلتمس شيئًا ولا يلتفت إليه، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عرائشهن آمنات.

ثم قال الفيلسوف للملك: فإذا بلغت حيلةُ أضعفِ الدوابِّ والطير وأهونها في معاونة بعضهنَّ بعضًا، ومواتاتِهنَّ، وجُمْعَتِهنَّ فيما بينهُنَّ، وصبرِهنَّ على ما خلَّص به بعضُهُن بعضًا من أعظم البلاء وأهوله وأفظعه، فكيف بالناس لو فعلوا مثل ذلك وترافدوا عليه؟ إذن كان يصل إليهم من منفعة ذلك ومِرْفَقه في جرِّ الخير وإجرائه ودفع السوء ما لا خطر له ولا عِدل.

باب البوم والغربان

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر الإخاء ومنفعته وعظيم الفائدة فيه، فاضرب لي مَثَلَ المغترِّ بالعدوِّ المُبدِي التضرُّع، وأخبرني عن العدوِّ هل يصير صديقًا؟ وهل يُوثق بشيءٍ منه؟ وكيف العداوة؟ وما ضرُّها؟ وكيف ينبغي للملك أن يصنع إذا أتاه أمرٌ من عدوِّه ومن أهل المنابذة يلتمس به الصلح، وهو في نفسه غير أمين، ولا حقيق بالطمأنينة.

قال الفيلسوف: ليس أحدٌ بحقيقٍ إذا أتاه أمر من عدوِّه الذي يتخوفه على نفسه وجنده — وإن كان يلتمس الأمان والصلح، ويظهر المودة لجنده والسلامة لأصحابه — أن يثق به ولا يطمئن إليه ولا يغترَّ بقوله؛ فإنَّه قد يكون بأشباه ذلك يطلب النُّهزة والفُرصة، ومثل العدوِّ الذي لا ينبغي أن يُغترَّ به، وإن هو أظهر المودة والصفاء، ومن يَسترسل إلى عدوِّه ويطمئن إليه؛ فيصيبه الشرُّ ما أصاب البومَ من الغربان، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن أرضًا تُسمَّى كذا وكذا، كان حولها جبل عظيمٌ محيطٌ بها، وكان فيه شجرة عظيمة كثيرة الغصون شديدة الالتفاف يُقال لها يبمرود،[1] وكان فيها وكرُ ألفِ غراب، ولهنَّ ملِك منهنَّ، وكان في ذلك الجبل وكر ألفٍ من البوم، فخرج ملك البوم ذات ليلة لعداوة بين البوم والغِربان، فوقعت البوم على الغربان فأكثَرن فيهنَّ القتل والجِراح، ولم يعلم ملك الغربان بذلك حتى أصبح؛ فلما كان الغدُ، ورأى ما لقيَ جندُه اهتم وحزن وقال: يا معشر الغربان! قد ترون ما لقينا من البوم،

[1] ليس في النسخ الأخرى تسمية الشجرة.

وما أصابنا منهنَّ، وأشد ما أصابكن جُرأتُهنَّ عليكنَّ، ومعرفتهنَّ مكانكنَّ، وأنا متخوِّفٌ من كرَّتهنَّ بمثلها أو أشدِّ منها عليكنَّ.

وكان في الغربان خمسة ذَوو رفقٍ وعلمٍ ونظرٍ في الأمور ومعرفةٍ بحسن الرأي والحِيَل، وكان الملك يُشاورهم وينتهي إلى رأيهم، فقال الملك للأول من الخمسة: قد كان ما رأيت، ولسنا نأمن رجعتهم، فما الحيلة؟ فقال: الحيلة في الذي كانت العلماء تقول، فإنهم كانوا يقولون: ليس للعدوِّ الحَنِق الذي لا يُطاق إلَّا الهربُ منه والتباعدُ عنه. ثم سأل الملك الثاني، فقال: ما رأيك أنت؟ قال: أمَّا ما أشار به هذا عليك فلا أراه حَزْمًا، ولا ينبغي لنا أن نفِرَّ من بلادنا، ونَذلَّ لعدوِّنا عند أول نكبة، ولكن نُجمِع أمرنا، ونستعد لعدوِّنا، ونذكي العيون ما بيننا وبينهم، ونحترس من الغِرَّة والعودة، فإذا أقبل علينا عدوُّنا لقيناه مستعدِّين لقتاله، فقاتلناه مزاحفةً تلقى أطرافنا أطرافه، ونتحرز منه تحرزًا حصينًا، ونُدافع الأيام[٢] حتى نصيب منه غِرَّة ولعلَّنا نظفر به. ثم قال الملك للثالث: ما ترى فيما قال صاحباك؟ قال: لم يقولا شيئًا، ولعمري ما مدافعة الأيام والليالي بمستقَرٍّ لنا فيما بيننا وبين البوم، وما الرأي إلى أن نُذكي العيون والطلائع بيننا وبين العدوِّ، وننظر هل يقبلنَ صُلحًا أو فديةً أو خراجًا نؤديه إليهنَّ، وندفعُ عن أنفسنا خوفهنَّ، ونأمنُ في أوطاننا وأوكارنا؛ فإنَّ من الرأي للملوك إذا اشتدت شوكة عدوِّهم وخافوا على أنفسهم ورعيتهم الهلكة والفساد، أن يجعلوا الأموال جُنَّة للرعية والبلاد. فقال الملك للرابع: ما رأيك أنت فيما قال صاحباك، والصلحِ الذي ذكر هذا؟ قال: لا أرى ذلك، بل ترك أوطاننا والاصطبار على الغُربة وشدَّةِ المعيشة أحبُّ إلينا من وضع أحسابنا، والخضوع لعدوِّنا الذي نحن خيرٌ منه وأشرف، مع أني قد عرفتُ أنَّا لو عرضنا ذلك عليهنَّ لم يقبَلن إلَّا بالاشتطاط، وقد يُقال: قارِب عدوَّك بعض المقاربة تنَلْ منه حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئَ عليك بها، ويضعف ويذِلَّ لها جُندُك، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ الخشبة القائمة في الشمس، فإنْ أَمَلْتَها قليلًا زاد ظلُّها، وإن جاوزتَ الحدَّ في إمالتها ذهب الظل، وليس عدوُّنا براضٍ منَّا بالدون في المقاربة، فالرأي لنا المحاربة والصبر. فقال الملك للخامس: ما رأيك أنت؟ آلصلح أم القتال أم الجلاء؟ قال: أمَّا القتال

[٢] في الأصل: «فإذا أقبل عدوُّنا لقيناه حتى نصيب منه غرة»، ويظهر من قول الوزير الثالث في هذه الصفحة: «ولعمري ما مدافعة الأيام والليالي … إلخ.» أنه سقطت جملة فيها ذكر المدافعة، لذلك أخذنا من نسخة شيخو ما يستقيم به السياق، وهذه الزيادة في النسخ الأخرى أيضًا.

فلا سبيل إلى قتال من لا نُقاربه في القوَّة والبطش؛ فإنه من أقدم على عدوِّه استضعافًا له اغترَّ، ومن اغترَّ أمكن مِن نفسه ولم يسلم، وأنا للبوم شديد الهيبة، ولو أنها أضربت عن قتالنا، وقد كنَّا نهابها قبل إيقاعها بنا، فإنَّ العاقل لا يأمن عدوَّه على كل حال؛ إن كان بعيدًا لم يأمن من معاودته، وإن كان متكشِّفًا لم يأمن استطراده، وإن كان قريبًا لم يأمن مواثبته، وإن كان وحيدًا لم يأمن مكره، وأكيَسُ الأقوام مَن لم يكن يلتمس[٣] الأمر بالقتال ما وَجَد إلى غير القتال سبيلًا؛ فإنَّ النفقة في القتال من الأنفس، وغيرُ ذلك إنما النفقة فيه من الأموال، فلا يكونن قتالُ البوم من شأنكم؛ فإنَّ مَن يواكل الفيل يواكل الحَيف.[٤] قال الملك: فما ترى إذ كرهت ذلك؟ قال: نأتمر ونتشاور، فإنَّ الملك المشاوِر المؤامر يُصيب في مؤامراته ذوي العقول من نصحائه من الظفر ما لا يُصيبه بالجنود والزحف وكثرة العُدد، فالملك الحازم يزداد بالمؤامرة والمشاورة ورأي الوزراء الحَزَمة كما يزداد البحر بموادِّه من الأنهار، ولا يخفى على الحازم قدرُ أمرِه وأمرِ عدوِّه، وفرصةُ قتاله، ومواضعُ رأيه ومكايدته.

ولا ينفكَّ يعرضُ الأمور على نفسه أمرًا أمرًا، يتروَّى في الإقدام على ما يريد منها، والأعوان الذين يستعين بهم عليها، والعُدَد التي يُعدُّ لها، فمن لا يكون له رأي في ذلك ولا نصيحة من الوزراء الذين يُقبل منهم لم يلبث، وإن ساق القدر إليه حظًّا، أن يُضيِّع أمره، فإن الفضل المقسوم لم يقيَّض للجَمال ولا للحسب،[٥] ولكنه وُكِّل بالعاقل المستمع

[٣] هممنا بأن نحذف «يكن» من هذه الجملة، ثم رأينا أنها تشبه أن تكون من أثر الترجمة الفارسية، فإن استعمال الفعل «يكون» مألوف في مثل هذا التركيب بالفارسية.

[٤] هذه الجملة: «من يواكل الفيل يواكل الحيف» من عجائب التحريف في هذا الكتاب، فهي في شيخو: «من يرى كل القتل يرى الخير»، وفي نسختنا: «من يرا كل القتل يرا كل الحيف»، وقد رجعنا إلى السريانية فإذا فيها: «من يقارب الفيل يهرب من نَفسه.» فحزرنا أن «القتل» محرَّفة عن «الفيل»، ورجعنا إلى ابن الهبارية فإذا فيها:

فإن من واكل فيلًا هائلًا   فللبلاء والشقاء وَاكَلَا

فعرفنا أن «يراكل» محرَّفة عن «يواكل» وصححنا الجملة، وفي الترجمة الفارسية: «هركه بابيل آويزد زير آيد» أي من يتعلق بالفيل يُصرَع.

[٥] في الأصل: «لم يقيض المحتال ولا للحسب»، وفي شيخو: «لم يقيض للجهال ولا للحسيب»، وكلتا العبارتين محرَّفة، وقد عرفنا بمعونة النسخة الفارسية أن الصواب ما أثبتناه هنا.



من ذوي العقول، وأنت أيها الملك كذلك، وقد استشرتني في أمر أريد أن أجيبك في بعضه علانية وفي بعضه سرًّا. أمَّا ما لا أكره أن أعلنه فإني كما لا أرى القتال لا أرى الخضوع بالخراج والرضا بذلِّ الدهر؛ فإنَّ العاقل الكريم يختار الموت كريمًا محافظًا، على الحياة خزيانَ ذليلًا، وأرى أن نؤخِّر النَّظر في أمرنا، ولا يكونن من شأنك التثبُّط والتهاون؛ فإنَّ التهاون رأس العجز. وأمَّا ما أريد إسراره فليكن سرًّا، فإنه قد كان يُقال: إنما يُصيب الملوك الظفرَ بالحزم، والحزم بأصالة الرأي، والرأيَ بتحصين الأسرار، وإنما يُطَّلع على السر من قِبَل خمسة: من قِبَل صاحب الرأي، ومن قِبَل مُشاوِره، ومن قِبَل الرُّسُل والبُرُد، ومن قِبَل المستمعين الكلام، ومن قِبَل الناظرين في أثر الرأي ومواقع العمل بالتشبيه والتظنِّي، ومن حصَّن سرَّه فإنه من تحصينه إياه في أحد أمرين: إما ظفَر بما يريد، وإمَّا سلامة من عيبه وضره إن أخطأه ذلك، ولا بدَّ لمن نزلت به نائبة من استشارة الناصح، وطَلَبِ من يعاونه على الرأي، ويُفضي إليه، فإنَّ المستشير، وإن كان أفضلَ من

المستشار رأيًا، فإنه يزداد بالمشورة رأيًا وعقلًا؛ كما تزداد النار بالودَك ضَوءًا، وعلى المستشار موافقةُ المستشير على صواب ما يرى، والرفق به في تبصيره وردِّه عن خطأ رأيٍ — إن كان منه — وتقليبُ الرأي فيما يُشكَل عليه حتى يستقيم لهما سرُّهما، فإن لم يكن المستشار كذلك، فهو على المستشير مع عدوِّه، كالرجل الذي يَرقي الشيطان ليُرسله على الإنسان، فإذا لم يُحكِم الرُّقية كان به يتلبَّس، وإياه يأخذ. وإذا كان الملك مُحصِّنًا لأسراره، متخيِّرًا للوزراء، مهيبًا في أنفس العامة، بعيدًا من أن يُعلَم ما في نفسه، لا يضيع عنده حُسنُ بلاء، ولا يسلَم منه ذو جُرم، مقدِّرًا لما يُفيد ولما ينفق، كان خليقًا ألا يُسلَب صالحَ ما أُعطيَ.

والأسرار منازل؛ فمن السرِّ ما يدخل فيه الرهط، ومنه ما يدخل فيه الرجلان، ومنه ما يستعان فيه بالقوم، ولا أرى لهذا السرِّ — في قدر منزلته — أن يشترك فيه إلا أربع آذان ولسانان؛ فنهض الملك فخلا معه واستشاره، فكان مما سأل عنه أن قال: هل تعلم ما كان سبب عداوة ما بيننا وبين البوم؟ قال: نعم! كلمةٌ تكلَّم بها غرابٌ مرة، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن جماعةً منَ الطير لم يكن لها ملك، وأنها اجتمعت آراؤها على بومٍ لتُملِّكه عليها، فبينما هم في ذلك إذ وقع لهم غراب فقال بعضهم: انتظرن حتى يأتينا هذا الغراب لنستشيره في أمرنا؛ فأتاهنَّ الغراب فاستشرنه فيما قد أجمعن عليه من تمليك البوم، فقال الغراب: لو أنَّ الطير كلَّها فُقِدت وبادت، وفُقِد الطاوس والبطُّ والحمامُ والكُركيُّ، لما اضطُرِرتنَّ إلى تمليك البوم أقبحِ الطير منظرًا، وأسوئها مَخبَرًا، وأقلِّها عقولًا، وأشدِّها غضبًا، وأبعدها رحمةً، مع الذي بها من الزمانة والعَشَى بالنهار، ومن شرِّ أمورها سوء تدبيرها، ولا يطيق طائر يقرب منه لصلفه وخُبث نتْنه وسوء خَلقه، إلَّا أن ترين تمليكه وتدبير الأمور دونه؛ فإنَّ الملك، وإن كان جاهلًا، إذا كان يُقدَر على الدنوِّ منه وكانت قرابينه ووزراؤه ورسله صالحين نفذَ أمره ورأيه واستقام له ملكه، كما فعلت الأرنب التي زعمت أنَّ القمر مَلِكها، وعملت برأيها؛ قال الطير: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن أرضًا من أرض الفِيَلة، تتابعت عليها السنون وأجدبت، فقلَّ الماء في تلك البلاد وغارت العيون، وأصاب الفيلة عَطَشٌ شديد، فشكت ذلك إلى ملكها، فأرسل الملكُ رسُله ورُوَّاده في التماس الماء في كل ناحية، فرجع إليه بعض رسله فأخبره بأنَّه وجد في بعض الأمكنة عينًا تدعى القمَرية، كثيرة الماء، فتوجَّه ملك الفِيَلة بفيلته إلى تلك العين ليشربن منها، وكانت تلك الأرض أرضَ أرانب، فوطئت الفيلة الأرانب بأرجلها في جِحَرتها فأهلكن أكثرها، فاجتمع البقيةُ منها إلى ملكها

فقُلن له: قد علمتَ ما أصابنا من الفيلة، فاحْتَلْ لنا قَبل رجوعهنَّ علينا، فإنهنَّ راجعات لوِردهنَّ ومُفْنِيَاتُنا عن آخرنا، فقال ملكهنَّ: ليحضُرْني كلُّ ذي رأيٍ برأيه، فتقدم خُزَز منها يُقال له فَيروز، وقد كان الملك عرفه بالأدب والرأي، فقال: إن رأَى الملك أن يبعثني إلى الفيلة ويبعث معي أمينًا يرى ويسمع ما أقول وما أصنع ويخبره به، فليفعل. فقال له ملك الأرانب: أنت أميني، وأنا أرضَى رأيك، وأصدِّق قولك، فانطلِق إلى الفِيَلة وبلِّغ عنِّي ما أحببت، واعمَل برأيك، واعلم أنَّ الرسول به وبرأيه وأدبه يُعتبر عقل المرسل وكثيرٌ من شأنه، وعليك باللين والمواتاة، فإنَّ الرَّسول هو يُلَيِّن القلب إذا رَفَق، ويخشِّن الصدر إذا خرِق. فانطلق الأرنب في ليلةٍ القمرُ فيها طالع، حتى انتهى إلى موضع الفِيَلة، فكره أن يدنو منهنَّ فيطأنه بأرجلهنَّ وإن لم يُرِدْن ذلك، فأشرف على تلٍّ فنادى ملكَ الفيلة باسمه، وقال له: إنَّ القمر أرسلني إليك، والرَّسولُ مبلِّغ غيرُ ملوم وإنْ أَغْلَظَ في القول. فقال له ملك الفيلة: وما الرسالة؟ قال: يقول لك القمر: إنه من عرف فضل قوَّته على الضعفاء فاغترَّ بذلك من الأقوياء كانت قوَّته حَيْنًا ووبالًا عليه، وإنك قد عرفت فضل قوَّتك على الدواب فغرَّك ذلك منِّي فعمدتَ إلى عَيني التي تُسمَّى باسمي فشربت ماءها وكدَّرته أنت وأصحابك، وإني أتقدَّمُ إليك وأُنذِرك ألَّا تأتيَها فأُعشِيَ بصرك وأُتلِفَ نفسك، وإن كنت في شكٍّ من رسالتي، فهلمَّ إلى العين من ساعتك، فإني مُوافيك بها. فعجب ملك الفيلة من قول فيروز، وانطلق معه إلى العين، فلمَّا نظر إليها رأى ضوء القمر في الماء، فقال له فيروز: خذ بخرطومك من الماء واغسل وجهك واسجد للقمر، ففعل، ولما أدخل خرطومه إلى الماء فحرَّكه خُيِّل إليه أنَّ الماء يرتعد، فقال ملك الفيلة: وما شأن القمر يرتعد؟ أتراه غضب من إدخال جَحفَلتي في الماء؟ قال: نعم، فاسجد له. فسجد الفيل للقمر وتاب إليه مما صنع، وشرط له ألَّا يعود هو ولا أحدٌ من فيلته إلى العين.

قال الغراب: ومع ما ذكرت لكم من أمر البوم فإنَّ من شأنها الخِبَّ والخديعة، وشرُّ الملوك المخادع، ومن ابتُلِيَ بسلطان المخادعين أصابه ما أصاب الصِّفرِد والأرنب اللذينِ حكَّما السِّنَّور الصوَّام، قالت الطير: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: كان لي جارٌ من الصفارِد، وجحره قريب من الشجرة التي فيها وكري، وكان يُكثر مواصلتنا، وطال جوار بعضنا لبعض، ثم إني فقدته فلم أدرِ أين غاب، وطالت غيبته عنِّي حتى ظننتُ أنه قد هلك، فجاءت أرنب إلى مكانه لتسكنه، فكرهتُ أن أخاصِمها في مكان الصِّفرِد ولا أدري ما فعل به الدهر، فلبثت الأرنب في ذلك المكان زمانًا، ثم إنَّ الصفرِد رجع إلى مكانه، فلمَّا وجد فيه الأرنب قال لها: هذا المكان مكاني، فانتقلي عنه، قالت الأرنب: المسكن في يدي،

وأنت المدَّعي، فإن كان لك حقٌّ فاستعْدِ عليَّ، قال الصفرد: المكان مكاني، ولي على ذلك البيِّنة، قالت الأرنب: نحتاج إلى القاضي قبل البيِّنة، قال الصفرد: ههنا قريبٌ منَّا القاضي، فانطلقي بنا إليه، فقالت الأرنب: ومَن القاضي؟ قال الصفرِد: سِنَّوْر متعبِّد يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يؤذي دابَّة ولا يأكل إلَّا الحشيش، فاذهبي بنا إليه؛ فانطلقا، وتبِعتُهما لأنظر إلى الصوَّام وقضائه بينهما، فأتيا إليه هائبينِ له، فلمَّا رآهما قد أقبلا من بعيد انتصب قائمًا يُصلِّي، فتعجبت الأرنب مما رأت منه، ولما صارا إليه دَنَوَا منه هائبينِ له، فطلبا إليه أن يقضي بينهما، فأمرهما أن يقصَّا قصَّتهما عليه، وقال لهما: لقد أدركني الكِبَرُ وثَقُل سمعي فما أكادُ أسمع، فادنُوَا منِّي لأسمع منكما، فَدَنَوَا وأعادا عليه قصَّتهما، فقال: قد فهمت ما قصصتما، وإني بادئكما بالنَّصيحة قبل القضاء، آمركما ألَّا تطلبا إلَّا الحق؛ فإنَّ طالب الحق هو الذي يُفلِح وإن قُضيَ عليه، وطالب الباطلِ مخصومٌ وإن قُضيَ له، وليس لصاحب الدنيا في دنياه شيءٌ، لا مالٌ ولا صديق، إلَّا عملٌ صالح قدَّمه فقط، والعاقل حقيقٌ أن يكون سعيه فيما يبقى ويعودُ عليه نفعه، ويمقت ما سوى ذلك؛ ومنزلةُ المال عند العاقل منزلةُ القذى، ومنزلةُ النِّساء منزلة الأفاعي، ومنزلة الناس عنده — فيما يحب لهم من الخير ويكره لهم من الشر — منزلة نفسه، فلم يزل يقصُّ عليهما ويدنوان منه ويستأنسان به؛ حتى وثب عليهما جميعًا فقتلهما.

ثم قال الغراب: والبوم تجمع مع سائر العيوب التي وصفتُ المكرَ والخديعةَ، فلا يكوننَّ تمليك البوم من رأيكن، فصدرت الطير عن خُطَّة الغراب ولم تُملِّك البوم، فقال البوم الذي كان اخْتِير للمُلك: لقد وَتَرْتَنِي أعظمَ التِّرَة، فما أدري هل سلف إليك منِّي سوء استحققتُ به هذا منك؟ وإلَّا فاعلم أنَّ الفأسَ يُقطع بها الشجر فتنبت وتعود، والسيف يُقطَع به اللحم والعظم فيندمل ويلتئم، واللسان لا يندمل جُرحه ولا يلتئم ما قطع، والنَّصل من النُّشَّابة يغيب في الجوف ثم يُنزع، وأشباه النصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُنزع ولم تُخرَج، ولكل حريق مطفئ: للنار الماء، وللسمِّ الدواء، وللعشق الوصال، وللحزن الصبر، ونار الحقد لا تخبو، وإنكم — معشر الغربان — قد غرستم بيننا وبينكم شجرة عداوةٍ وحقدٍ، هي باقيةٌ ما بقيَ الدهر.

ثم انصرف غضبان موتورًا، ونَدِمَ الغراب على ما فرَط منه، وقال في نفسه: لقد خرقتُ فيما كان من قولي الذي جلبت به العداوةَ على نفسي وقومي، ولم أكن أحقَّ الطير بهذه المقالة، ولا أعناها بأمر مُلكها، ولعلَّ كثيرًا منها قد رأى الذي رأيت، وعلم الذي علمت، فمنعها من ذلك الاتقاءُ لما لم أَتَوَقَّهُ، والنظر فيما لم أنظر فيه، ثم لا سيما إذا كان

الكلام مواجهةً؛ فإنَّ الكلام الذي يَستقبِل به قائلُه السامعَ عمَّا يكره ممَّا يورث الحقد والضغينة، ولا ينبغي له أن يُسمَّى كلامًا ولكن يُسمَّى سُمًّا، فإنَّ العاقل، وإن كان واثقًا بقوته وقوله وفضله وشدة بطشه لا يحمله ذلك على أن يجني على نفسه عداوةً اتكالًا على ما عنده من ذلك، كمَا أنَّ الرَّجل، وإن كان عنده الترياق والأدوية، لا ينبغي له أن يشرب السمَّ اتكالًا على ما عنده من ذلك، وإنما الفضل لأهل حُسن العمل لا لأهل حسن القول؛ فإنَّ صاحب حسن العمل، وإن قصَّر به القول في بديهته، بيِّنٌ فضلُه عند الخبرة وعاقبة الأمر، وصاحب القول، وإن هو أحسن وأعجَب ببديهته وحسن صفته، لم يُحمد ذلك منه إلَّا بتحقيقه بالعمل في غبِّ أمره، فأنا صاحب القول الذي لا عاقبةَ له، أوَ ليس من سفهي اجترائي على التكلم في الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحدًا ولا أروِّي فيه مرارًا؟ وأنا أعلم أنَّ مَن لم يُعمِل رأيه بتكرار النَّظر ولم يستشِرِ النصحاء الألبَّاءِ في أمره، لم يُسَرَّ بمواقع رأيه، ولم يحمد غِب أمره، فما كان أغناني عمَّا اكتسبت في يومي هذا وما وقعت فيه من الغمِّ!

فعاتب الغراب نفسه بهذا ثم انطلق.

فهذا ما سألتَ عنه من العلَّة التي بدأَت بها العداوةُ بين البومِ والغربانِ، قال الملك: قد فهمتُ هذا، فخذ بنا فيما نحن أحوج إليه اليوم، وأشِر علينا برأيك الذي ترى أن نَعْمَل به فيما بيننا وبين البوم، قال الغراب: أمَّا القِتَال فقد كنتَ عرفتَ رأيي فيه وكراهيتي له، وأنا أرجو أن أقدر من الحيل على بعض ما فيه الفرج، فإنه رُبَّ قومٍ احتالوا برأيهم في الأمر الجسيم حتى ظفروا منه بحاجتهم التي لم يكونوا قدَروا عليها بالمكابرة، كالمَكَرة الذين مَكَروا بالناسك حتى ذهبوا بعريضه، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أنَّ ناسكًا اشترى عريضًا ضخمًا ليجعله قُربانًا، فانطلق به يقودُه، فبصُر به قومٌ مَكَرة، فأتمروا ليخدعوه عنه، فعرض له أحدهم فقال له: أيها الناسك، ما هذا الكلب معك؟ ثم عرض له آخر فقال: إني لأظن أنَّ هذا الرجل الذي عليه لباس النسَّاك ليس بناسك، فإن الناسك لا يقود الكلاب، ثم عرض له آخر فقال له: أنت تريد الصيد بهذا الكلب؟ فلمَّا قالوا له: ذلك لم يشكَّ أنَّ الذي معه كلب، فقال في نفسه: لعلَّ الذي باعني سحَرني وخدعني، فخلَّى عنه، فأخذه النفر فذبحوه واقتسموه.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لِما أرجو أنْ نُصِيب من حاجتنا بالمكر والرفق، فأنا أرى أن يغضب عليَّ الملك فيأمر بي على رءوس جنده فأُضرَب وأُنقَر حتى أتخضب بالدم، ويُنتَفَ ريشي وذَنَبي، ثم أُطرَحَ في أصل الشجرة، ثم يرتحل الملك وجندُه إلى مكان كذا

وكذا حتى أمكُر مَكري، ثم آتي الملك فأعلِمه الأمر؛ ففعل به الملك ذلك، وذهب بغربانه إلى المكان الذي وصف له.

ثم إنَّ البوم جاءت من ليلتها فلم تجد الغربان، ولم تفطُن بالغراب في أصل الشجرة، فأشفق الغراب أن ينصرفْن ولا يرَينه فيكونَ تعذيبُه نفسَه باطلًا، فجعل يئنُّ ويهمِس حتى سمعه بعض البوم، فلمَّا رأينه أخبرن به ملِكهنَّ، فعَمد نحوه في بومات يسأله عن الغربان؛ قال الغراب: أنا فلان بن فلان، وأمَّا ما سألتني عنه من أمر الغربان، فأنت ترى حالي وما صنعوا بي، قال ملك البوم: هذا وزيرُ ملك الغربان وصاحبُ رأيه، فسلوه بأيِّ ذنبٍ صُنِع به هذا؟ قال الغراب: سَفَهُ رأيي فَعل بي ما ترى، قال الملك: وما ذلك السفه؟ قال الغراب: إنه لمَّا كان من إيقاعِكنَّ بنا ما كان استشارنا ملكنا فقال: يا أيها الغربان! أما ترون ما نزل بنا من البوم؟ وكنت من الملك بمنزلة وبمكان، فقلت: أرى أنه لا طاقة لكم بقتال البوم؛ فإنَّهنَّ أشدُّ بطشًا وأجرأ قلوبًا، ولكنَّ الرَّأي لكم أن تلتمسوا الصُّلح وتعرضوا الفِدية، فإن قُبِل ذلك منكم وإلَّا فاهرُبوا في البلاد، وأخبرت الغربان أن قتالكنَّ خيرٌ لكنَّ، وشرٌّ لهنَّ، وأنَّ الصلح أفضلُ ما هنَّ مصيباتٌ منكنَّ، وأمرتُهنَّ بالخضوعِ، وضربتُ لهنَّ في ذلك مثلًا فقلتُ: إنَّ العدوَّ الشديد لا يَرُدُّ بأسَه وغضبه شيءٌ هو أمثَلُ من الخضوع له، ألا ترون أنَّ الحشيش إنما يسلم من الريح العاصف بلينه وانثنائه معها حيثما مالت، والشجرة العظيمة تُحطمها لانتصابها لها، والبعوضة تريد اختلاس النار ولا تتقيها فتحترق منها؟ فغضبن من قولي وزعمن أنهنَّ يُرِدن القتال، واتَّهمنني وقُلن: بل مالأتَ ملك البوم علينا وغششتنا، وردَدن رأيي ونصيحتي، وعذَّبنني بهذا العذاب. فلما سمع ملك البوم ما قال الغراب استشار وزراءه فقال لأحدهم: ما ترى في هذا الغراب؟ فقال: لستُ أرى أن نناظر هذا، وليس لك في أمره نظرٌ إلَّا المُعاجلة بالقتل؛ فإنَّ هذا من أفضل عُدد الغربان، وفي قتله لنا فتحٌ عظيمٌ وراحةٌ من مكيدته، وفقدُه على الغربان شديد، وقد كان يُقال: مَن استمكن من الأمر الجسيم فأضاعه لم يقدر عليه ثانيةً، ومَن التمس فرصة العمل وأمكنته ثم غفل عنها فاته الأمر ولم تَعُد إليه الفرصة، ومَن وجد عدوَّه ضعيفًا فلم يستَرِحْ منه أصابته النَّدامة حين يقوى العدوُّ ويستعدُّ، فلا يقدر عليه؛ فقال الملك لآخر من وزرائه: ما ترى في هذا الغراب؟ قال: أرى ألَّا تقتله؛ فإنَّ العدوَّ الذليلَ الذي لا شوكةَ له أهلٌ أن يُصفحَ عنه ويُستَبْقى، والمُستجيرَ الخائف أهلٌ أن يُؤمَّن ويُجار، مع أنَّ الرجل ربما عطفه على عدوِّه الأمر اليسير؛ كالتاجر الذي عطف عليه السارقُ امرأتَه بأمر لم يتعمده؛ قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الوزير: زعموا أنَّ تاجرًا

مُكثرًا كان كبير السن، وكانت امرأته شابةً ذات جمال، وكان لها عاشقًا، وكانت له قالية مُبغضة لا تمكِّنه من نفسها، ولا يزيده ذلك إلَّا حُبًّا لها، ثم إنَّ سارقًا أتى بيت التاجر ليلة، فلمَّا دخل البيت وافق التاجر نائمًا وامرأته مُستيقظة، فذُعِرت من السارق ووثبت إلى التاجر فالتزمته، فاستيقظ التاجر وقال: من أين هذه النِّعمة؟ فلما بَصُر بالسارق قال: أيها السارق، أنت في حِلٍّ مما أردتَ أخذَه من مالي ومتاعي، ولك عليَّ الفضل بما عَطَفتَ عليَّ هذه المرأة من معانقتي.

ثم إنَّ الملك سأل الثالث من وزرائه عن رأيه في الغراب، فقال الثالث: أرى أن تستبقيه وتُحسِن إليه؛ فإنه خليقٌ بمناصحتك، وإنَّ من إحكام تمكُّن الرجل من أعدائه أن يستدخل منهم أعوانًا على الباقين، وإنَّ ذا العقل يرى ظَفَرًا حَسَنًا معاداةَ بعض عدوِّه بعضًا، وإنَّ اشتغال بعض العدو ببعض واختلافَهم نجاةٌ له كنجاة الناسك عند اختلاف اللص والشيطان. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الوزير: زعموا أن ناسكًا أصاب مرة بقرةً حلوبًا فانطلق بها يقودها، وتبعه لِصٌّ فحدَّث نفسه بأخذها، وتبع اللصَّ شيطان في صورة إنسان، فقال اللص للشيطان: من أنت؟ قال: أنا شيطان أريد أن أتبَع هذا الناسك، فإذا نام خنقته، فأنت ماذا؟ قال: وأنا أريد أن أتبعه إلى منزله لعلِّي أسرق البقرة، فانطلقا مصطحبينِ حتى انتهيا إلى منزل الناسك مُمسيَينِ، فدخل الناسك وأدخل بقرته ثم تعشَّى ونام، فأشفق اللص أن يبدأ الشيطانُ بالناسك قبل أن يسرق البقرة فيصيحَ فتجتمعَ الناس بصوته فلا يقدر على سرقة البقرة، فقال له: انتظر حتى أخرِج البقرة، ثم عليك بالرجل، فأشفق الشيطان أن يبدأ اللص بالبقرة فيتنبَّه الناسك فلا يقدر على أخذه، فقال له: بل أنظِرني حتى أخنُقه ثم عليك بالبقرة، فأبى كل واحدٍ منهما على صاحبه، فلم يزالا في اختلاف حتى نادى اللص الناسكَ أنِ انْتَبِهْ؛ فهذا الشيطان يُريد أن يخنُقك، وناداه الشيطان: أيها الناسك، إنَّ هذا اللص يريد أن يسرق بقرتك، فانتبه الناسك وجيرانه لصوتهما وهرب الخبيثان.

فلمَّا فرغ الثالث من كلامه قال الأول الذي أشار بقتل الغراب: أراكُنَّ قد غرَّكنَّ هذا الغراب وخدعكنَّ كلامه وتضرُّعه، فأنتنَّ تُردن تضييعَ الرأي والتغرير بجسيم الأمور، فمهلًا مهلًا عن هذا الرأي، وانظُرنَ نظَرَ ذوي اللبِّ الذين يعرفون أمورهم وأمور عدوِّهم، ولا يثنِكنَّ عن رأيِكنَّ فتكونوا كالعجزة الذين يغترون بما يسمعون، وتلينُ قلوبهم لعدوِّهم عند أدنى مَلَقٍ وتضرُّعٍ، وتكونوا بما تسمعون أشدَّ تصديقًا منكم بما تعلمون؛ كالنَّجار الذي كذَّب ما رأى وصدَّق بما سمع، فاغترَّ وانخدع؛ قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال



الوزير: زعموا أنَّ نجَّارًا كانت له امرأة يحبُّها، وكانت قد عَلِقت رجلًا، فاطَّلع على ذلك بعض أهل النجَّار فأخبره، فأحبَّ أن يتيقن ذلك فقال لامرأته: إني أريد الذهاب إلى قريةٍ هي منَّا على فراسخ لأعمل هنالك عملًا لبعض الأشراف، وإني غائبٌ عنكِ أيامًا فأعِدِّي لي زادًا؛ ففرحت المرأة بذلك وأعدَّت له زادًا، فلمَّا أمسى قال لها: استوثِقي من باب الدار واحفظي بيتك حتى أرجع إليك، فخرج وهي تنظر إليه حتى جاوز الباب، ثم دخل من مكانٍ خفيٍّ من منزل جارٍ له، واحتال حتى دخل تحت سريره، وأرسلت المرأة إلى خليلها أن ائتِنا؛ فإنَّ الرجل النجَّار قد خرج في حاجةٍ له يغيبُ فيها أيامًا، فأتاها الرجل فهيَّأت له طعامًا فأكلا وسَقَتْه، ثم تضاجعا على السرير ولبثا في شأنهما ليلًا طويلًا، ثم إنَّ النجَّار غلبه النعاس فنام، فخرجت رجلُه من تحت السرير، فرأتها امرأته فأيقنت بالشرِّ فسارَّت خليلها أنِ ارفَع صوتَك فسلني: أيما أحبُّ إليكِ أنا أو زوجك، وإذا امتنعتُ فألِحَّ عليَّ، فسألها عما قالت عليه فردَّت عليه: يا خليلي، ما يضطرك إلى هذه المسألة، وما

حاجتك إليها؟ فألحَّ عليها كما أوصته، فقالت له: ألست تعلمُ أَنَّا — معشَرَ النِّساء — إنَّما نُريد الأخِلَّاء لقضاء الشهوة، ولسنا نلتفت إلى أحسابهم ولا إلى شيءٍ من أمورهم، فإذا قضينا من أحدهم أرَبًا كان كغيره من الناس، فأمَّا الزَّوج فإنه بمنزلة الأب والأخ والولد، وأفضلُ من منزلتهم! فلحا الله امرأةً لا يكون زوجُها عندها كعِدل نفسها أو أحبَّ إليها منها! فلمَّا سمع النجار هذه المقالة وثِقَ من زوجته بالمودَّة، وبقي موضعه إلى الغد، فلمَّا علم أنَّ الخليل قد خرج، قام فوجد امرأته متناومة، فقعد عند رأسها وجعل يذبُّ عنها، فلمَّا تحركت قال لها زوجها: يا حبيبة نفسي، نامي فإنك بتِّ الليلة ساهرة، ولولا كراهة ما ساءكِ لقد كان بيني وبين ذلك الرجل صخَب شديد.

وإنما ضربتُ لكم هذا المثل لئلا تكونوا كذلك النجَّار الذي كذَّب بما علم وتغافل، فلا تُصَدِّقوا هذا الغراب في مقالته، واعلموا أنَّ كثيرًا من العدو لا يستطيع ضررَ عدوِّه بالمُباعدة حتى يلتمسه بالمقاربة والمسامحة، وإني لم أخَفِ الغربان حتى رأيت هذا الغراب، وسمعت مقالتكم فيه، فلم يلتفت ملك البوم وسائر وزرائه إلى كلامه.

ثم إنَّ ملك البوم أمر أن يُحمَل الغراب إلى مكانهنَّ فيوصَى به خيرًا ويُكرَم ويُحسَن إليه، فقال الوزير المشير بقتله: إذا لم يَقتُل الملكُ هذا الغراب فلتكنْ منزلتُه منكم منزلةَ العدوِّ المخوف المحترَس منه؛ فإنَّ الغراب ذو أدبٍ ومكرٍ ومكيدةٍ، وما أراه يرضى بالمُقام معنا، ولا جاء إلينا إلَّا لما يُصلحه ويُفسدنا. فلم يرفع الملك بقوله رأسًا، ولم يزدد إلَّا كرامةً للغراب وإحسانًا إليه، وكان الغراب يكلِّمه إذا دخل عليه، ويكلِّم مَن يخلو به من البوم كلامًا يزدادون به ثقةً كل يوم، وإليه استرسالًا، وله تصديقًا، ثم إنه قال ذات يوم لجماعة من البوم وفيهنَّ البوم الذي أشار بقتله: لِيُبْلِغَنَّ بعضُكنَّ الملك عنِّي أنَّ الغربان قد وترتني تِرة عظيمة بما فضحتني وعذبتني، وأني لا يستريح قلبي منهنَّ أبدًا حتى أُدرِك منهنَّ ثأري، وأني قد نظرتُ في ذلك فلم أجدني أستطيعه وأنا غراب، وقد بلغني عن بعض أهل العلم أنهم قالوا: مَن طابت نفسه عن نفسه فأحرقها بالنار، فقد قرَّب قربانًا إلى الله عظيمًا، وإنه لا يدعو عند ذلك بدعاءٍ إلَّا استُجيب له، فإن رأى الملك أن يأمُر بي فأُحرَق، ثم أدعو ربِّي فيحوِّلني بومًا لعلِّي أنتقم من عدوِّي وأشفي غليلي إذا تحولت في صورة البوم، قال اله البوم الذي كان يُشير بقتله: ما أَشَبِّهُك في حُسن ما تُبدي وسوء ما تخفي، إلَّا بالخمر الطيبة الريح الحسنة اللون الْمُنقَع فيها السمُّ المميت، أرأيتك لو أحرقناك بالنار كان جوهرُك وطباعُك تحترق معك؟ فإنَّ الشرَّ يدورُ حيثما دارت، ثم تعود إلى أصلك وطباعك؛ كالفأرة التي وجدت من الأزواج الشمس والسحابَ

والريحَ والجبلَ، فتركت ذلك كلَّه، وتزوجت جُرذًا، قال الغراب: وكيف كان ذلك؟ قال البوم: زعموا أن ناسكًا كان مستجاب الدعوة، فبينا هو ذات يوم قاعدٌ على شاطئ نهر إذ مرت به حدأة في رجلها درصة؛ فوقعت منها عند الناسك، فأدركه لها رحمة، فأخذها ولفَّها في رُدنه، وأراد أن يذهب بها إلى منزله، ثم خاف أن يشقَّ على امرأته تربيتُها، فدعا ربَّه أن يحوِّلها جارية، فتحوَّلت جارية وأُعطِيت حُسنًا وجمالًا، فانطلق بها النَّاسك إلى منزله، وقال لامرأته: هذه ابنتي فاصنعي بها صنيعك بولدك، وربَّاها أحسن التربية، ولم يُعلِمها قصَّتها وما كان منها، فلمَّا بلغت اثنتي عشرة سنة قال لها: يا بُنية! إنك قد أدركتِ، ولا بدَّ لك من زوج يقوم بأمرك ويكفُلك، ولنفرغ من الشغل بك، فاختاري من أحببت من الناس كلهم أزوِّجك منه، قالت الجارية: أريد زوجًا قويًّا شديدًا منيعًا، فقال الناسك: ما أعرف أحدًا كذلك إلَّا الشمس، فانطلق الناسك إلى الشمس فقال لها: إنَّ عندي جاريةً جميلة، وهي بمنزلة الولد لي، وأنا أسألك أن تتزوجها، فقالت الشمس: أنا أدلَّك على مَن هو أقوى مني وأشد؛ قال الناسك: ومَن هو؟ قالت: السحاب الذي يستُرني ويذهب بضوئي، فأتى الناسك السحابَ فسأله تزوُّج الجارية، فقال: أنا أدلُّك على من هو أقوى منِّي وأشد، الريحُ التي تُقبِل بي وتُدبِر، فانصرف الناسك إلى الريح فسألها تزوُّج الجارية، فقالت له: أنا أدلُّك على مَنْ هو أقوى منِّي، الجبلُ الذي لا أستطيع أن أحركه، فانطلق الناسك إلى الجبل فقال له مثل مقالته للريح، فقال له الجبل: أنا أدلك على من هو أقوى مني: الجرذُ الذي ينقُبني فلا أستطيع له حيلة ولا أمتنع منه؛ فقال الناسك للجرذ: هل أنت متزوِّج هذه الجارية؟ فقال الجرذ: كيف أتزوَّجها وجُحري ضيِّق؟ فقال الناسك للجارية: هل لكِ أن أدعوَ ربي أن يصيِّرك فأرة وأزوِّجك بالجرذ؟ فرضيت بذلك، فدعا ربه أن يحوِّلها فأرة، فتحوَّلت فأرة وتزوَّجها الجرذ؛ فهذا مَثَلك أيها المخادِع في العَود إلى أصلك.

فلم يلتفت ملك البوم ولا غيره منهنَّ إلى هذا المثل، ورفقن بالغراب، ولم يزددن له إلَّا كرامةً حتى استقلَّ ونبت ريشُه ونما وصلح وعلم ما أراد أن يعلم واطَّلع على ما أراد الاطِّلاع عليه، ثم إنَّه راغ رَوغة إلى الغربان، فقال لملكهم: أُبشِّرك بفراغي مما أردتُ الفراغ منه من أمر البوم، وإنما بَقيَ ما قِبَلك وقِبلَ أصحابك، فإنْ أنتم صَرُمْتم وبالغتم في أمركم فهو هلاك البوم؛ فقال الغربان وملكهم: نحن عند أمرك. فقال: إنَّ البوم بمكان كذا وكذا، وهنَّ بالنَّهار يجتمعن في مغار في الجبل، وقد علمت مكانًا كثير الحطب، فتعالوا نعمد إليه، وليحمل كل غراب منَّا ما استطاع إلى ذلك النقب، وقُربَ ذلك الجبل راعي

غنَم، وأنا مصيبٌ منه نارًا فألقيها في الحطب، وتعاونوا أنتم ضربًا بأجنحتكم؛ أي نفخًا وترويحًا للنار حتى تضطرم وتتأجج، فما خرج من البوم احترق بالنار، وما بقيَ مات خنقًا بالدخان؛ ففعلوا ذلك فهلك جميع البوم، ورجع الغربان إلى أوطانهن آمنات.

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: كيف صبرت على صحبة البوم، ولا صبرَ للأخيارِ على صحبة الأشرارِ؟ قال الغراب: إنَّ ذلك كذلك، ولكنَّ الرجل العاقل إذا نابه الأمرُ الفظيع الذي يخاف فيه الهلكة الجائحة على نفسه وقومه، لم يجد بدًّا من احتمال الضيق، ولم يجزع من شدة الصبر لما يرجو لذلك من رَوح العاقبة، ولم يجد لذلك مساءة، ولم يُكرِم نفسه عن الخضوع لمن هو دونه حتى يبلغ حاجته وهو حامدٌ لِغِبِّ أمره، ومُغتبط بما كان من رأيه واصطباره على ما كان فيه. قال الملك: فأخبرني عن عقول البوم، قال الغراب: لم أجد فيهنَّ عاقلًا إلَّا الذي كان يشيرُ بقتلي، وكنَّ أضعف شيءٍ رأيًا، لم ينظُرن في أمري، ولم يذكُرن أني كنت ذا منزلة من المَلك، وأنِّي أُعَدُّ من ذوي الرأي، فلم يتخوفنَ من مكري وحيلتي، وأخبرهنَّ الحازم الرأي الناصحُ فرددن نصحه، فلا هنَّ عَقَلن، ولا من ذوي الرأي قبِلن، ولا حَذِرْنَني ولا حَصَّنَّ سرَّهن دوني، وكان يُقال: ينبغي للملك أن يحصِّن دون المتهم سرَّه وأمره، فلا يدنو من موضع أسراره وأموره وكُتُبه، ولا من سلاحه ولا من طعامه وشرابه، حتى من الماء والفُرُش التي يجلس عليها، والحُلَّةِ التي يلبَسها، والدابَّةِ التي يركبها، والأدوية التي يشربها، وإكليل الريحان الذي يضعه على رأسه، والطيبِ الذي يستعمله، والشعارِ الذي يتخذه، وكلِّ شيءٍ يدنيه منه، ولا يأمنُ على نفسه إلَّا الثقة عنده.

قال ملك الغربان: لم يُهلِك ملِك البوم إلَّا بغيُه وضعفُ رأيه ورأي وزرائه، قال الغراب: صدقت، قلَّما ظفر أحد يبغي، وقلَّ من حرص على النساء فلم يفتضح، وقلَّ مَن أكثر من الطعام فلم يسقَم، وقلَّ من ابتُلِيَ بوزراء السوء إلَّا وقع في المهالك، وكان يُقال: لا يطمعنَّ ذو الكِبْر والصلَف في الثناء الحسن، ولا يطمعَنَّ الخبُّ في كثرة الصديق، ولا السيئ الأدبِ في الشرف، ولا الشحيح في البرِّ، ولا الحريصُ في قلة الذنوب، ولا الملِك المتهاون الضعيفُ الوزراءِ في بقاءِ مُلكه.

قال الملك: لقد احتملتَ مشقة شديدة بتصنُّعك للبوم وتضرُّعك لهنَّ، قال الغراب: إنه مَن احتمل مشقة يرجو فيها منفعة صبر على ذلك، كما صبر الأسْود على حَمل الضفدَع، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أنَّ أسْود كَبِر وهرِم ولم يستطِع الصيد، فدبَّ مُتحاملًا حتى انتهى إلى غديرٍ كثيرِ الضفادع، كان يأتيه فيتصيد من ضفادعه،

فوقع قريبًا من العين شبيهًا بالكئيبِ الحزين، فقال له أحد الضفادع: ما شأنك حزينًا؟ قال: ومالي لا أكون حزينًا وإنما كان خيرُ عيشي مما كنت أصيد من هذه الضفادع، فابتُليت ببلاء حُرِّمت عليَّ الضفادع، حتى إني لو أصبت بعضها لم أجترئ على أكله، فانطلق الضفدع إلى ملكها فأخبره بما سمع من الأسْود، فأتى الملك إلى الأسْود وسأله عن ذلك فأخبره به، فسرَّه ما سمعه منه، فقال له ملك الضفادع: ولِمَ ذلك؟ وكيف كان أمرك هذا؟ قال: إني لا أستطيع أن آخذ من الضفادع شيئًا إلَّا ما يتصدَّق به الملكُ عليَّ، قال: ولِمَ ذلك؟ قال: لأني سعيت في إثر ضِفدع من أيام لآخذه، فاضطررته إلى بيت ناسك، فدخل البيت ودخلتُ في أثره، وفي البيت ابن الناسك، فأصبت إصبَع الغلام وظننته الضفدع، فلدغته فمات، فخرجت هاربًا فتبعني الناسك ودعا عليَّ ولعنني وقال: كما قتلت هذا الغلام ظلمًا له، أدعو عليك أن تذِلَّ وتخزَى وتكون مركبًا لملك الضفادع وتُحرَم أكلَها إلَّا ما يتصدق به عليك ملكُها، فأتيتُ إليك لتركبني مُقِرًّا بذلك راضيًا به، فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسْود، وظنَّ أنَّ ذلك شرفٌ له ورِفعة، فركِب الأسْود أيامًا ثم قال الأسْود: قد علمتَ أني محروم ملعون، ولا أقدر على الصيد إلَّا ما تصدقت به عليَّ من الضفادع، فاجعل لي رزقًا أعيش به، فقال ملك الضفادع: لعَمْري ما لك بدٌّ من رزق تعيش به ويُقيمك، فأمر له بضفدَعين كل يوم يؤخذان فيُدفعان إليه، فعاش بذلك ولم يضُره خضوعه للعدوِّ الذليل، وصار ذلك له معيشةً ورزقًا.

وكذلك كان صبري على ما صبرتُ عليه التماسَ هذا النفع العظيم الذي حصل لنا به بوارُ عدوِّنا والراحة منه، قال الملك: وجدت صَرعة المكر أشدَّ استئصالًا للعدوِّ من صرعة المكابرة؛ فإنَّ النار لا تزيد بحرِّها وحِدَّتِها إذا أصابت الشجرة على أن تُحرِق ما فوق الأرض منها، والماء بِلِينِهِ وبَرده يستأصل ما تحت الأرض، وكان يُقال في أربعة أشياء لا يُستقَلُّ منها القليل: النار والمرض والعداوة والدَّيْن.

قال الغراب: كلُّ ما كان في ذلك فبرأي الملك وسعادةِ جَدِّه، فإنه قد كان يُقال: إذا طلب اثنان أمرًا ظفر به أفضلُهما مُروءة، فإن استويا في المروءة فأفضلهما أعوانًا، فإن استويا في ذلك فأسعدُهما جَدًّا، وقد كان يُقال: من غالَبَ الملك الحازم الأريب المصنوع له الذي لا تُبطره السرَّاء ولا يُدهِشه الخوف؛ فإنَّ حَيْنَه يجدُر به، ثم لا سيَّما إذا كان مثلك أيها الملك العالِمُ بالأمور وفُرَص الأعمال ومَواضع الشدَّة واللين والغضب والرضا والعَجلة والأناة، والناظرُ في يومه وغده وعواقب أعماله.

قال الملك: بل برأيك وعقلك كان هذا؛ فإنَّ الرجل الواحد أبلغُ في إهلاك العدوِّ من كثير العدد من ذوي البأس، وإنَّ من أعجب أمرك عندي طولَ لُبثك عند البوم وأنت

تسمع الغيظ وتراه، ثم لا تسقطُ عندهم بكلمة؛ قال الغُراب: لم أزَل مُتمسكًا بأدبك أيها الملك؛ أصحَب القريب والبعيد بالرِّفق واللين والمتابعة والمواتاة. قال الملك: وجدتك صاحبَ عمل، ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل ليست لها عاقبة، ولقد منَّ الله بك علينا مِنَّةً عظيمةً، لم نكن نجدُ قبلها لذة الطعام والنوم، فإنه كان يُقال: لا يجد السقيمُ لذَّة النوم حتى يبرَأ، ولا الرجل الشَّرِه الذي أطمعه السلطان في مال أو ولاية حتى يُنجَز له ذلك، ولا الرَّجلُ الذي قد ألحَّ عليه عدوُّه — وهو يخافه صباحًا ومساءً — حتى يستريح منه، وكان يُقال: مَن أقلعت عنه الحُمَّى استراح بَدَنه وقلبه، ومَن وُضِع عنه الحِمل الثقيل استراح مَنكبه، ومَن أمِن عدوَّه ثُلِجَ صدره.

قال الغراب: أسأل الله الذي أهلك عدوَّك أن يمتِّعك بسلطانك، وأن يجعل في ذلك صلاحَ رعيَّتك، ويُشرِكهم في قُرَّة العين بملكك؛ فإنَّ الملك إذا لم يكن في مملكته قُرَّةَ عيون رعيَّته، فمَثَله مثل ذاتِ الضرع الضخم[٦] إذا وضعت ولدها لم يكن فيه ما يكفيه، قال الملك: كيف كانت سيرةُ ملك البوم في جنده؟ قال: سيرةَ بطَر وأشَر وفخر وخُيَلاء وعجب وضَعف رأي، وكلُّ أصحابه ووزرائه كان شبيهًا به إلَّا الذي كان يُشير بقتلي. قال الملك: وما رأيت منه مما استدللت به على عقله؟ قال: لِخَلَّتين: إحداهما: رأيُه — كان — في قتلي، والأخرى: أنه لم يكن يكتُم صاحبَه نصيحة وإن استثقلها، ولم يكن كلامه مع هاتين كلامَ خُرقٍ ومكابرة، ولكن كان كلامَ رِفق ولين، حتى رُبَّما أخبره بعيبه وهو لا يغضبه، إنما يَضرب له الأمثال ويحدِّثه عن عيبِ غيره فيعرفُ به عيبه، ولا يجد للغضب عليه سبيلًا، وكان مما سمعته يقول للملك أن قال: لا ينبغي للملك أن يغفُل عن أمره، فإنه أمرٌ جسيمٌ لا يَظفَر بمثله إلَّا القليل، ولا يُنال إلَّا بالحزمِ، وهو خفيف الاستقرار كالقرد الذي لا يستقرُّ ساعة واحدة، وهو في الإقبال والإدبار كالرِّيح، وفي الثقل كصحبة البغيض، وفيما يُخاف من معاجلة عطَبه كلسعة الحيَّة، وفي سرعة الذهاب كحبَاب الماء من وَقْع المطر.

[٦] في شيخو: «مِثل زنمة العنز التي تتصيدها الحدأة، فلا تجد فيها خيرًا.» والظاهر أنَّها محرفة عمَّا في النسخ الأخرى: «زنمة العنز التي يمصها الجدي وهو يحسبها حلمة الضرع فلا يصادف فيها خيرًا.»

باب القرد والغيلم

قال الملك للفيلسوف: قد سمعتُ هذا المثل، فاضرِب لي مَثَلَ الرجل الذي يطلب حاجته حتى إذا ظفر بها أضاعها.

قال الفيلسوف: إنَّ إصابة الحاجة أهونُ من الاحتفاظ بها، ومن ظَفِرَ بأمرٍ ولم يُحسِن الاحتفاظ به أصابه ما أصاب الغَيْلم الذي ضيَّع القِرد بعد أن استمكن منه، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّ جماعة من القِرَدة كان لها ملك يُقال له فاردين،[1] فطال عُمرُه حتى بلغ الهَرَم، فوثب عليه قرد شابٌّ من أهل بيته، فقال للقردة: قد هَرِم هذا، وليس يقوى على المُلك ولا يصلح له، ومالأه على ذلك جنده، فنَفَوا القِرد الهَرِم، وملَّكوا الشاب، فانطلق هاربًا، فلحق بساحل البحر، فانتهى إلى شجرةٍ من شجر التين نابتةً على شاطئ البحر، فجعل يأكل من تينها، فسقطت منه تينة في الماء، وفيه غَيلَم — وهو السحلَفاة الذكر — فلمَّا سقطت التينة أخذها الغيلم فأكلها، فلمَّا سمع القِرد وَقْع التين في الماء أعجبه ووَلِع بإلقائه في الماء، وجعل الغيلم يأخذه فيأكله، ولا يشكُّ أنَّ القرد إنما يطرح التين من أجله، فخرج الغيلم إلى القرد فتصافحا وتصادقا، وألِف كل واحدٍ منهما صاحبه، ولبثا زمانًا لا ينصرف الغيلم إلى أهله، وإنَّ زوجة الغيلم حزِنت لغيبة زوجها، فشكت ذلك إلى صديقة لها وقالت: لعلَّه أن يكون قد عَرَض له عارضٌ من شرٍّ! فقالت لها صديقتها: لا تحزَني؛ فإنه قد بَلَغني أنَّ زوجك بالساحل مع

[1] في النسخ الأخرى ما عدا شيخو: «ماهر»، وفي شيخو: «قادرين»، وهو تحريف «فاردين»، وفي السريانية الحديثة: «بلودين» وتعريبها: «فاردين» كما في نسختنا. وفي السريانية القديمة: «بوليكيك»، وفي السنسكريتية: «ركتا موخا»، فالاسم «فاردين» تتفق عليه نسختنا وشيخو والسريانية الحديثة.

قردٍ قد ألفه، فهما يأكلان ويشربان ويلهُوان، وقد طالت غيبته عنك، فانسَيْه إذ نسيك، وَلْيَهُنْ عليك إذ هُنتِ عليه، وإن استطعت أن تحتالي للقرد فتُهلكيه فافعلي؛ فإنَّ القِرد لو هلك قَدِم عليك زوجُك وأقام عندك، فأشحبت زوجة الغيلم لونها وضيَّعت نفسها حتى أصابتها نَهكةٌ شديدةٌ وهُزال.



ثم إنَّ الغيلم قال في نفسه: لآتينَّ أهلي فقد طالت غيبتي، فأتى منزله فوجد زوجته عليلة منهوكة سيئة الحال،[٢] فقال لها: يا أختِ، كيف أنت؟ فلم تُجِبه. فقال: إني أراك منهوكة، فلم تجبه، فأعاد المسألة فأجابت عنها جارةٌ لها وقالت له: ما أشدَّ حالَ زوجتك!

[٢] في السريانية أن زوج الغيلم كتبت إليه أنها مريضة مُشْفِيَة على الموت، وأنَّ القرد أشار عليه أن يلتمس لها الدواء ويذهب إليها.

أمَّا مَرَضها فشديد، وأمَّا الدواء فأشدُّ، فهل لشدَّة الداء وعدم الدواء إلَّا الموت؟ فقال الزوج: فأخبريني بالدواء لعلِّي أقدر عليه وألتمسه حيث كان، قالت: هذا المرض نحن — معاشرَ النساء — أعلم به، وليس له دواءٌ إلَّا قلبُ قرد، قال الغيلم في نفسه: هذا أمرٌ عسيرٌ، من أين أقدر على قلب قرد إلَّا قلب صديقي؟ أفغادر بصديقي أم مُهلِك زوجتي؟ وكل ذلك لا عذرَ ليَ فيه، ثم قال: إذا لم يستطع الرجل عظيمًا إلَّا باحتمال صغير كان حقيقًا ألَّا يلتفت إلى الصغير، وحقُّ الزوجة بعدُ عظيم، والمنافع فيها كثيرة، والمعونة منها على أمر الدنيا والآخرة غيرُ واحدة، وأنا حقيقٌ أن أوثِرها ولا أُضيِّع حقَّها، ثم غدا متوجِّهًا نحو القرد، وفي نفسه مما يريده حَيرة، وهو يقول: إنَّ إهلاكي أخًا وفيًّا وَصولًا في سبب امرأة لمن الأمور التي تُخاف عواقبها، وليست لله رضًا. فمضى على ذلك حتى أتى القِرد، فحيَّاه، وقال: ما حَبَسك عني يا أخي كلَّ هذا الحبس؟ قال الغيلم: إنَّ مما بطَّأني عنك مع شوقي إليك الحياءَ منك والاحتشامَ، لقلَّة مكافأتي إياك بحسن بلائك ومعروفك إليَّ، فإني، وإن كنت قد عرفت أنك لا تلتمس مني جزاءً بمعروفك، فإني أرى حقًّا عليَّ التماس مكافأتك، وأمَّا أنت فخليقتك خليقة الكرام الأحرار الذين يُنيلون الخير مَن لم يُنِلهم إياه فيما مضى ولا يرجونه منه فيما بقي، والذين لا ينسون جزاءه، فقال له القرد: لا تقولَنَّ هذا ولا تحتشمني، فأنت الجامع فيما بيني وبينك للأمرين جميعًا: الابتداءُ بما تجب لك فيه مني المكافأة، والمكافأةُ منك بأحسن ما رأيت، وقد سقطتُ إليك من وطني شريدًا طريدًا، وكنتَ لي سَكَنًا وإلفًا أذهبَ الله عنِّي بك الهمَّ والحَزَن، قال الغيلم: إنَّ أمورًا ثلاثة تزداد بها لطافة ما بين الإخوان، واسترسالُ بعضهم إلى بعضٍ؛ منها المؤاكلة، ومنها الزِّيارة في الرَّحْل، ومنها معرفة الأهل والحشَم، ولم يَجْرِ بيننا من ذلك شيء، وقد أحببتُ أن يكون ذلك.

فقال القرد: إنما ينبغي للصديق أن يلتمس من صديقه ذات نفسه، فأمَّا النظرُ إلى الأهل والحشم فإنَّ اللعَّاب الذي يلعب على الخشبة ينظرُ إلى كثيرٍ مما لا تراه العيون من أهل الناس وحشمهم، وأمَّا المؤاكلة فإن كثيرًا من الخيل والبِغال والحَمير يجتمعن على الأكل، وأمَّا دخول الرجل بيتَ صاحبه فقد يدخل السارقُ إلى رحالِ معارفه لغير حبِّهم وإلطافهم إلَّا إرادة ما لهم، فلا يصلُ اللعَّابُ الناس بنظره إليهم وإلى حشمهم، ولا الدواب بعضُها بعضًا باجتماعها في الأكل، ولا اللصوص معارفَهم بدخولهم رحالهم، ولا لهؤلاء إذن حرمةٌ وحقٌّ لبعضهم على بعض. قال الغيلم: قد صدقت، لعمري ما يلتمس الصديق من صديقه إلَّا المودَّة، فأمَّا مَن كان يلتمس منافع الدنيا فهو خليقٌ أن ينقطع ما

بينه وبين إخوانه، وقد كان يُقال: لا يُكثرنَّ الرجلُ على إخوانه حَمل المُؤْنات حتى يؤذيهم ويبرمهم؛ فإنَّ عِجل البقرة إذا أكثر مصَّه إياها وإفراطُه أوشكت أن تضربه وتنفيه، ولم أذكر ما ذكرتُ ألَّا أكون أعرِف منك الكرم والسعة في الخلق؛ ولكن أحببت أن تزورني في منزلي، فإنه في جزيرةٍ كثيرة الشجر طيبة الفواكه، فأسعِفْني بطلبي، واركب ظهري لننطلق إلى منزلي؛ فرغب القرد في الفواكه، وتابع الغيلمَ وركبَ ظهره، فسبح به الغيلم حتى إذا لجَّج به في البحر، عرض في نفسه قبحُ ما يريده وفجورُه وغدرُه، فاحتبس مفكِّرًا يقول في نفسه: إنَّ الأمر الذي هممتُ به أمرُ كفرٍ وغدرٍ، وما الإناث بأهلٍ أن يُركَب بأسبابهنَّ الغدرُ واللؤم؛ فإنهنَّ لا يُوثَق بهنَّ، ولا يُسترسَل إليهنَّ، وقد قيل: إنَّ الذَّهب يُعرف بالنار، وأمانةَ الرَّجل بالأخذ والعطاء، وقوة الدواب تعرف بالحمل الثقيل، والنساء ليس لهنَّ شيءٌ يُعرفن به؛ فلما رأى القرد احتباس الغيلم وأنه ليس يسبح، ارتاب وقال في نفسه: ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلَّا لأمر، فما يؤمنني أن يكون[٣] قد رجع عمَّا كان عليه من مودَّتي وإخائي، وانصرَف إلى غير ذلك، فأراد بي سوءًا؟ فقد علمتُ أنه لا شيءَ أخف وزنًا ولا أشد تغيُّرًا ولا أسرع انقلابًا من القلب، وقد كان يُقال: لا يَغفُل العاقل عن التماس عِلمِ ما في نفس أهله ووَلَده وإخوانه وصديقه عند كل أمر، وفي كل لحظة وكلمة، وعند القيام والقعود، وعلى كل حال؛ فإنَّ ذلك شاهدٌ على ما في القلوب. ثم قال للغيلم: ما يحبسك؟ وما لي أراك كأنك مهموم؟ قال يُهِمُّني أنك تأتي منزلي فلا توافق فيه كلَّ الذي أحبُّه لك، فإن زوجتي عليلة، قال القرد: لا تهتمَّ؛ فإنَّ الهمَّ لا يُغني شيئًا، والتمس لزوجتك الأدوية والأطبَّاء، فإنه كان يُقال: ليبذل الرجل ماله في ثلاثة مواضع: في الصدقة إن أراد الآخرة، وفي مصانعة السلطان إن أراد المنزلة في الدنيا، وفي النِّساء إن أراد خَفض العيش.

قال الغيلم: زعمت الأطباء أنه لا دواءَ لها إلَّا قلبُ قرد، فقال القرد في نفسه: وا سوءتاه! لقد أورطني الحرصُ والشره على كِبَرِ السن شرَّ مُورط، لقد صدق الذي قال: يعيش القانع الراضي آمنًا مُطمَئنًّا مستريحًا مُريحًا، وذو الحرص والشره لا يعيش ما عاش إلَّا في تعبٍ ونَصَبٍ وخَوفٍ، وأراني قد احتجتُ إلى عقلي في التماس المخرج مما

[٣] في الأصل: «فلمَّا رأى القرد احتباس الغيلم قد رجع عمَّا كان عليه»، وقد تداركنا السقط من النسخ الأخرى.

وقعت فيه، ثم قال للغيلم: يا خليلي، إنه ليس ينبغي للخليل أن يدَّخِر عن صاحبه نصيحة ولا منفعة، وإن أضرَّ ذلك به في نفسه، ولو كنتُ علمت بهذا كنت قد جئت بقلبي معي؛ قال الغيلم: وأين قلبك؟ قال: خلَّفته في مكاني الذي كنت فيه، قال: وما حَمَلك على ذلك؟ قال: سُنَّة فينا معشَرَ القرود، إذا خرجنا إلى زيارةِ أخٍ أو صديقٍ نُخلِّف قلوبنا لتزول الظِّنَّة عنَّا، فإن شئتَ أتيتُك به سريعًا، ففرح الغيلم بطيب نفسِ القرد، وانقلب به راجعًا، حتى إذا بلغ الساحل وثب القرد إلى الشجرةِ فصعِدها، وأقام الغيلم ساعةً ينتظره، فلمَّا أبطأ عليه ناداه الغيلم: يا خليلي، عجِّل: خذ قلبك وانزل، فقد حبستني، فقال القرد: أظنُّك تراني كالحِمار الذي زعم الثعلب أنه ليس له قلبٌ ولا أذنان، قال الغيلم: وكيف كان ذلك؟

قال القرد: زعموا أنَّ أسدًا كان في أجمة ومعه ابن آوى يأكل من فُضولِ صيده، فأصاب الأسد جَرَبٌ شديدٌ حتى ضعف فلم يستطع الصيد، فقال له ابن آوى: ما شأنك يا سيِّد السباع؟ قد تغيَّر حالُك وقلَّ صيدُك، فأنَّى ذلك؟ فقال الأسد: ذاك لهذا الجربِ الذي ترى، وليس دوائي إلَّا أن أُصيب أُذُنَيْ حِمار وقلبَه، فقال ابن آوى: قد عرفتُ ههنا مكانَ حِمار يجيء به قصَّار إلى مرجٍ قريبٍ منَّا، يحمل عليه ثيابه التي يغسلها، فإذا وضع عنه الثياب خلَّاه في المرج، فأنا أرجو أن آتيك به، ثم أنت أعلم بأذنيه وقلبه، قال الأسد: إن قدرت على ذلك فافعل ولا تؤخِّرنَّ؛ فإنِّ الشفاء لي فيه، فذهب ابن آوى إلى الحمار، فقال له: ما هذا الهُزال الذي أرى بك؟ والدَّبَر الذي بظهرِك؟ قال الحمار: أنا لهذا القصَّار الخبيث، فهو يُسيءُ علفي ويُديم إتعابي، ويُثقِل ظهري، قال ابن آوى: وكيف ترضى بهذا؟ قال: فما أصنع؟ وأين أذهب؟ وكيف أفلت من أيدي الناس؟ قال له ابن آوى: أنا أدلُّك على مكانٍ منعزلٍ خصيبِ المرعى، لم يطأه إنسانٌ قطُّ، فيه أتان لم ينظر الناس إلى مثلها قط حُسنًا وتمامًا، وهي ذات حاجة إلى الفحل؛ فطرب الحمار عند ذكر الأتان وقال: ما يحبسنا؟ ألا انطلق بنا، فإني لو لم أرغب في إخائك كان ذلك حاملي على الذهاب معك، فتوجَّها جميعًا قِبَل الأسد، وتقدَّم ابن آوى إلى الأسد فأعلمه، فوثب الأسد على الحمار من خَلفِه فلم يضبطه، وانفلت الحمار، فقال ابن آوى للأسد: ما هذا الذي صنعتَ؟ إن كنتَ عَمدًا تركتَ الحمار فلِمَ عنَّيتَني في طلبه؟ وإن كنتَ لم تضبِطه فذاك أعظم، وقد هَلكنا إذا كان سيِّدُنا لا يضبط حمارًا! فعرف الأسد أنَّه إن قال «تركته عمدًا» سفَّهه، وإن قال «لم أضبطه لضعفٍ» هان عليه، فقال: إن أنت استطعت ردَّ

الحمار إليَّ أخبرتك بما سألت عنه، فقال ابن آوى: لقد جرَّب الحمار منِّي ما جرَّب، وإني بعد ذلك لعائدٌ إليه فمحتال له بما استطعت، فعاد إلى الحمار، فقال له: ما الذي أردت بي؟ قال ابن آوى: أردتُ بك الخير، ولكن الذنب لإفراط الغُلمة والشهوة؛ فإنَّ التي وثبت عليك هي الأتان التي أخبرتك عنها، وإنما وثبتْ عليك من شدَّةِ الودَق، فلو كنتَ صبرت ساعة صارت تحتك، فلمَّا سمع الحمار بالأتان ثانية هاجت به الغُلمة فانطلق مع ابن آوى يسعى، فوثب عليه الأسد فافترسه، حتى إذا فرغ منه قال لابن آوى: إنه وُصِف لي هذا الدواء على أن أغتسل ثم آكل الأذنين والقلب، وأجعل ما سوى ذلك قُربانًا، فاحتفِظ بالحمار حتى أغتسل وأرجع إليك، فلمَّا ذهب الأسد عَمَدَ ابن آوى إلى أُذُنَي الحمار وقلبه فأكلها رجاءَ أن يتطيَّر الأسد من ذلك، فلا يأكل من بقيَّة الحمارِ شيئًا، فلمَّا رجع الأسد قال لابن آوى: أين قلب الحمار وأذناه؟ قال ابن آوى: أوَ ما شَعَرتَ أنَّ هذا الحمار لم يكن له قلبٌ ولا أُذُنان؟ قال الأسد: ما سمعتُ بأعجبَ من مقالتك! قال ابن آوى: لو كان له قلب وأذنان لِمَ يرجع إليك الثانية بعد أن صنعت به ما صنعت!

وإنما ضربتُ لك هذا لتعلم أني لستُ كذلك، ولكنك احتلت لي وخدعتني بقولك فكافأتك بمثل ذلك، واستدركت تفريطي وما كنت ضيَّعت من نفسي، قال الغيلم: أنتَ الصادق البارُّ، وذو العقل يُقِلُّ الكلام، ويبالغ في العمل، ويعترف بالزلَّة، ويتثبت في الأمور قبل الإقدام عليها، ويستقيل عثرة عمله بعقله، كالرجل الذي يعثر على الأرض وعليها ينهض ويستقيم.

فهذا مثل الذي يطلب أمرًا حتى إذا استمكن منه أضاعه.

باب الناسِك وابن عِرس

قال الملك للفيلسوف: قد سمعتُ هذا المثل، فاضرب لي مَثَل الرجل الذي يعمل العمل بغير رويَّة ولا تثبُّت.

قال الفيلسوف: من لم يكن في عمله متأنيًا وفي أمره مُتَثبتًا لم يبرح نادمًا، ومن أمثال ذلك مَثَل الناسك وابن عِرس، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّه كان بأرض جُرجان ناسك، وكانت له امرأة لبثت عنده زمانًا لم تلد، ثم حملت من بعد، فاستبشر بذلك الناسك وقال لها: أبشري فإني أرجو أن تلدي غلامًا يكون لنا فيه متاع وقُرة عين، وأنا متقدم في التماس ظِئر، ومتخيِّرٌ له من الأسماء أحسنها، قالت المرأة: أيها الرجل، ما يحملك على أن تتكلم فيما لا تدري هل هو كائن أو غير كائن؟ فاسكت عن هذا الكلام، وارضَ ما قسم الله لنا؛ فإنَّ العاقل لا يتكلم فيما لا يدري ولا يحكم على المقادير في نفسه، ولا يقدِّر في نفسه شيئًا، ومَن تكلَّم فيما لا يدري — وقلَّ أن يكون — أصابه ما أصاب الناسك المُهريق السمن والعسل على رأسه، قال الناسك: وكيف كان ذلك؟ قالت المرأة: زعموا أنَّ ناسكًا كان يجري عليه من بيت رجلٍ من التجار رِزقٌ من السَّوِيق والسمن والعسل، فكان يُبقي من ذلك السمن والعسل، فيجعلُ الباقي منها في جرَّة ثم يعلِّقها في بيته، فبينما الناسِك ذات يوم مستلقٍ على ظهره والجرَّةُ فوق رأسه إذ نظر إليها فذكر غَلاء السمن والعسل، فقال: أنا بائعٌ ما في هذه الجرَّة بدينارٍ، فأشتري بالدينار عشرة أعنُز، فيحملن ويلدن لستة أشهر — ثم حزر على هذا الحساب لخمس سنين، فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنْز — ثم أبيعها فأشتري بأثمانها مائة من البقر، بكلِّ أربعة أعنز ثورًا، وأصيب بَذرًا فأزرع على الثيران، فلا يأتي عليَّ خمسُ سنين إلَّا وقد أصبت منها ومن الزرع مالًا كثيرًا، فأبني بيتًا فاخرًا، وأشتري عبيدًا وإماءً ورياشًا ومتاعًا، فإذا فرغتُ من ذلك تزوَّجت امرأةً جميلةً ذات حسَب، فإذا دخلت بها أحبلتها،

ثم تلد ابنًا سويًّا مباركًا فأسمِّيه مامه وأؤدِّبه أدبًا حسنًا، وأشتدُّ عليه في الأدب، فإن لم يقبل الأدب منِّي ضربته بهذه العصا هكذا، ورفع العصا يُشير بها فأصابت الجرَّة فانكسرت، وانصبَّ السمنُ والعسل على رأسه ولحيته.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتنتهي عن الكلام فيما لا تدري، فاتَّعَظ الناسك بقولها، ثم إنَّ المرأة ولدت غلامًا سويًّا، فسُرَّ به أبوه، حتى إذا كان بعد أيام قالت المرأة لزوجها: اقعد عند الصبي حتى أغتسل وأرجع إليك، فانطلقت المرأة، ولم يقعد الرجل إلَّا قليلًا حتى جاءه رسولُ الملك فذهب به، ولم يُخَلِّف مع ابنه أحدًا، إلَّا أنه قد كان له ابن عِرسٍ قد ربَّاه فتركه الرجل عند ابنه، وكان مؤدَّبًا معلَّمًا، وذهب إلى الملك.

وكان في بيته جُحرُ أسْودَ، فخرج يريد الغلام، فوثب عليه ابن عِرسٍ فقطَّعه قِطَعًا، وأقبل الناسك عند انصرافه إلى منزله فدخله، فلقيه ابن عرس يسعى إليه كالمُبشِّر له بما صنع، فلما نظر إليه الناسك متلطِّخًا بالدم سُلِب عقله، ولم يظن إلَّا أنه قد قتل ولده، فلم يتأنَّ ولم يتثبت في أمره، فضرب ابن عِرس بعصًا كانت معه فقتله، ودخل منزله فرأى الغلام حيًّا والأسْود مقتولًا، فأقبل يدقُّ صدره ويلطم وجهه وينتف لحيته، وجعل يقول: ليت هذا الغلام لم يولد، ولم أَصِر إلى هذا الإثم والغَدر، فدخلت عليه المرأة وهو يبكي فقالت له: ما يبكيك؟ وما شأن هذا الأسْود وابن عِرس مقتولين؟ فأخبرها بالأمر وقال: هذا جزاءُ من يعمل بالعجلة ولا يتثبَّت.

باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند[١]

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرتَ في أمرِ العَجِل غير المتَّئِد ولا الناظر في العواقب، فأخبرني ما الذي إذا عمل به الملك كَرُم على رعيَّتِه، وثبَّت ملكه، وحفِظ أرضه؟ آلحلمُ أم المروءةُ أم الجودُ أم الجُرأةُ؟

قال الفيلسوف: إنَّ أفضل ما حَفِظ به الملكُ مُلكه، وثبَّت به سلطانه، وكرَّم به نفسه، هو الحلم والعقل؛ لأنهما رأس الأمور ومِلاكها، مع مشاورة اللبيب الرفيقِ العالِم، وأفضلُ ما يستمتع به الناس الحلمُ، ثم للملك خاصةً؛ فإنَّه لا شيءَ أفضلُ ولا أعوَنُ منه، ومِن صلاح المرء في نفسه ومعيشته، المرأةُ الصالحة الفاضلة الرأي المواتيةُ؛ فإنَّ الرجل إن كان شجاعًا ولم يكن حليمًا عاقلًا، أو كان حليمًا عاقلًا وشاور غير لبيب، فإنه يبهظه الأمرُ اليسير حتى يُرى فيه القبح والضعف بجهالته وخطأ رأي أصحابه ونُصحائه، وإن أصابوا ظَفَرًا أو لقُوا رشدًا ساقه القدر إليهم صارت عاقبة أمرهم إلى الندامة، وإذا كان على خلاف ذلك من الفضل ومن نُبل الوزير، ثم أعانه القضاء، أصاب الفَلَج

[١] هذا الباب مؤخَّر عن هذا الموضع في النسخ الأخرى إلَّا في نسخة شيخو، يفصل بينه وبين «باب الناسك وابن عِرس» ثلاثة أبواب في النسخ المصرية، وأربعة في نسختي اليازجي وطبارة. وهنا يبدأ اختلاف النسخ في ترتيب الأبواب، بعد اتفاقها على الأبواب الخمسة التي يتضمنها الأصل الهندي «بنجا تنترا» (انظر المقدمة). وعنوان هذا الباب في الأصل: «باب إبلاد وبلاذ وشادرم»، وقد وضعنا «إيراخت» بدل «بلاذ» مراعاةً لمتن الكتاب. وفي شيخو: «باب إيلاذ وشادرم وإيراخت»، وفي النسخ الأخرى العربية: «باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت»، وفي ابن الهبارية: «باب هيلار ملك الهند ووزيره بيلار»، وفي السريانية: «باب بيلار الحكيم».

على من خاصمه، والغلبةَ على من ناوأه، والسرور له، كما زُعِم لنا مما كان بين شادْرَم ملك الهند وإيراخت امرأته وإبلاد صاحب سرِّه ورأيه، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: ذُكِر لنا أنَّ إبلاد كان ناسكًا مُجتهدًا حسن الخُلق لبيبًا حليمًا حكيمًا كاملًا؛ فبينما شادْرم الملكُ نائمًا في بعض الليالي إذ رأى ثمانية أحلام، يستيقظ عند كل منها، فلمَّا أصبح دعا بالبرْهميين — وهم النسَّاك — فقصَّ عليهم ما رأى.

وأمرهم أن يَعبُروها، فقالوا له: قد رأيت أيها الملك أمرًا مُنكرًا عجيبًا لم نسمع بمثله فيما مضى، فإن أحببت أن نفكِّر فيها ستَّة أيام ثم نأتيَك في اليوم السابع فنخبرَك به، فلعلَّنا — إن استطعنا — أن ندفعَ ما نتخوَّف منه. فقال الملك: نعم، اعملوا برأيكم وما تعلمون أنه موافق، فخرجوا من عنده ثم اجتمعوا فقالوا: ما طال العهدُ منه مُذ قتل منَّا اثني عشر ألفًا، وقد استمكنَّا منه، فإذ أفضى إلينا بسرِّه وعرَّفنا فَرَقه من رؤياه، فلعلَّنا ننتقم منه إن نحن أغلظنا له في القول، فيحمله الخوف على أن يُتابعنا على ما نريد، فنأمره أن يدفع إلينا من يكرُم عليه من أهله ووزرائه، ونقول له: إنَّا قد نظرنا في كتبنا فلم نجد شيئًا يصرف عنك سوء ما رأيتَ إلَّا قتل من نُسمِّي لك، فإن قال: مَن تريدون؟ قلنا له: إيراخت امرأتَك وابنها جُوبَر وابن أختك، وإبلاد[٢] صاحب أمرك — فإنه ذو حيلةٍ وعلمٍ — وكاك[٣] كاتبك ولسانك، والفيل الأبيض الذي تقاتل عليه، والفيلين العظيمين، والفرس الذي تركبه، والبُختيَّ الذي تسير عليه، وكتايايرون[٤] الفقيه، لنجعل دماءهم في أبزَن ثم نُقعِدك فيه، فإذا أردنا أن نُخرِجك منه اجتمعنا معشَرَ البراهمة من الآفاق الأربعة فرقَيناك ومسحناك بالماء والأدهان الطيِّبة، ثم صيَّرناك إلى مجلسك وقد

---

[٢] في النسخ اختلاف في أسماء الملكة وابنها والكاتب ... إلخ، فمن شاء فليرجع إلى ترجمة فَلْكُنر صفحة ٣٠٤، ومقدمة رَيْت للنسخة السريانية صفحة XX. «إيراخت» تسمى في النسخة السريانية الحديثة «إيلار»، ولا يبعد أن يكون محرَّفًا عن «إيراخت» في الخط الفهلوي، والابن «جوبر» يسمَّى في السريانية: «جور»، وهو في السنسكريتي: «جوبالا».

[٣] في الأصل ونسخة شيخو وابن الهبارية والنسخ الأخرى: «كال» ولكن يتبين من كلام رَيْت أنَّ أصله «كا كا»، وأن تعريبه «كاك».

[٤] في الأصل: «كبانايرون» على اختلاف الإعجام أثناء الباب، وفي شيخو: «كنان ابزون»، وفي ابن الهبارية: «كبار»، وهو اختصار «كباريون» الذي في النسخ الأخرى، وفي السريانية القديمة: «كنتارون». وفي الحديثة ما في القديمة، وأحيانًا «كياكرون»، و«كيابرون»، والأصل السنسكريتي: «ماها كاتيانا». فأصحُّ قراءة للصورة التي في نسختنا هي «كتايايرون».

أذهب الله عنك ما تجد من الحزن من سوء رؤياك التي رأيت، فإن أنت صبرت على هذا وطابت به نفسك نجوتَ من البلاء العظيم الذي قد رهقك وأشرف عليك، واستخلفت مكانهم مثلهم، وإن لم تفعل فإنَّا نتخوَّف أن يُنزعَ مُلكك وتهلك، ويُستأصل عَقِبك.

فلما أبرم البرهَمِّيون أمرهم واتفقوا عليه أتوا الملك وقالوا: إنَّا قد نظرنا في كتبنا وتبحَّرنا فيها، وتفكَّرنا في رؤياك، وأعملنا المعقول فيها، فلسنا نقدر أن نُعلِمك بما قد رأينا لك حتى تُخلِيَ لنا مجلسك؛ ففعل ذلك، فقصُّوا عليه الأمر على ما اجتمعوا عليه، فقال الملك: الموتُ دون ما قلتموه، وما أسمع منه، أفأقتل هذه الأنفس التي هي عندي عِدلُ نفسي، وأحتمل الإثم والوِزر؟ ولا بدَّ من الموت على كل حال، ولست ملكًا طولَ الدهر، وسواءٌ عليَّ الهلاكُ وفراقُ الأحبة، فقال البرهميُّون: إن أنت لم تغضب، أخبرناك أنَّ رأيك هذا مخطئ، وأنك لم تُصِبْ إذ أهنتَ نفسك وآثرتَ عليها غيرها، ولستَ لشيءٍ غيرها مُكرِمًا إذا أنت أهنتها، وأنت واجدٌ من هؤلاء عِوَضًا، ولا تجد من نفسك عوضًا، ولَعَمْرِي لأن تَفدِيها بما سمَّينا لك أمثلُ وأخيَرُ، فيبقى ملكك وسلطانك، ويصلح أمرك، فانظر لنفسك ودع من سواها؛ فإنه لا شيءَ يعدِلها.

فلمَّا رأى الملك أنَّ البرهميِّين قد أغلظوا له في القول واجترءوا عليه، قام فدخل منزله، ووقع لوجهه، وجعل يتقلب يمينًا وشِمالًا محزونًا مهمومًا، ويفكِّر في رأيه: أيَّ الأمرين يركب؟ آلموتَ عيانًا وهو ينظر إليه أو إعطاءَهم ما سألوا؟ فمكث كذلك أيامًا، وفشا الحديثُ في أرضه، وقيل: لقد نزل بالملك أمرٌ هو منه في كَرْب، فلما رأى إبلاد الأمر الذي وقع فيه الملك من ذلك، فكَّر ونظر، وكان فَطِنًا مجرِّبًا، فقال: ما ينبغي لي أن أستقبل الملك بشيءٍ دون أن يدعوني، ولكني أنطلق إلى إيراخت امرأةِ الملك فأسألُها عن ذلك، فأتاها فقال: إني لا أعلم الملكَ ركِب من أمره صغيرة ولا كبيرة، منذ كنت معه إلَّا بمشورتي، وإني كنتُ صاحب سرِّه ولم يكن يكتمني شيئًا طرأ عليه، وكان إذا حزبه أمرٌ مُفظِع عزَّى نفسه فيه واصطبر على ما نزل عليه منه، وذكر لي ذلك، فأسلِّيه عن أمره بأرفقِ ما أقدِر عليه، وإني أراه مُستخليًا بالبرهميين منذ سبعة أيام، وقد احتجب فيها عن الناس، وإني أخاف أن يكون قد أطلعهم على دخيلة أمره، ولستُ آمَنُهم عليه، فاذهبي إليه وسَليه عن حاله، وما بلغه، وما الذي ذكروا له؟ ثم أعلميني؛ فإني لا أستطيع أن أدخلَ عليه، وإني لأحسبهم قد زيَّنوا له أمرًا قبيحًا وحملوه على عظيمةٍ أو أغضبوه بشيءٍ شبَّهوا له فيه؛ فإنَّ مِن أخلاق الملك إذا هو اغتاظ ألَّا يلتفت إلى أحدٍ ولا يسأل عن شيءٍ ولا ينظر فيه، وسواءٌ عليه جسيم الأمور وحقيرها، ولست أشكُّ أنهم لم يَنصَحوه لما في قلوبهم

من الحقد عليه والبغض له، وأنهم إن قدَروا على هَلكَته التمسوا له الحيلة في ذلك، قالت إيراخت: إنه كان بيني وبين الملك كلام، ولست آتيته ما دام حزينًا، قال إبلاد: لا تحْمِلنَّ الحقد في مثل يومك هذا؛ فلن يقدر أحدٌ أن يدخل عليه غيرُك، وقد كنت سمعتُه يقول غير مرة: إني إذا حزنت واهتممت فأتتني إيراخت سُرِّيَ ذلك عني، فانطلقي إليه وكلميه بما تظنِّين أنه تطيب به نفسه ويُجَلِّي عنه ما به. فلمَّا سمعت ذلك إيراخت نهضت إلى الملك فدخلت عليه وجلست عند رأسه وقالت له: ما أمرُك أيها الملك السعيد المحمود؟ وما الذي قال لك البرهميون؟ فإني أراك مهمومًا حزينًا، فإن كان الذي ينبغي لك أن تحزن له أمرًا فيه أجَلُنا وهو جَلاءُ همِّك وسرورُك، واسيناك بأنفسنا، فافعل ذلك، وإن يكُ غضبًا علينا، نُرضِك ونأتِ ما يَسُرُّك، قال الملك: لا تسأليني أيتها المرأة عن شيءٍ فتزيديني خبالًا على ما بي؛ فإنه لا ينبغي أن يُعلَم ذلك لعظم خطره وشدة هوله.

قالت إيراخت: وقد صار أمري عندك إلى أن تجيبني بمثل ما قد سمعت! أوَ ما تعلم أنَّ أفضل الرأي للملك إذا وقع به الأمر الذي يَبهظُه أن يشاور أهل نصيحته ومودته ومَن يُهِمُّه أمره وهمُّه وما أحزنه؛ فإنَّ المذنب لا يقنط من الرَّحمة، ولكنه يتوب مما يخاف مغبَّته، فلا يدخلنَّك من الهمِّ والحَزَن ما أرى بك؛ فإنهما لا يرُدَّان شيئًا بل يُشْمِتان العدو ويسوءان الصديق، وأهلُ العلم والتجارب ينظرون في ذلك، ويَصبِرون أنفسهم على ما فاتهم من عَرَض الأطماع، وما نزل بهم من حوادث الزمان. فقال الملك: أيتها المرأة، لا تسأليني عن شيءٍ؛ فإنَّ في الذي تفحصين عنه دماري وهلاكك وولدك وكثير من أهل وُدِّي؛ فإن البرهميين زعموا أنْ لا بدَّ من قتلك وقتل أهلي ونصحائي، ولا خيرَ لي في العيش بعدكم، ولا لذَّةَ لي بعد فراقكم، وذلك أفظع الأمور وأجلُّها خطرًا في نفسي، قالت إيراخت: لا يُحزِنك الله أيها الملك ولا يسُوءْك، أنفسنا لك الفداء، فإن ذلك يسير في صلاحك وبقائك، وقد جعل الله لك من الأزواج ما فيه الخَلَف والعِوَض، ولكن أطلب إليك بعد موتي ألَّا تثق بالبرهميين ولا تستشيرهم ولا تقبل رأيَ أحدٍ منهم، حتى تؤامر فيه أهل نصيحتك والثقةِ لك، وتعرف ما تُقدِم عليه فيه من القتل؛ فإنَّ القتل عظيمُ الخطب شديدُ الوزر، ولست تقدر أن تُحييَ مَن أهلكت، وقد قيل: إن وجدت جوهرًا لا تظنُّ به خيرًا فأردت أن تلقيه فلا تفعل حتى تُريَه من يُبصره، ولا تُقِرَّ عينَ عدوِّك من البرهميين وغيرهم، واعلم أنَّهم لن ينصحوك أبدًا وقد قتلت منهم منذ قريب اثني عشر ألفًا، أفتظنُّ أنهم نسوا ذلك؟ ولعمري ما كنتَ جديرًا أن تحدِّثهم برؤياك، ولا تُطلِعهم على سرِّك؛ فإنهم إنما يريدون بما عبَروا به رؤياك، زوالَ مُلكك، وبوارَ أحبَّائك، واستئصال وزرائك أهلِ العلم والحلم

والحكمة، ومراكبِك التي تقاتل عليها الملوك، ولكن انطلق إلى كتاتايرون فاذكر له ذلك وسلْه عمَّا أحببت؛ فإنه لبيب أمين — وليس عند هؤلاء شيءٌ إلَّا وعنده أفضلُ منه — وإن كان أصلُه من البرهميين فإنه ناسك مجتهد فقيه، فإن أشار عليك بمثل رأيهم فانتهِ إليه، وإن خالفهم فاعلم أن أولئك الكذبة أعداؤك أرادوا إدخال النقص عليك في مُلكِك.

فَلَمَّا سَمِعَ الملك ذلك منهم تسلَّى همه، وأمر بإسراج فرسه، وركِبه وانطلق إلى كتاتايرون، فلما انتهى إليه نزل عن فرسه ثم سجد له وحيَّاه وطأطأ رأسه، فقال له كتاتايرون: ما جاء بك أيها الملك؟ وما لي أراك متغيِّرَ اللون ممتلئًا همًّا وحزنًا، ولا أرى على رأسك التاج ولا الإكليل؟ فقال له الملك: كنت نائمًا ذات ليلة على ظَهر إيواني، فسمعت من الأرض ثمانية أصوات، أَسْتَيقظُ مع كل صوتٍ ثم أرقد، فرأيت ثمانية أحلام، فقصصتها على البرهميين فأجابوني بما أخاف أن يصيبني منه أمرٌ عظيمٌ، إمَّا أن أُقتَل في حربٍ وإمَّا أن أُغصَب مُلكي وأُغلَب عليه.

فقال كتاتايرون: لا يَحزُنك أيها الملك هذا الأمر ولا يُوجِلَنَّك؛ فإنك لن تموت الآن، ولن تُسلَب ملكك، ولن يُصيبك شيء من الشرِّ ولا يصلُ إليك محذور، فأمَّا الأحلام الثمانية التي رأيت فاقصصها فإني مُنَبِّئك بتأويلها، فقصَّ عليه الملك الرؤيا، فقال كتاتايرون: أمَّا السمكتان الحمراوان اللتان رأيتهما قائمتين على أذنابهما تستقبلانك فإنه يأتيك من قِبَل «هَمْيون» رسولٌ بدرجٍ فيه من الجوهر ما قيمته أربعة آلاف رطل من الذهب، وأمَّا البطتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك، فإنه يأتيك من قِبَل ملك بَلْخ من يقوم بين يديك بفرسين ليس في الأرض مثلهما، وأمَّا الحيَّة التي رأيتها تدِبُّ على رجلك اليُسرى فإنه يأتيك من عمل «صَنْجين» من يقومَ بين يديك بسيفٍ خالص الحديد لا يوجد مثله، وأمَّا ما رأيت أنه يُخضَب جسدُك كلُّه بالدم فإنه يأتيك من قِبَل ملك «كاسَرون» من يقوم بين يديك بلباس مُعجِب يُسمَّى حُلة أُرجوان يضيء في الظُّلمة، وأمَّا ما رأيت من غسل جسدك بالماء؛ فإنه يأتيك من قِبَل ملك «زرْفِي» من يقوم بين يديك بثيابٍ من لباسِ الملوكِ ليس يُعرف قيمتها، وفيلٍ أبيض لا تلحقه الخيل، وأمَّا ما رأيت على رأسك شبيهَ النار فإنه يأتيك من عند الملك «جَيار» من يقوم بين يديك بإكليلٍ من ذهب، وأمَّا قيامك على الجبل الأبيض فإنه يأتيك من قبل «كَيْدَرون»[٥] من يقوم بين يديك

[٥] في هذه الأسماء اختلافٌ كثيرٌ في النسخ، وقد وضع لها رَيْت جدولًا، فليُرجع إليه (صXXII من مقدمة النسخة السريانية الحديثة).

بفيلٍ أبيض لا تلحقه الخيل، وأمَّا الطير الأبيض الذي نقر رأسك بمنقاره فلست أفسِّره لك اليوم وليس بضارِّك، فلا تَوْجلنَّ منه، ولكنَّ فيه بعض السخط والإعراض عمَّن تحبُّ، فأمَّا البُرُد والرسُل فإلى سبعة أيام يأتونك حتى يقوموا بين يديك.

فلمَّا سمع الملك ذلك سجد بين يديه وانصرف وقال: إني ناظر فيما قال كتايايرون، فلمَّا كان اليوم السابع لبس ثيابه وأخذ زينته وجلس في مجلسه وأذن للعظماء والأشراف، فجاءته تلك الهدايا التي قال[٦] كتايايرون حتى وقفوا بين يديه، فلمَّا رأى الملك الرسل والهدايا فرح بها وقال في نفسه: لم أوَفَّق حين قصصت رؤياي على البرهميين وأمروني بما أمروني به، ولولا أنَّ الله — جلَّ اسمه — رحمني وتداركني برأي إيراخت كنت قد هلكت وزالت دنياي، فلذلك ينبغي لكلِّ أحدٍ أن يسمع من الأخيار والأخِلَّاء وذوي القرابات رأيهم ويقبلَ مشورتهم؛ فإنَّ إيراخت أشارت عليَّ بالرأي الذي انتفعتُ به في بقاء مُلكي، والذي ترون من الفرح والسرور. فقال إبلاد له: لا يعمل المرءُ شيئًا من الأشياء — صغيرًا أو كبيرًا — إلَّا برأي أهل المودة والخير، ثم دعا الملك بإيراخت وولدها جُوبَر وكاك الكاتب وإبلاد وقال لهم: لا ينبغي لنا أن نُدخل هذه الهدايا خزائننا، ولكني قاسِمُها بينكم — أنتم الذين وطَّنتم أنفسكم على الموت في سببي — وبين إيراخت التي أشارت عليَّ بالرأي الذي انتفعت به في بقاء ملكي، فقال إبلاد: إنه لا ينبغي لنا — معشر العبيد — أن ندنوَ من هذه الهدايا، فأمَّا جُوبَر ابنُك فهو لها أهل، فليأخذ ما أعطيتموه. فقال الملك: إنه قد شاع لنا في البلاد من هذا ثناءٌ حسنٌ وخيرٌ كثيرٌ، فلا تحتشم يا إبلاد وخذ نصيبك وقرَّ به عينًا، فقال إبلاد: ليكن من ذلك ما أحبَّ الملك، وليبدأ بأخذ ما يريد، فأخذ الملك الفيل الأبيض، وأعطى جُوبَر أحد الفرسين، وأعطى إبلاد السيف الخالص الحديد، وأعطى الكاتب الفرس الآخر، وبعث إلى كتايايرون الثياب الكتَّان التي يلبس الملوك، وأمَّا الإكليل وسائر اللباس مما كان يصلح للنساء فقال: يا إبلاد، خذ الإكليل وسائر اللباس فاحملها معي واتبَعني إلى مجلس النِّساء.

فلمَّا انطلق إليه دعا بإيراخت ومُساميَتها، فجلستا بين يديه، وقال: يا إبلاد، ضع الكسوة بين يدي إيراخت؛ فلتأخذ أيَّها شاءت، فلمَّا نظرت إيراخت إلى الإكليل والثياب

[٦] عبارة «الهدايا التي قال كتايايرون.» فيها أثرُ محاكاة التعبير الفارسي الذي يحذف فيه عائد الموصول.

وأعجبها منظرها، ولم تدر أيهما تأخذ، نظرت إلى إبلاد بمؤْخِر عينها ليُريها أيُّهما أفضل، فأراها إبلاد الثياب وأشار عليها بأخذها، فأخذتها، وكانت شارته إليها أن غمزها بعينه، وحانت من الملك التفاتة فرأى إبلاد وقد غمز إيراخت، فلمَّا رأت إيراخت أنَّ الملك قد أبصر إبلاد وإيماءه إليها تركت الثياب وأخذت الإكليل مخافةَ أن يظنَّ الملك بهما سوءًا، وعاش إبلاد بعد ذلك أربعين سنة كُلَّما دخل على الملك كسر عينيه خوفًا أن يظنَّ الملك أنه أراها بعينه شيئًا، وخوفًا أن يتَّهمه بأمر، فلولا عقل المرأة ومعرفة الوزير لم ينجُ واحد منهما من الموت.

وكان الملك يكون ليلةً عند إيراخت وليلة عن مُساميتها، فأتى إيراخت في ليلتها — وقد صنعت أرزًا — فدخلت على الملك وفي يدها صحفة من ذهب والإكليل على رأسها، فقامت على رأس الملك بالصحفة وهو يَطعَم منها، فلمَّا رأت مُساميتها الإكليل على رأس إيراخت غارت فلبست تلك الثياب ومرَّت بين يديه — وكانت كالشمس حسنًا — فأضاء كل ما حولها فاشتاف إليها، وقال لإيراخت: إنك جاهلة حين أخذتِ الإكليل وتركتِ الثياب التي ليس في خزائننا مثلها، وإنَّ جُورْبَناه[7] لأحسنُ منكِ عقلًا وأكمُل رأيًا وأشبهُ بنساء الملوك منك، فلمَّا سمعَت ذلك منه مع ما عايَنَت غضبت وضربت بالصحفة رأس الملك فسال الأرز على رأسه ووجهه ولحيته، وكان ذلك عبارة الحلم الثامن الذي كتمه إياه كتايايرون ولم يكن بيَّنه له، فدعا الملك بإبلاد فدخل عليه، فقال: يا إبلاد، أما ترى إلى ما فعلته هذه المرأةُ بي، وكيف استخفَّت بي وحقَرتني وعمِلت ما عملت؟ فما أعلم أنَّ ملكًا قط اجتُرئ عليه بمثل ما ركبَت هذه الحمقاء منِّي! انطلِق بها فاضرب عُنُقها ولا ترحمها. فخرج إبلاد بإيراخت من عند الملك، وقال في نفسه: ما أنا بقاتِلِها حتى يسكن غضب الملك؛ فإنها امرأة عاقلة لبيبة حريصة على الخير، سعيدة من الملكات، ليس لها في النساء عديل في الحلم والعقل، وليس الملك صابرًا عنها، وقد خلَّص الله بها اليوم بشرًا كثيرًا من القتل، وعملت أعمالًا صالحة، ونحن نرجوها بعد اليوم، ولست آمَن أن يقول الملك: ما استطعتَ أن تؤخِّر قتلها! فلستُ بقاتلها حتى أنظر رأي الملك فيها، فإن ندم

[7] هي في شيخو: «كورقناه»، وفي نُسخة دي ساسي والنُّسخ الأخرى المطبوعة: «حورقناه»، وفي بعض النسخ «جورقناه» وفي السريانية الحديثة: «كُلباه». والظاهر أن الصواب: «كُلبناه» وأقرب صيغة لهذه، بعد النظر إلى الخطِّ الفهلوي وإلى التعريب هي «جوربناه» كما في نسختنا، وما في النسخ الأخرى محرَّف عنها.

على قتلها وحزِن جثته بها حيَّة، وكنت قد عملت ثلاثة أعمال: أنجيتُ إيراخت من القتل، وفرَّجتُ على الملك حزنه، وافتخرتُ بذلك على سائر الناس، وإن لم يذكرها ولا اشتاق إليها أمضيت أمره فيها.

وانطلق بها إبلاد إلى منزله سرًّا، فوكَّل بها رجلين من أمناء الملك الذي يَلُونَ أمر نسائه، وأمرَ أهله بحفظها والاستيصاء بها وإكرامها حتى ينظر كيف يكون أمرُها، ثم خضب سيفه بالدم ودخل على الملك كئيبًا حزينًا، وقال: قد أمضيتُ أمر الملك في إيراخت، فلم يلبث الملك أن سكن غضبه، فذكر جمال إيراخت ورأيها وعظيم غَنائها، فاشتدَّ حزنه وجعل يقوِّي نفسه ويتجلَّد، وهو على ذلك يستحي أن يسأل إبلاد ويرجو ألَّا يكون قتلها، ونظر إبلاد إلى الملك فعلم ما في نفسه بفضل علمه، فقال: لا تحزن أيها الملك ولا تغتم، فإنه ليس في الحزن والهمِّ منفعة، ولكنهما يُنحِلان الجسم ويُفسِدانه، مع ما يدخل على أهل وُدِّ الملك أيضًا من الحزن إذا حزن، وفَرَح أعدائه وشماتتهم، فإنه إذا سمعوا به لم يُعَدَّ مِنْ صاحِبِه عقلًا ولا حزمًا، فاصبر أيها الملك ولا تحزَن على ما لستَ بناظر إليه أبدًا، فإنْ أحبَّ الملك حدَّثته بشبيه أمره هذا، قال الملك: حدثني يا إبلاد، قال إبلاد: زعموا أنَّ حمامتين — ذكرًا وأنثى — ملآ عُشَّهما من البُرِّ والشعير، فقال الذكر للأنثى: أمَّا ما وجدنا في الصحارى ما نعيش فلسنا نأكل مما في عُشِّنا شيئًا، فإذا جاء الشتاء ولم نُصِب في الصحارى شيئًا أقبلنا على ما في عُشِّنا فأكلناه، فرضيت الأنثى بذلك وقالت: نِعمَ ما رأيت، وكان ذلك الحبُّ نديًّا حين وضعاه، فامتلأ عشهما منه، وانطلق الذكر في بعض أسفاره، فلمَّا جاء الصيف يَبِس ذلك الحبُّ ونقص عمَّا كان في العين، فلما رجع الذكر فرأى الحبَّ ناقصًا قال للأنثى: أليس كنَّا قد اجتمعنا على ألَّا نأكل من عُشِّنا شيئًا؟ فلِمَ أكلتِ؟ فحلفت الأنثى أنها ما أكلت منه حبَّة، فلم يُصدِّقها وجعل ينقرها ويضربها حتى قتلها، فلمَّا جاء الشتاء والأمطار نَدِيَ الحبُّ وعاد إلى ما كان عليه، وامتلأ العشُّ كما كان، فلمَّا رأى ذلك الذكر نَدِم واضطجع إلى جانبها وناداها: كيف ينفعني العيش إذا طلبتك فلم أقدر عليك؟

فمن كان عاقلًا علم أنه لا ينبغي أن يَعجَل بالعذاب والعقوبة، ولا سيما بعذاب من يخاف أن يندم عليه كما ندم الحمام الذكر.

وقد سمعت أنَّ رجلًا كان على ظهره كارةُ عَدَس، فدخل بين شجر كثير، فوضع حمله ورقد، فنزل قرد كان في الشجرة التي نام تحتها، فأخذ مِلءَ كفه من ذلك العدَس، ثم صعد في الشجرة فسقطت من يده حبة فطلبها فلم يجدها، وانتثر العَدَس من يده فلم

يقدر على جمعه، وأنت أيها الملك عندك ستة عشر ألف امرأة تدعُ أن تلهوَ بهنَّ وتطلب التي لا تجد! فلمَّا سمع الملك ذلك خشيَ أن تكون إيراخت هلكت، فقال لإبلاد: أفي سقطةٍ واحدةٍ كانت منِّي فعلت ما أمرتك به من ساعتك، وتعلَّقت بكلمة واحدة، ولم تتثبت في الأمر؟ قال إبلاد: إن الذي قوله واحد — لا يختلف كلامه عندي — واحد.

قال الملك: ومَن ذلك؟ قال: الله — عز وجل — الذي لا يُبدَّل كلامُه ولا يختلف قوله، قال الملك: اشتدَّ حزني لقتل إيراخت، قال إبلاد: اثنان ينبغي لهما أن يشتدَّ حزنهما: الذي يعمل الإثم، والذي لم يعمل برًّا قط؛ لأن فرحهما في الدنيا قليل. قال الملك: لئن رأيتُ إيراخت حيَّة لا أحزنُ أبدًا. قال إبلاد: اثنان لا ينبغي لهما أن يحزنا أبدًا: المجتهد في البرِّ والذي لم يأثم قط، قال الملك: ما أنا بناظرٍ إلى إيراخت سوى ما نظرتُ، قال إبلاد: اثنان لا ينظُران أبدًا: الأعمى والذي لا عقل له، فإنه كما أنَّ الأعمى لا يبصر السماء ولا النجوم ولا الأرض، ولا يبصر القريب ولا البعيد ولا أمامه ولا خلفه، كذلك الذي لا عقل له لا يبصر منفعته من مضرته، ولا يعرف العاقل من الجاهل، ولا الحسن من القبيح، ولا المحسن من المسيء. قال الملك: لئن رأيتُ إيراخت ليشتدَّن فرحي، قال إبلاد: اثنان هما يَرَيان وينبغي لهما أن يشتدَّ فرحهما: البصير والعالم، فكمَا أنَّ البصير يُبصر نور العالَم وما فيه، كذلك العالِم يبصر الإثم فيجتنبه والبرَّ فيعمله، ويهدي من اتَّبعه إلى سبيل الخير؛ قال الملك: ما شبعتُ من رؤيةِ إيراخت قط، قال إبلاد: اثنان لا يشبعان أبدًا: الذي لا همَّ له إلَّا جمعُ المال، والذي يأكل ما يجد ويسأل ما لا يجد؛ قال الملك: إنه لينبغي لنا أن نتباعد عنك يا إبلاد! فإنك بذلك جدير، قال إبلاد: اثنان ينبغي أن يُتباعَد منهما: الذي يقول لا عذاب ولا حساب ولا ثواب ولا شيءَ إلَّا ما هو فيه، والذي لا يقدر أن يَصرِف بصرَه عن شهواته وعمَّا ليس له، ولا أذنه عن استماع السوء، ولا فرجه عن نساءِ غيره، ولا قلبه عما يهمُّ به من ركوب الإثم، فيصيرُ أمرُه إلى الندامةِ والهوان وخِزيِ الأبد الدائم. قال الملك: صرتُ من إيراخت صِفرًا، قال إبلاد: ثلاثة هنَّ أصفار: البحر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها زوج، وأخرى: من لا يعرف الخير من الشر، قال الملك: إنك لَمُلَقَّى الجواب يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة هم ملَقَّوْنَ الجواب: الملك الذي يَقسم ويعطي من خزائنه، والمرأة المسمَّاة لبعض من تهوَى من ذوي الأحساب، والرَّجل العالم الذي قد تفرغ للعبادة، قال الملك: لقد ازددتُ حزنًا بتعزيتك يا إبلاد، قال إبلاد: ثلاثةٌ ينبغي لهم أن يحزنوا: الذي فرسه سمين حسن المنظر سيئ

المخبر، وصاحب المرقة التي كثيرٌ ماؤها قليلٌ لحمها ولا طعم لها، والذي ينكح المرأة الحسيبة ولا يقدر على إكرامها؛ فلا تزالُ تُسمعه ما يؤذيه.

قال الملك: هلكَت إيراخت ضَيعة في غير شيء! قال إبلاد: ثلاثةٌ يضيعون في غير حقٍّ: الرجل يلبس الثياب البيض، فلا يزال عند الكير جالِسًا فيسوِّدها بالدخان، والقَصَّار يلبس الخُفَّين الجديدين ثم لا تزال قدماه في الماء، والرجل التاجر يتزوَّج المرأة الحسناء الشابَّة ثم لا يزال بأرضٍ بعيدةٍ، قال الملك: إنك لَأَهْلٌ أن تُعذَّبَ أشدَّ العذاب، قال إبلاد: ثلاثة ينبغي لهم أن يُعذَّبوا: المجرم الذي يعاقِب مَن لا ذنب له، والمتقدِّم إلى مائدة لم يُدعَ إليها، والذي يسأل أصدقاءه ما ليس عندهم ولا يدع مسألتهم؛ قال الملك: إنه لينبغي لك أن تُسَفَّه يا إبلاد، قال إبلاد: ثلاثة ينبغي لهم أن يسفَّهوا: النجَّار الذي ينزل البيت الصغير بأهله، ثم لا يزال ينحت الخشب فيملأ بيته فأهله في ضيقٍ وضررٍ، والذي يتكلف الحَلق بالموسى ولا يُحسِن فيُفسِد عمله ويعقِر صاحبه، والغريب المقيم بين ظَهرانَي عدوِّه ولا يريد الرجوع إلى أهله، فإن مات — مع غربته — ورثوه فيصيرُ ماله للغرباء ويُنسى ذكره. قال الملك: كان ينبغي لك أن تسكت حتى يهدأ غضبي يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثةٌ ينبغي لهم أن يسكتوا: الذي يرقى في الجبل الطويل، والذي يصيد السمك، والذي يهمُّ بالفعل الجسيم، قال الملك: ليتني قد رأيت إيراخت يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة يتمنُّون ما لا يجدون: الفاجر الذي لا ورع له ويريد — إذا مات — منزلةَ الأبرار في الآخرة، والبخيل الذي يريد منزلة السَّمْح الجواد، والفجرة الذين يسفكون الدماء — بغير حقٍّ — ويرجون أن تكون أرواحهم مع الشهداء الأتقياء؛ قال الملك: لقد أوجعت قلبي يا إبلاد، قال إبلاد: ثلاثة هم أوجعوا قلوبهم: الذي يأتي القتال ولا يتَّقي فيُقتل، والكثير المال الذي لا ولد له وتجاراته في الربا والغلاء على الناس، فربما حسده بعضهم فقتله، والشيخ الكبير ينكح المرأة الحسناء الفاجرة الجريئة على ما لا تزال ترتكبه، فلا تبرح تتمنَّى موته لتنكح زوجًا غيره شابًّا فيكون هلاكه على يديها. قال الملك: إني لحقيرٌ في عينِك يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثةٌ يَحقِرون أربابهم: الذي يَهذي بالكلام ويتحدَّث بما لا يُسأل عنه ويقول ما يعلم وما لا يعلم، والمملوكُ الغنيُّ وسيِّدُه فقير فلا يعطي سيِّدَه شيئًا من ماله ولا يعتدُّ به، والعبدُ الذي يُغلظ لسيِّده في القول ويستطيل عليه، قال الملك: إنَّك لتسخر بي يا إبلاد! ليت إيراخت لم تكن ماتت! قال إبلاد: ثلاثةٌ ينبغي أن يُسخرَ منهم: الذي يقول شهدت زُحوفًا كثيرة فأكثرتُ القتل ولا يُرَى في جسمه شيءٌ من آثار القتال، والذي يُخبِر

أنه عالم بالدين ناسك مجتهد، وهو بادِنٌ غليظُ الرقبة لا يُرى عليه أثر التخشع، والمرأة التي تذكر أنها عذراء وليست بعفيفة ولا حَصان.

قال الملك: إنك لمتجبِّر يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثةٌ يشبهون المتجبِّرين: الجاهلُ الموسوس الذي يتعلم ورده على العالم فلا يقبل منه ويماريه بجهله، ولا يحجزه ذلك عن أن يعود لأمثاله، والذي يهيج السفيه ويتحرَّش به فيُسمعه أذاه، والكذَب عليه فيؤذي بذلك نفسه، والذي يُفضي بسرِّه إلى من يُذيعه ويُدخله في الأمر العظيم ويثق به ثقته بنفسه، قال الملك: أنا الذي شققت على نفسي! قال إبلاد: اثنان هما جلبا المشقة على أنفسهما: الذي ينكص على عقبيه ويمشي القهقرى، فربما عثر فوقع في مهواة فينكسر، والذي يقول لست أهابُ القتال ولا أتَّقيه فيغتر غيره به؛ فإن لقيَ عدوًّا كان همَّه الفِرارُ؛ قال الملك: قد تصرَّم ما بيني وبينك يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثةٌ لا يلبَث ودُّهم أن يتصرَّم: الخليل الذي لا يلاقي خليله ولا يكاتبه ولا يراسله، والرجل الذي يُكرِمه أحبَّاؤه فلا يُنزِل ذلك منهم منزلته ولا يقبله بقبوله، ولكن يستهزئ بهم ويسخر منهم، والمعاطي أخِلَّاءه في الفرح والنعيم وقُرَّة العين يسألهم أمورًا لا يقدِرون عليها. قال الملك: قد عملتَ بقتل إيراخت عملًا يُستدَل به على قلة عقلك وخفة حِلمِك يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثةٌ يعملون بجهلهم ما يُستدَلُّ به على خفة أحلامهم: المستودع ماله مَن لا يعرف، والأبله القليل العقل الجبان ثم يخبر الناس أنه شجاعٌ مقاتلٌ، والذي يزعم أنه تارك لأمور الجسد مقبل على أمور الروح وهو لا يُلفى إلَّا متابعًا لهواه؛ قال الملك: إنك لَغيرُ عاقل يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثةٌ لا ينبغي لهم أن يُعَدُّوا من أهل العقل: الإسكاف الذي يجلس على المكان المرتفع، فإذا تدحرج شيءٌ من أداته شغله عن كثيرٍ من عمله، والخيَّاط الذي يُطيل خيطه فإذا تعقَّد شغله تخليصه عن خياطته، والذي يقصِّر من شعور الناس ويلتفت يمينًا وشمالًا فيُفسد عمله. قال الملك: يا إبلاد، كأنك تريد أن تعلِّم الناس أن يمهروا وتعلِّمني أيضًا حتى أكون ماهرًا! قال إبلاد: ثلاثةٌ زعموا أنهم مَهَروا وينبغي لهم أن يتعلَّموا: الذي يضرِب بالصنج والعود والطبل حتى يوافق المزمار وسائر الألحان، والمصوِّر الذي يُحسن خطَّ التصاوير ولا يُحسن خلط الأصباغ، والذي يزعم أنه ليس بمحتاج إلى علم شيء من الأعمال، قال الملك: إنك يا إبلاد تعمل بغير الحق. قال إبلاد: أربعة يعملون بغير الحق: الذي لا يصدُق لسانه ولا يحفظ قوله، والسريع في الأكل البطيء في العمل والحرب وخدمة من فوقه، والذي لا يستطيع أن يُسكِّن غضبه، والملك الذي يَهمُّ بالأمر العظيم ويرتكبه.

قال الملك: لو عملتَ بسنَّتي لم تقتل إيراخت يا إبلاد. قال إبلاد: أربعة يعملون بالسنَّة: الذي يصنع الطعام وينظفه لسيده ثم يُقدمه إليه في إبَّانه، والذي يرضى بامرأة واحدة ويُحصِن فرجه عن نساء غيره، والملك الذي يعمل الأمر العظيم بمشاورة العلماء، والرَّجل الذي يَقهَر غضبه، قال الملك: إني لخائفٌ منك يا إبلاد، قال إبلاد: أربعة يَخافون مما لا ينبغي: الطائر الصغير الذي في الشجر يرفع إحدى رجليه مخافةَ أن تسقط السماء عليه فيدفعها[٨] بها، والكُركيُّ الذي يقوم على إحدى رجليه مخافةَ أن تنخسف الأرض به إن وضع الأخرى، والدودةُ التي تكون في الأرض وطعامُها في التراب فتُقلُّ من الأكل مخافةَ أن يفنى التراب فهي من ذلك خائفة، والخُفَّاش الذي يمنعه من الطيران بالنهار أنَّه يرى أَنْ ليس على الأرض طائرٌ أحسنُ منه فيخاف أن تصيده الناس فيحبسوه عندهم. قال الملك: أكنتَ نذرتَ أن تقتل إيراخت يا إبلاد؟ قال إبلاد: أربعةٌ ينبغي لهم أن تُقبَل فيهم النذور ألَّا يفارَقوا: الفرس الجواد الثمين الذي هو عُدَّة مولاه، والثور الذي يُحرَث عليه، والمرأة العاقلة المحبة لزوجها، والعبد المجتهد الناصح في الخدمة الصادق الهائب لسيِّدِه. قال الملك: لن تطيبَ نفسي بقتل إيراخت يا إبلاد، قال إبلاد: ثلاثةٌ ينبغي لهم أن يحزنوا: العاقل الذي يجيبه الجاهل بما لا ينبغي ولا يُقبَل منه، والرجل الرغيب البطِن الغنيُّ من المال، والرجل السيئُ الخبيثُ النفس، قال الملك: ما ينبغي لنا مخالطتك يا إبلاد، قال إبلاد: أربعةٌ لا يخالِط بعضهم بعضًا: النهار والليل، والبرُّ والفاجرُ، والظلمةُ والنورُ، والخيرُ والشرُّ. قال الملك: لقد أثبتَّ في نفسي عليك حِقدًا بقتلك إيراخت يا إبلاد، قال إبلاد: أربعةٌ الحقد فيهم ثابتٌ: الذئب والخروف، والسنَّوْر والجرذ، والبوم والغربان، والبازي والدُّرَّاج، قال الملك: أفسدت حكمتك يا إبلاد! قال إبلاد: أربعة يفسدون أعمالهم: المفسد الحسنات بالسيئات، والملك يكرم العبد، والوالدان يفضِّلان المفسدَ من أولادهما على المصلح، والمؤتِمنُ المحتالَ الواشيَ على السرِّ. قال الملك: أما لك رحمة فترحمني يا إبلاد؟ قال إبلاد: خمسةٌ لا رحمةَ لهم: الملك الحقود الهذِر في القول، والحامل الموتى بالأجر، واللصُّ المراقبُ للمساء ليُغير على الناس فيسرقهم، والصادُّ الناسَ عن القصد إلى الجور، والجريءُ الجاهلُ المُقدِم على ما ليس له وإن أتلف نفسه ونفس غيره في طلب

[٨] عطف «يدفعها» على «تسقط» غير مستقيم في المعنى، وفي شيخو: «يقول إن سقطت السماء حبستها برجلي.»

حاجته وشحِّه، قال الملك: من رَدَّ عليَّ إيراخت فله عندي من المال ما أحَبَّ، قال إبلاد: إنَّ الذين يحرصون على ما ذكرتَ فيحبُّون جمعه من غير الحق، وهو آثَرُ عندهم من أنفسهم، خمسة نَفَر: المقاتل الذي لا نيَّة له ولا روِيَّة إلَّا في إصابة الطمع ونيله، واللصُّ الذي ينقُب البيوت ويعرِض لابن السبيل فتُقطع يده أو يُقتل، والتاجر الذي يركب في البحر يطلُب الدنيا، وصاحب السجن الذي يتمنَّى أن يكثر أهلُه فيصيبَ منهم، والقاضي الذي يأخذ الرشوة فيجور في الحكم.

قال الملك: أفسدت عليَّ العيش يا إبلاد! قال إبلاد: الذي يكون على ما وصفتَ سبعةُ[٩] نَفَر: الفقيه العالم الذي لا يُعرف بذلك فيُقتبسَ منه، والملك الذي يأتي المعروف إلى كل غامطٍ كفورٍ منكرٍ لكل ما يصنع، والعبد الذي يكون سيِّدُه فظًّا غليظًا لا رحمةَ له، والمرأة التي تحبُّ ولدها وهو فاسقٌ خبيثٌ وتستر عليه سيئَ أموره وتغفرها له، والمرءُ يأمن الفاجرَ الغادرَ الجريء على ركوب المحارم ويسترسل إليه، والذي يُسرع ملامه إلى الخلَّان، والذي لا يُراقب الله ولا أهل الدين والصلاح. قال الملك: لقد كرهتُ قتل إيراخت؛ قال إبلاد: سبعةُ أشياءَ مكروهة: الشيخوخة التي تَسلُب الشباب، والوجع الذي يُنحِل الجسم ويَنزِف الدم، والغضب الذي يُفسد علم العلماء وحُكم الحكماء، والهمُّ الذي ينقص العقل ويسلُّ الجسم،[١٠] والبرد الذي يغيِّر النبات، والجوع والعطش اللذان يُجهِدان كل شيء، والموت الذي يُفسِد جميع البشر، قال الملك: ما ينبغي لي أن أكلِّمك بعدها يا إبلاد، قال إبلاد: ثمانية نَفَر لا يستقيم القولُ معهم ولا العملُ: المشاورُ من لا حلم له، والذي يصرف الكذبُ قلبَه عن أخيه، والمعجَب بنفسه، والمستبدُّ برأيه، ومَنْ مالُه آثَرُ عنده من نفسه، والضعيف الذي يسافر السفر البعيد، والذي يعاند سيِّدَه ومعلِّمه وهما مسلَّطان عليه، ومن يلقى ذا مودَّة بالخصومة والجدال. قال الملك: لأهتم وأحزن إذا رأيتُ اثني عشر ألف امرأة وليس فيهنَّ إيراخت، قال إبلاد: ليس أحدٌ بحقيقٍ أن يحزنَ على المرأة إذا كان فيها أربعةُ أشياءَ: إذا كانت جاهلة جريئة على أمرها، أو خفيفة اليدِ لصَّة تذهب بما أسديتَ لها، أو عمياء لا جمال لها ولا حسب، أو سيئة الخلق غير مواتية، قال الملك: لم يُصبني

[٩] في الأصل: «ستة نفر»، ولكن مقتضى السياق وموافقة النسخ الأخرى يجعلها «سبعة».

[١٠] ليس في نسختنا الجملتان اللتان فيهما «الغضب» و«الهم» من هذه الأشياء السبعة، والظاهر أنهما سقطتا، وقد نقلناهما عن شيخو ليتم العدد.

قط وجع أشدُّ عليَّ مما وصل إليَّ من إيراخت، لِحِلْمها وعقلها. قال إبلاد: خمسةُ أشياءَ إذا كنَّ في المرأة كانت أهلًا لأن يُحزَن عليها: إذا كانت كريمة الحسب عظيمة المنزلة في قومها، أو لبيبة عاقلة، أو حسناء كاملة صورة الوجه والخلق، أو حَصانًا حيِيَّة ميمونة الطائر، أو مؤاتية لزوجها راضية به متحنِّنة عليه.

قال الملك: لا أرى لإيراخت في النساءِ شبيهًا. قال إبلاد: أربعة نَفَر لا ينصرفون عن حالهم: المرأة التي تعودت كثرة الأزواج فلا ترضى بقلَّتِهم، والرجل الذي قد جرى لسانه بالكذب، فإذا أراد الصدق اشتدَّ عليه، والرجل الغليظ الكَدِن المعجَب برأيه لا يقدر أن يكون ليِّنًا ساكنًا، والرجلُ البَطِرُ الذي قد عدا طورَه وطباعُه الفجور فلا يستطيع أن يتحول من الفساد إلى الصلاح. قال الملك: ليس يأتيني النوم على حزني لإيراخت، قال إبلاد: ستة نفَر لا ينبغي لهم أن يهجعوا: الكثيرُ المالِ وليس له خازنٌ أمينٌ عليه، والمرء يريد الفتك بصاحبه ولا يقدر عليه، والقاذف الناس بالبهتان عن عَرَضِ الدنيا، والرجلُ الشديدُ المرضِ ولا طبيبَ له، والمرءُ الفاجرُ الزوجةِ، والمحبُّ الذي يتخوف الأحداث على قرينه. قال الملك: تنطق بين يديَّ مع ما ترى من سَخَطي يا إبلاد! قال إبلاد: سبعةٌ لا يزالون في سَخَطٍ: الملكُ السريعُ الغضبِ الضيِّقُ الصدرِ غير المتئد، والمتئد الذي ليس له مع تؤدته علم، وعالمٌ غيرُ مريدٍ للصلاح، ومريدٌ للصلاح غير عالِم، والقاضي المحبُّ للدنيا، والرحيم للناس البخيل بما عنده، وجوَّادٌ يلتمس الثواب والشكر في العاجل. قال الملك: قد عنَّيت نفسك يا إبلاد وإيايَّ معك! قال إبلاد: تسعة نفر يُعنُّون أنفسهم وغيرهم: المكثِر من المال الواثق بالناس، والملتمس ما لا يَنال ولا ينبغي له إدراكه، والبذيءُ الفاجرُ العادي طورَه، والذي يرى اللِّينَ ضعفًا وحُسنَ الخلق وهُنًا، ولا يقبل من ذي نصيحة إن بذلها له، ومن آزر الملوك والعُظماء ولا رأيَ له ولا يتعلَّم من غيره، وطالب العلم بخصومة من هو أنبل منه، والمحتال للملوك غيرُ الباذل لهم النصيحة ولا المودَّة، والملك الذي يكون خادمه وقهرمانه كذَّابًا هَذِرًا، والبطيء الفهم الذي لا يكادُ يفهم ولا يقبل الأدب؛ قال الملك: حسبك يا إبلاد! فلقد تركتني في شكٍّ من أمري، قال إبلاد: إنما ينبغي أن يجرَّب الناس في عشرة أشياء: الجريءُ في القتال، والحرَّاث في العمل، والعبد في عِشرة سيِّدِه، والملك في الغضب كيف يكون حِلْمه وعلمه، والتاجر في مخالطة صديقه، والإخوان بالاحتمال للأذى، والفَطِن عند الشدائد كيف يكون رفقه وحيلته، والناسك في ورعه وتنزُّهه، والجواد بالبذل والعطف، والفقير باجتناب الإثم وطلب الرزق من الحلال.



ثم سكت إبلاد، وعلم أنَّ الملك قد اشتدَّ حزنه على إيراخت، واشتاق إلى رؤيتها، فقال: أنا خليقٌ بإتيان الملك بهذه التي قد أحبَّها وحرص على رؤيتها أشدَّ الحِرص، وحَلُمَ عني في طول مُرَادَّتي إياه في أشياءَ كثيرة، وإغلاظي له في القول، أيها الملك إني — مع رقَّةِ شأني وضعف خطري — قد أغلظت في القول واجترأت، وأنتم أيها الملوك — لِكَرَمِ أصولكم وسَعة أحلامكم — ملكتم أنفسكم وصبرتم على ما سمعتم منِّي، فالشكر منِّي أيها الملك إذ لم تأمر بقتلي، وها أنا قائمٌ بين يديك، وقد فعلتُ الذي فعلتُ بنصحي، فإن كانت دخلت هذه في معصية فإنَّ لكم الحجَّة والسلطان على عقوبتي وقتلي.

فلما سَمِعَ الملك أن إيراخت حيَّة اشتدَّ فرحه وقال لإبلاد: إنه كان يمنعني من الغضب عليك ما علمتُ من نصيحتك وصدق حديثك، وكنت أرجو من علمك بالأمور ألَّا تقتل إيراخت؛ فقال إبلاد: إنما أنا عبدكم، وحاجتي إليكم اليوم ألَّا تَعجَلوا بعدها في الأمر العظيم الذي يُندَم عليه ويكون في عاقبته الهم والحزن كما رأيت، ولا سيما في أمر هذه

التي لا تجد لها عديلًا في الأرض ولا شبيهًا، وأن تتلبثوا، فقال الملك: بحقٍّ قلتَ يا إبلاد، وقد قبلتُ قولك وكل ما ذكرت، فكيف في مثل هذا الأمر العظيم الذي قد مرَّ بي؟ ولست عاملًا بعدها صغيرًا ولا كبيرًا إلَّا بعد المؤامرة والنظر والتؤدة.

ثم إنَّ الملك أمر إبلاد أن يأتيه بإيراخت، فأتاه بها فأعطاها تلك الثياب، واشتد فرحه بها، وقال لها: اصنعي ما أحببتِ، فلن أصرف بعدُ عن هواك شيئًا. فقالت إيراخت: دام ملكك إلى الأبد، كيف — لولا رأيك أيها الملك وسعة خلقك — تندم على سيئة كانت منك؟ فإنك لو تركت ذكري آخر الدهر كنتُ لذاك أهلًا للذي كان من سفهي وشِقوتي وإقدامي على ما أقدمتُ عليه من الأمر الذي له أمَرَ الملك بقتلي، وبرأفتك شكرتَ لإبلاد حسنَ صُنعه، ولولا ثقة إبلاد بسعةِ خلقك لنفَّذ أمرك في سلطانك.

قال الملك لإبلاد: قد اصطنعتَ عندي ما استوجبتَ به شكري، ولم تصنع بي شيئًا هو أعظم عندي من أنك لم تقتل إيراخت، بل أحييتها بعد ما قتَلتُها، فوهبتَها لي ولجميع الرعيَّة، فلم أكن قط أرضى عنك منِّي اليوم، وأنت مسلَّط على مُلكي فاصنع فيما أحببت ما أحببت، قال إبلاد: ليست بي حاجة فيما قِبَلك إلَّا التأني عند الغضب، والروِيَّة عند الفكر، فقال الملك: أنا صائرٌ إلى رأيك.

ثم إنَّ الملك أمر بقتل البرهميين الذين أشاروا عليه بقتل العِدَّة التي ذكرتها، وقرَّت عينُه وعيون أهل مملكته وولده بالوزراء الصالحين الذين هم أحبُّ الخلق إليه.

باب مهرايز ملك الجرذان[1]

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ مثَل الحلم فيما بين الملوك وقرابينهم، ولكن أريد أن تعرِّفني كيف ينبغي للإنسان أن يلتمس له مُشيرًا مُناصحًا، وما الفائدة المُستفادة من المشير الحكيم؟

قال الفيلسوف: إنَّ مثَل ذلك مَثَلُ ملكِ الجُرذان ووزيرِه الناصحِ له، المنقذِهِ وأهله ومخلِّصهم من الشدائد العظام، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنه كان في أرض البراهمة بقعةٌ تُسمَّى دورات، مساحتها ألف فرسخ، وكان في وسط تلك البقعة مدينة تُسَمَّى بَدرور،[2] وكانت كبيرة آهلة، وكان أهلها يتصرَّفون في معايشهم كما يُحبُّون، وكان في تلك المدينة جُرَذ يُسمَّى مِهرايز، وكان مملَّكًا على جميع الجرذان الذين في تلك المدينة ورساتيقها، وكان له ثلاثةُ وزراء يُشاورهم في أموره، يسمَّى أحدهم رُوذباد،[3] وكان ذا عقل وحُنْكة، وكان الملك معترفًا بعقله وجَودة حيلته، ويسمَّى الثاني شيرع، والثالث بغداد، وكان الملك يُحضِرهم جميعًا ويستشيرهم فيما يُصلِح رعيته.

فحضروا يومًا وتفاوضوا في أشياءَ كثيرة إلى أن انتهى بهم الكلام إلى هذا المعنى، وهو: هل في استطاعتنا أن نُزيل عنَّا ما قد توارثناه من أسلافنا من الفزَع والخوف من

[1] هذا الباب ليس في النسخ المطبوعة ولا النسخة السريانية، وقد ألحقه شيخو بنسخته، ولغته وأسلوبه يشهدان أنه ليس من كتابة ابن المقفع، وإنما أثبتناه محافظةً على النسخة التي اخترناها للطبع، وتوطئةً للبحث في أبواب الكتاب الأصلية والزائدة، وأبقينا عباراته السقيمة على حالها إلَّا ما كان محرَّفًا.

[2] في ملحق شيخو اسم الأرض: «دوران»، واسم المدينة: «إيدزينون».

[3] اسم هذا الوزير في ملحق شيخو: «زوذامه».

السنانير أم لا يمكن ذلك؟ فقال شيرع وبغداد وزيراه: أنت رئيسٌ علينا لأنك في غاية العقل وإصابة الرأي، وقد قيل في آفتين من الآفات لا يُمكن دفعهما إلَّا بمدبِّر حكيم مُصيب، ونحن متكِلون على حِلم الملك وحكمته وحسن تدبيره في هذا الأمر وغيره، ونحنُ مع هذا مُستعدُّون لأمر الملك، فإنه سيكون لنا وللملك فيه اسم عظيم إلى الأبد، وسبيل جميع الجُرذان وخاصةً نحن أن نبالغ ونحرص ونجتهد في تبليغ الملك إرادته، ولا سيَّما في هذا الأمر ولو بذَهَاب أنفسنا، فلمَّا فرغ الوزيران من هذا الخطاب كانت عين الملك إلى الوزير الثالث، فلمَّا لم يرَهُ يتكلم قال له بغضب: يا هذا قد كان سبيلك أن تذكر لنا ما عندك في هذا الأمر، ولا تكونَ كأنك أخرس أبكم لا تقدر على الجواب.

فلمَّا سمع الوزير من الملك هذا الكلام قال: ليس يجب أن يعذِلني الملك حيث أمسكتُ عن الكلام إلى هذا الوقت؛ لأني فعلت ذلك لأستمع جميع ما أتى به أصحابي على الكمال، وأفكِّر فيه، ثم بعد ذلك أذكر ما عندي. قال له الملك: قل إذن ما عندك؛ قال: ما عندي أكثرُ من هذا، وهو أنه إن علم الملك أنَّ له حيلة يبلغ بها مراده من هذا الأمر، ويتحقَّق ذلك تحققًا صحيحًا، وإلَّا فما سبيله أن يحرص عليه ولا يدبِّر بفكره فيه؛ لأنَّ ما يُتوارث من الآباء والأسلاف في الأصلاب والجنس ويتأدَّى من الآباء إلى الأولاد بالطبع، لا يقدر مَلك من الملائكة — دع الناس — على تغييره؛ قال الملك له: ليس ما يُتوارث من الجنس فقط، ولكن كل أمر من الأمور وإن صغر وقلَّ لا يمكن أن يتمَّ إلَّا بعنايةٍ من فوق، وذلك أنَّ انتهاء كل أمرٍ من الأمور إنما يكون في زمانٍ من الأزمنة، غير أنَّ معرفة ذلك الزَّمان خفيَةٌ عن الناس، والعِنَايَةُ تحتاج إلى حرصٍ كما يحتاج ضوء العينين إلى ضوء الشمس. قال الوزير: الأمر على ما قال الملك، لكن إذا لم تمكن الحيلة وليس لمقاومة الشيء الذي يتوارث مع الجنس وجه، فتركه أصلح؛ فإنَّ من قاوم ما يُتوارث في الجنس فكأنه يُريد أن يعارض ما قد اتُّفِق عليه، ورُبَّما نتج من ذلك آفة أعظم من الأولى وآل الأمرُ فيه إلى أحوال من العطب لا تتلافى، كما أصاب الملك الذي يُحدَّث عنه، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الوزير: زعموا أنه كان على بعض نواحي النيل ملك، وكان في بلده جبلٌ شامخٌ كثيرُ الأشجار والنبات والثمار والعيون، وكانت الوحوش وسائر الحيوانات التي في ذلك البلد يعيشون من ذلك الجبل، وكان في سفح ذلك الجبل نَقب يخرج منه جزء من سبعة أجزاء من جميع الرياح التي تهبُّ في الثلاثة الأقاليم ونصف من أقاليم العالم، وبالقرب من ذلك النقب بيتٌ في غاية حُسن البناء والترصيف لم يكن له نظيرٌ في العالم كله، وكان الملك وأسلافه من الملوك يسكنون ذلك البيت والموضع، لم يكن يتهيأ لهم أن يتحوَّلوا

منه. وكان للملك وزير يُشاوره في أموره، فاستشاره يومًا من الأيام، وقال له: تعلم أنَّا — بما قد تقدم من أفعال آبائنا الجميلة — في نِعمٍ فائضة، وأمورُنا تجري على محبَّتِنا، وهذا المنزل الذي نحن فيه لولا هذا النقب ولولا كثرة الرياح لكان شبيهًا بالجنَّة، ولكن سبيلنا أن نجتهد فلعلَّنا نجد حيلةً يمكننا بها أن نسُدَّ فمَ هذا النَّقب الذي تهبُّ منه هذه الرياح؛ فإنَّا إذا فعلنا ذلك كنَّا قد ورثنا الجنة في هذه الدنيا، مع ما يكون لنا من الأثر الجليل المؤبَّد.

قال الوزير: أنا عبدك ومسارعٌ لما تأمر به؛ قال الملك: ليس هذا جوابي، قل ما عندك، قال له الوزير: ما عندي في هذا الوقت جوابٌ غير هذا؛ لأنَّ الملك أعلم وأحكم وأشرف منِّي، وهذا الأمر الذي ذكره لا يمكن أن يُعمل إلَّا بقوةٍ إلهية، فأمَّا الناس فلا يطيقون ذلك؛ لأنه عظيم، وما سبيل الصغير أن يدخل في الأمر العظيم الكبير، فليتأمل الملك ما يُريد أن يفعله، فإن علم أنَّ له سبيلًا يوصلنا إليه ويكون عارفًا بما ينتج عنه من خيرٍ وشرٍّ معرفة صحيحة، وإلَّا فما سبيله أن يهتمَّ به ولا يصرف عنايته إليه، فإن الكلام فيه الساعةَ سهل؛ فأمَّا معرفة ما يئول إليه من خيرٍ وشرٍّ معرفةً صحيحةً، فهو خفيٌّ عن الناس صعبُ الإدراك، فلهذا ينبغي أن تُنعِم النظر لئلا يلحقك من هذا الأمر ما لحق الحمار الذي ذهب يلتمس أن ينبت له قرنان فذهبت أذُناه.[٤] قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الوزير: زعموا أنَّ حمارًا كان لبعض الناس، وكان صاحبه يوسِّع له في العلَف، فحصِب الحمار وكلِب وهاج، واتفق يومًا أن صاحبه ساقه إلى نهرٍ ليشرب، فبصر الحمار من بعيدٍ بأتان، فلمَّا رآها هاج وأدلى ونهق وشغَب، فلما رأى صاحبه هيجانه خشي أن ينفلت منه فربطه في شجرة كانت على شطِّ النهر، وتقدَّم إلى صاحب الأتان بردِّها ففعل، وبقي الحمار يدور حول الشجرة ويزيدُ هيجانه، فبينما هو يدور إذ طأطأ رأسه فنظر إلى إحليله وتوتُّره، فقال في نفسه: هذه العصا تصلح للفرسان والقتال، ولكن إيش الفائدة فيها وحدها وليس لي غيرها، والعصا وحدها لا تفي بقتال الناس؟

[٤] هذا المثل عُرِف في الأدب العربي في عهد بشار بن برد الشاعر، وقد نظمه حين اقترح عليه ذلك:

فصرت كالعير غَدَا طالبًا قرنًا فلم يرجع بأذنين

ومع هذا فلست أنا ماهرًا بالفروسية إلَّا أنه على كل حالٍ أنا قادر أن أطعن بهذه العصا وأضرب، فبينما الحمار يتفكر في مثل هذا وصاحبه جالس على الشط ينتظر سكون هيجانه ليردَّه إذ اتفق في ذلك الوقت أن أُيَّلًا كبيرًا عظيم القرون قد أتى به صاحبه إلى النهر ليسقيه، فلمَّا نظر الأيَّلُ إلى الحمار والحمار إلى الأيلِ، وأعجبَ الحمارَ كثرةُ قرونه، وأنه المعنيُّ الذي أراد هشَّ إليه وفكَّر وقال: ما حملَ الأيَّلُ هذه القرون إلَّا وعنده رماحٌ وقِسيٌّ وسائر أنواع السلاح، وبلا شك إنه ماهر بالفروسية، ولو استوى لي أن أهرب من موضعي وأُلازم هذا الأيَّلَ وأخدمه وأطيعه فيما يأمرني به لقد كنت أتفرَّس، وكان هو أيضًا إذا رأى خدمتي ونصحي وإكرامي لم يبخل عليَّ بهبة شيءٍ من السلاح، ولو لم يُرِدِ الله بي سعادةَ جَدٍّ ما ساق هذا الأيَّل إليَّ، وإنَّ الأيَّلَ لَمَّا رأى هيجان ذلك الحمار بقيَ مُتعجبًا لا يشرب، فقال الحمار: أظن أني قد أعجبته لِما رأى من شهامتي وحسني وقد اشتغل قلبه بي.

ثم إنَّ صاحب الأيَّل لما رآه لا يشرب ردَّه إلى بيته، وكان بيت صاحب الأيَّلِ بالقربِ من الشط الذي كان الحمار مربوطًا فيه، ولم يزل الحمار يمدُّ عينه وينظر إلى الأيَّلِ في رجوعه إلى أن دخل بيت صاحبه، وعلَّم على الموضع علامة يعرفه بها، ثم إنَّ صاحب الحمار ردَّه أيضًا إلى بيته وشدَّه على معلَفه وطرح له عَلَفًا، فكان الحمار مشغول القلب بالمُضيِّ إلى عند الأيَّلِ فلم يَهنِه أكل ولا شرب، وأخذ يفكِّر في ذلك، وقال: ينبغي أن أجعل هربي إليه في الليل؛ فلمَّا جاء الليل واشتغل أصحابه بالعشاء والشرب اجتهد حتى قلع مِقوده وخرج هاربًا إلى الدار التي دخل فيها الأيَّلُ، فلما انتهى إليه وجد الباب مغلقًا مستوثقًا منه فاطَّلع من شقِّ الباب فرأى الأيَّلُ مُخلًّى من رباطه، وخشيَ الحمار أن يراه الناس فوقف في زاوية الحائط إلى الغداة، فلمَّا كان بالغداة أخذ الرجل الأيَّلَ ومضى به إلى النهر ليسقيه، وكان الرجل يمشي قدامه ويسوقه بحبل مربوط في عنقه، فلمَّا رأى الحمار ذلك اتَّبعه يماشيه ويخاطبه بلغته، ولم يكن الأيَّلُ عارفًا بلغة الحمير فلم يفهم عنه كلامه ونفر منه، وأخذ يقاتله، والتفت صاحب الأيَّل وكان معه عصا فضربه، فقال الحمار في نفسه: ما يمنعني من كلام هذا الأيَّلِ واللطف به والخدمة له وكشْف ما عندي إلَّا هذا الرجل الذي يقوده؛ فوثب عليه وقبض على ظهره بأسنانه فعضَّه عضَّة شديدة، فما تخلص الرجل منها إلَّا بعد شِدَّة، فقال الرجل: إن أنا واخذته لم آمن من بليَّةٍ يلقيها بي، ولكني أودُّ أن أعلِّم فيه علامةً حتى إذا رأيته طالبت صاحبه بثأري، فأخرج سكِّينًا كانت معه فقطع بها أذني الحمار، وعاد الحمار إلى دار أصحابه، وكان الذي نزل به من

صاحبه أشدَّ من قطع أذنيه، فحينئذٍ فكَّر الحمار وقال: لقد كان آبائي أقدَر منِّي على هذا، لكن خافوا من سوء عاقبته فامتنعوا منه.

قال الملك: قد سمعت مَثلك هذا، وما سبيلك أن تخاف من هذا الأمر، فإنه — والعياذ بالله — إن لم يتمَّ لنا ما نريده منه فلا بأس عليك وعليَّ، فنحن قادرون على خلاص نفوسنا من سوء عاقبته. فلمَّا رأى الوزير الملك مُشتهيًا لهذا الأمر لم يمارِهِ بعدها فيه، ولكن دعا له.

ثم إنَّ الملك أمر بالمناداة في جميع أعماله ألَّا يبقى صغير ولا كبير إلَّا ويجيئه في يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا بحِملِ حطب، فعمل الناس على هذا، وكان الملك قد عرف الوقت الذي ينقص فيه هبوب الرياح، فلمَّا كان في ذلك الوقت أمر الناس بسدِّ النقب بالحجارة والحطب والتراب، وأن يبنوا عليه دَكَّةً عظيمةً، ففعلوا ذلك، وامتنعت الرياح التي كانت تخرج من ذلك النقب، وفقد البلد كله نسيمَ الهواء وهبوب الرياح، فجفَّت الأشجار ونشِفت المياه، ولم يمضِ ستة أشهر حتى جفَّت العيون، ويبست كل خضراء في الجبل من الشجر والنبات، وبلغ ذلك إلى نحوٍ من مائة فرسخ، وتماوتت المواشي وسائر الحيوانات، ووقع الوباء في الناس، وهلك خلقٌ كثير؛ فلم يزل هذا البلاء بأهل البلد فوثب من بقيَ منهم ممَّن به رمق، وتجمعوا إلى باب الملك فقتلوه ووزيرَه وأهله ولم يبقَ منهم أحد، ثم مضوا إلى باب ذلك النقب فقلعوا الدكَّان والحجارة من الباب وطرحوا في ذلك الحطب نارًا فالتهبت، فلمَّا بدأت في اللهيب عاد الناس إلى مواضعهم، ثم إنَّ الريح التي كانت قد احتقنت في مدة الستة أشهر خرجت بحميَّة شديدة فطرحت النار في سائر البلد، ودام هبوب الرياح يومين وليلتين، فلم يبقَ في ذلك مدينة ولا قرية ولا حصن ولا شجرة إلَّا أحرقته النار.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن ما يُتوارث ويسري في الجنس صعب الزوال، ولكنَّ سبيل الإنسان إذا أراد أن يُباشر أمرًا من الأمور، وكان بالقرب منه رجل حكيم، أن يَسأله أولًا ويُشاوره ويأخذ رأيه فيه، وإن لم يكن بالقرب منه فسبيله أن يشاور العوامَّ فيه ويطلب البحث معهم والتفتيش؛ فإنه بهذا الطريق يمكنه أن يعلم ما في عاقبة هذا الأمر من الخير والشرِّ عندما يمعن في الفحص والتنقيب.

فلمَّا سمع الملك ذلك بدأ يُشاور الثلاثة وزراء بالعكس من أسفل إلى فوق، فقال لأصغرهم عنده: ما تقول أنت في هذا الأمر الذي نحن فيه، وما الذي يجب أن نَصْنَع؟ قال الوزير: عندي أن تُجعل أجراس كثيرة، ويعلَّق كل جرسٍ منها في عنقِ واحدٍ من السنانير

ليكون كلما ذهب وجاء سمعنا صوت الجرس فحذِرنا منها ولم يَنَلْنَا مضرَّة. فقال الملك للوزير الثاني: ما الذي عندك فيما أشار به صاحبك؟ قال: أنا غير حامد لمشورته، وَهَبْنَا أحضرنا أجراسًا كثيرة، مَن ذا يقدر أن يتقدَّم إلى السنَّوْر حتى يُعلِّق عليه ذلك؟ وهبنا علَّقنا الأجراس في رقابها، فما الذي يمنع السنَّوْر من الإضرار بنا؟ وما الذي يزيل عنَّا الخوف؟ ولكن الذي عندي أن نخرج جميعنا من هذه المدينة ونقيم في البرِّية سنة واحدة إلى أن يعلم أهل المدينة أنهم قد استغنوا بغيبتنا عن السنانير؛ لأنه قد يلحق الناس مضرة عظيمة من السنانير، فإذا علموا أنه لم يبقَ في المدينة جُرَذ واحد قتلوا السنانير وطردوها وتهاربت، فإذا هلكوا عُدنا نحن بأجمعنا إلى المدينة كما كنَّا. قال الملك للوزير الثالث: ما عندك فيما قال الوزير؟ قال: أنا غير حامدٍ لما قال، وذلك أنَّا لو خرجنا بأجمعنا إلى البرِّية، وأقمنا فيها سنة واحدة، فعلى كل حال ليس يمكن أن تفنى السنانير من هذه المدينة، ونلقى نحن في البرِّية من الشقاء والبلاء ما ليس هو بدون فزعنا من السنانير؛ لأنَّا لم نَعْتَدِ الشقاء قبل هذا، ثم إنَّا لو رجعنا إلى المدينة لم يدُمْ لنا ذلك الأمر إلَّا مُدَّة يسيرة، وذلك أنَّ الناس إذا عدنا وعاد فسادنا أعادوا السنانير وعادت الحال في الفزع كما كان، ويمضي شقاؤنا وغربتنا فارغًا؛ قال له الملك: فقل الآن أنت ما عندك.

قال الوزير، وهو روذباد: لا أعرف في هذا الباب إلَّا حيلةً واحدةً، وهو أن يُحضِر الملك إلى حضرته جميع الجُرذان الذين في هذه المدينة ونواحيها، فيأمرهم أن يتخذ كل واحدٍ منهم في البيت الذي يأوي فيه ثقبًا يسع جميع الجُرذان، ويُعِدُّ فيه زادًا لكفايتهم عشرة أيام، ويفتح للبيت سبعة أبواب مما يلي الحائط، وثلاثة أبواب مما يلي خزانة الرجل والثياب والفُرُش، فإذا فعلوا هذا قُمنا بأجمعنا إلى دار بعض الموسرين ممن يكون له في داره سنَّورٌ واحد، وأقمنا على كل باب من السبعة أبواب نرصد السنَّوْر كيلا يدخل علينا بغتة، ويكون لنا عليه عين على ذهابه ومجيئه؛ لأنَّه لا بدَّ من أن يطمع ويقف على بعض الأبواب، ثم ندخل بأجمعنا من الثلاثة أبواب إلى خزانة المتاع، ولا نَعْرِضَ للمأكول، ولكن نقصد إلى الفساد في الكسوة والفرُش، ولا نُسرف في الفساد، فإذا رأى صاحب المنزل ذلك الفساد قال: لعلَّ هذا السنَّوْر لا يكفي! فيزيد آخر، فإذا فعل ذلك أكثرنا من الفساد وبالغنا فيه، فيميِّز ذلك صاحب المنزل ويقول: إنَّ الفساد يزيدُ بكثرة السنانير، ولكني أُجرِّب بإخراج سنَّوْرٍ واحدٍ، فإذا فعل ذلك ونقص سنَّوْر نقصنا نحن من الفساد قليلًا، فإذا أخرج الثاني نقصنا أيضًا من الفساد أكثر، فإذا أخرج الثالث خرجنا من ذلك المنزل إلى غيره وأجرينا أمره مجرى البيت الأول، فلا نزال ندور من منزل إلى منزل

ونملأ المدينة وندورها إلى أن يتبيَّن للناس أنَّ الذي يلحقهم من المضرَّة العظيمة هي من قِبَل السنانير، فإنهم إذا تبيَّنوا ذلك لم يقتصروا على قتل السنانير التي في البيوت فقط لكنهم يطلبون السنانير البرِّية فيقتلونها.

ففعل الملك وسائر الجرذان ما أشار به الوزير، فما مضت ستة أشهر حتى هلك كل سنَّور في المدينة ونواحيها، ومضى ذلك الجيل من الناس، ونشأ بعدهم قرنٌ آخر على بِغضة السنانير، فكانوا متى ظهر لهم أدنى فسادٍ من الفأر يقولون: انظروا لا يكون اجتاز بالمدينة سنَّوْر، وكانوا أيضًا متى حدث بالناس أو بالبهائم مرض يقولون: يوشك أن يكون عبر بهذه المدينة سنَّوْر، فبهذا النحو تخلَّص الجرذان من فزع السنانير واطمأنوا منهم.

فإذا كان هذا الحيوان الضعيف المهين احتال بمثل هذه الحيلة حتى تخلَّص من عدوِّه، ودَفع الضرر عن نفسه، فما يجب أن نقطع الرجاء من الإنسان — الذي هو أكيس الحيوان وأكمله وأحكمه — أن يدرك من عدوِّه ما أراد بحيلته وتدبيره.

باب السِّنَّور والجرذ

قال الملك للفيلسوف: قد سمعتُ المَثَل الذي ضربتَ، فاضرِب لي الآن إن رأيت مَثَلَ رجلٍ كثُر عدوُّه وحصروه من كل جانب، فأشرف على الهَلَكة، فالتمس المخرج بموالاة بعض العدوِّ ومصالحته، فسلِم ممَّا يتخوَّف، ووفى لمن صالح منهم، فأخبرني عن موضع الصلح وكيف يُلتَمس ذلك؟

قال الفيلسوف: إنَّ العداوة والمودَّة والبغضاء ليس كلُّها تثبت وتدوم، وكثيرٌ من المودة يتحوَّل بُغضًا، وكثيرٌ من البُغضِ يتحول محبة ومودَّة عن حوادث العلل والأمور، وذُو الرأي والعقل يُهيئ لكل ما حدث من ذلك رأيًا، من الطمع فيما يحدث من ذلك قِبَل العدوِّ، واليأس مما عند الصديق، فلا يمنعنَّ ذا العقل عداوةٌ كانت في نفسه لعدوِّه من مقاربته والتماس ما عنده، إذا طمع منه في دفع مخوف، ويُعمِل الرأي في إحداث المواصلة والموادعة، ومَن أبصر الرأي في ذلك فأخذ فيه بالحزم ظفِر بحاجته، ومن أمثال ذلك مَثَلُ الجُرَذ والسِّنَّور اللذين اصطلحا حين كان ذلك الرأي لهما صوابًا، وكان في صلحهما صلاحهما جميعًا ونجاتهما من الورطة الشديدة، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض سَرَنديب شجرة من الدَّوح،[1] وكان في أصلها جُحر

[1] هذا الباب مذكور في «المهابهارتا»، واسم الشجرة التي في أصلها جُحرا الجرذ والسنَّوْر في النسخة السريانية الحديثة: «بيروز»، وفي القديمة: «بيرات»، وبين هذين الاسمين واسم الشجرة التي ذكرت في نسختنا (باب البوم والغربان) مشابهة، وكأن أحد الاسمين محرَّف عن الآخر أو هما محرَّفان عن أصلٍ واحد.

لجُرَذ يُقال له فريدون، وجُحر لسِنَّور يُسمَّى رومي،[٢] وكان الصيَّادون ربما اجتازوا بذلك المكان يلتمسون صيد الوحش، وأنَّ صيَّادًا مرَّ ونصب حباله ذات يوم فوقع فيها رومي، وخرج الجرذ يبتغي ما يأكل وهو مع ذلك حَذِر يلتفت وينظر، فلمَّا رأى السنَّوْر مقتنصًا في الحبال فرح، ثم التفت خلفه فأبصر ابن عِرس قد تبعه، فنظر فوقه فإذا بومة على شجرةٍ ترصُده، فخاف إن انصرف راجعًا أن يثب عليه ابن عِرس، وإن ذهب يمينًا أو شمالًا أخذته البومة، وإن تقدَّم فالسنَّوْر أمامه، فقال الجرذ: هذا بلاءٌ قد اكتنفني، وشرور قد تظاهرت عليَّ، ولا مَفْزع لي إلَّا إلى عقلي وحيلتي، فلا يكونَنَّ الدهَش من شأني، ولا يَذهبنَّ قلبي شَعاعًا؛ فإنَّ العاقل لا يتفرَّق عليه رأيه، ولا يعزُب عنه عقله على حال، وإنما عقول ذوي الرأي كالبحر الذي لا يُدرَك غَورُه، ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي مجهودَ عقله فيُهلِكه، ولا الرخاء ينبغي له أن يبلغ منه مبلغًا يُبطره ويُسكِره ويُعمي عليه أمره.

ثم قال: لا أرى حيلةً أمثَلَ من التماس صلح السنَّوْر؛ فإنَّ السنَّوْر قد نزل به بلاء، ولعلِّي أقدر على صلاحه، ولعلَّه لو قد سمع منِّي ما أكلمه به من الكلام الصحيح الذي لا خداع فيه أن يفهم عنِّي ويطمع في معرفتي، ويسلَس بذلك لصلحي، ولعلَّه يكون له ولي في ذلك نجاة، ثم دنا منه فقال: كيف حالك؟ فأجابه السنَّوْر: كالذي تهوى، في الضنك والضيق! قال الجرذ: لا تكذيب لك، لعمري لقد كان يسرُّني ما ساءك، وأرى ما ضيق عليك لي سعة، ولكنِّي اليوم قد شاركتك في البلاء، فلا أرجو لنفسي خلاصًا إلَّا بالأمر الذي أرجو لك به الخلاص، فذلك الذي عطفني عليك، وستعرف مقالتي أنْ ليس فيها ريبٌ ولا مخادعةٌ، فإنه قد ترى مكان ابن عِرس كامنًا لي، والبومة تُريد اختطافي، وكلاهما لي ولك عدوٌّ، وهما يخافانك ويهابانك، فإن أنت جعلت لي أن تُؤمِّنني إن أنا دنوت منك فأنجو بذلك منهما؛ فإني مُخلِّصك مما أنت فيه، فاطمئِنَّ إلى ما ذكرتُ، وثق به منِّي، فإنه ليس أحدٌ أبعدَ منَ الخير من اثنين منزلتُهما واحدة وصفتُهما مختلفة: أحدهما من لا يثق بأحد، والآخر من لا يثق به أحد، ولك عندي الوفاء بما جعلتُ لك من نفسي، فاقبَل منِّي واسترسِل إليَّ وعجِّل ذلك ولا تؤخِّر، فإنَّ العاقل لا يؤخِّر عمله، ولتَطِبْ نفسك ببقائي

[٢] في النسخة السريانية الحديثة اسم القط: «رومي»، واسم الفأر: «أفريدْيون»، وفي السريانية القديمة: «بريد» و«روما».

كما طابت نفسي ببقائك؛ فإنَّ كل واحدٍ منَّا ينجو بصاحبه، كالسفينة والركَّاب في البحر، فبالسفينة يخرج الركَّاب من البحر وبالركَّاب تخرج السفينة.

فلمَّا سمع السنَّوْر مقالة الجرذ سُرَّ بها، وعرف أنه صادق، فقال للجرذ: أرى قولك شبيهًا بالحق والصدق، فأنا راغبٌ في هذا الصلح الذي أرجو لنفسي ولك فيه الخلاص، ثم أشكر لك ذلك ما بقيت وأجازيك به أحسن الجزاء. قال الجرذ: فإذا دنوتُ منك فليَرَ ابن عِرس والبومة ما يعرفان به صلحنا فينصرفان آيسين، وأُقبِل أنا على قرضِ الحبال؛ فلمَّا دنا الجرذ من السنَّوْر أخذه فالتزمه، فلمَّا رأت البومة وابنُ عِرس ذلك انصرفا خائبين، وأخذ الجرذ في قطع حبائل السنَّوْر فاستبطأه السنَّوْر وقال للجرذ: ما أراك جادًّا في قطع رباطي، فإن كنت — حين ظفرت بحاجتك — تبدَّلت عما كنتَ عليه وتوانيت في حاجتي فليس هذا للكريم بخلق؛ أن يتوانى في حاجة صاحبه إذا استمكن من حاجة نفسه، وقد كان لك في مودَّتي من عاجل المنفعة والاستنقاذ من الهلكة ما قد رأيتَ، وأنت حقيقٌ أن تكافئني، ولا تذكرَ عداوةَ ما بيني وبينك؛ فإنَّ ما حدث بيننا حقيقٌ أن يُنسِيك ذلك، وإنَّ الكريم لا يكون إلَّا شكورًا غير حقود، تُنسيه الخَلَّةُ الواحدة من الإحسان الخِلال الكثيرة من الإساءة، وأعجَل العقوبة عقوبةُ الغدر واليمين الكاذبة، ومَن إذا تُضُرِّع إليه وسُئل العفو لم يعفُ ولم يصفَح. قال الجرذ: الأصدقاء صديقان: طائع ومضطرٌّ، وكلاهما يلتمس المنافع ويحترس من المضارِّ، فأمَّا الطائع منهما فيُستَرسل إليه ويوثَق به على كل حال، وأمَّا المضطر فإنَّ له حالاتٍ يُستِرسل إليه فيها، وحالاتٍ يُتَّقى فيها، فلا يزال العاقل يَرتهن منه بعض حاجته ببعض ما يُتقَى وما يُخاف، وليس عامَّة التواصل والتحاب بين الناس إلَّا التماس عاجلِ النفع، وأنا وافٍ لك بما جعلت على نفسي، ومحترسٌ من أن يصيبني منك مثلُ الذي ألجأني إلى صلحك؛ فإنَّ لكل عملٍ حينًا، وإن لم يكن في حينه فلا عاقبةَ له، وأنا قاطعٌ حبائلك لوقتها، غيرَ أنِّي تارك عُقدةً واحدةً أرتهنك بها، فلا أقطعها إلَّا في الساعة التي أعرف أنك عنِّي فيها في شُغُل، ففعل ذلك، وباتا يتحادثان حتى إذا أصبحا إذا هما بالصيَّاد قد أقبل من بعيد. فقال الجرذ: الآن جاء موضع الجِدِّ في قطع بقية حبائلك، فقطع حبائله، ولم يدنُ منهما الصياد حتى فرغ الجرذ، على سُوءِ ظنٍّ من السنَّوْر ودَهَش، فلمَّا أفلت عدا إلى الشجرة فصعدها، ودخل الجرذ الجحر، فأخذ الصيَّاد حبائله مقطَّعة وانصرف خائبًا.

وخرج الجرذ بعد ذلك من جُحره فرأى السنَّوْر من بعيد، فكره أن يدنوَ منه، وناداه السنَّوْر: أيها الصديق، ذا البلاء الحسن! ما يمنعك من الدنوِّ منِّي لأجزيك بأحسن ما أبليتني؟ هلمَّ إليَّ ولا تقطع إخائي، فإنه مَن اتخذ صديقًا ثم أضاع ودَّ إخائه حُرِم ثمرة الإخاء، وأيس من منفعة الإخوان، وإنَّ يدك عندي اليدُ التي لا تُنسى، فأنت حقيقٌ أن تلتمسَ مكافأة ذلك منِّي ومن إخواني وأصدقائي، فلا تخافنَّ منِّي شيئًا، واعلم أنَّ ما قِبَلي لك مبذول، ثم حلف له واجتهد على تصديق ما قال، فأجابه الجرذ أنه رُبَّ عداوةٍ باطنةٍ ظاهرُها صداقة، وهي أشدُّ ضرًّا من العداوة الظاهرة، ومَن لم يحترس منها وقع موقع مَن يركب ناب الفيل المغتلِم ثم يغلبه النعاس، وإنما سُمِّي الصديقُ صديقًا لما يُرجى من نفعه، وسُمِّي العدوُّ عدوًّا لما يخاف من ضرره؛ فإنَّ العاقل إذا رجا نَفْع العدوِّ أظهر له الصداقة، وإذا خاف ضَرَّ الصديق أظهر له العداوة، أوَلَا ترى أولاد البهائم تتبَع أمهاتها رجاء ألبانها، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها؟ وكما أنَّ السحاب يلتئم ساعة ويتقطَّع أخرى، ويَهمي ساعة ويُمسِك أخرى، كذلك العاقل يتلوَّن مع متلوِّنات الأمور عن اختلاف أحوال الأصحاب، فينبسط مرة وينقبض أخرى، ويسترسل مرة ويحترس أخرى، وربما قَطَعَ المرءُ عن صديقه بعض ما كان يصله بفضله فلم يخَفْ شرَّه؛ لأنَّ أصل أمره لم يكن عداوة، فأمَّا من كان أصلُ أمره عداوة، وتحدث صداقته لحاجةٍ حملته على ذلك، فإنه إذا ذهب الأمر الذي أحدث ذلك صار إلى أصل أمره، كالماء الذي يسخن بالنار، فإذا رُفِع عنها عاد باردًا، فلا عدوَّ أضرُّ لي منك، وقد كان اضطرني وإياك أمرٌ أخرجنا إلى ما صرنا إليه من المصالحة، وقد ذهب الأمر الذي احتجتَ إليَّ واحتجتُ إليك فيه، وأخافُ أن يكون مع ذهابه عَود العداوة بيني وبينك، ولا خيرَ للضعيفِ في قربِ العدوِّ القويِّ، ولا للذليلِ في قربِ العدوِّ العزيزِ، ولا أعلمُ لك فيَّ حاجة إلَّا أن تريد أكلي، ولا أرى الثقة بك، فإنِّي قد علمت أنَّ الضعيف هو أقرب إلى أن يَسلم من العدوِّ القويِّ إذا هو احترس منه ولم يغتر به، من القويِّ إذا اغتر بالضعيف واسترسل إليه، والعاقل يصانع عدوَّه إذا اضطُرَّ إليه فيظهرُ له وُدَّه ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدًّا، ويعجِّل الانصراف عنه إذا وجد إلى ذلك سبيلًا.

واعلم أن صريع الاسترسال[٣] لا يكاد يستقيل عثرته، والعاقل يفي لمن صالح بما جعل له، ويثق بذلك من نفسه، ولا يثق لها بمثل ذلك من أحد، ولا يؤثر على البعد من

[٣] ما بين كلمة «الاسترسال» في هذا السطر والذي قبله ساقطٌ من نسختنا، وقد نقلناه عن نسخة شيخو.

عدوِّه، ما استطاع، شيئًا، والبعد لك من الصيَّاد والبعد لي منك مِن أحزم الرأي، وأنا أَوَدُّك من بعيد، ولا عليك أن تَجزيني بمثل ذلك إن رأيت، وإلَّا فلا سبيل إلى اجتماعنا أبدًا، والسلام.

باب الملك والطير قبرة

قال الملك[١] للفيلسوف: قد سمعتُ مَثَل الرجلِ يُحيط به عدوُّه فيستظهر ببعضهم على بعض، ويُصالحه حتى يتخلص بذلك مما يخاف وقد وَفى وسَلِم، فاضرب لي — إن رأيت — مَثَلَ أهل التِّرات والذي ينبغي لبعضهم من الاتقاء لبعض.

[١] هذه القصة مذكورة في «المهابهارتا»، واسم الطائر في النسخ الأخرى «فَنزة» أو «فِنزة» أو «فُنزة» غير مشكول، وهو في النسخة السريانية الحديثة: «بنزه»، وفي القديمة: «بيزوه»، وهي صيغ أدَّى إليها التحريف، وأصلها في السنسكريتية: «بوزاني». و«فِنزة» أقرب الصيغ إلى الأصل، ولكننا لم نشأ تغيير الاسم «قبَّرة» الذي في نسختنا لأنه قديم يرجع إلى عصر ابن الهبارية على الأقل، جاء في منظومة «كليلة ودمنة» لهذا الشاعر:

طيرٌ يربِّيه يسمَّى قبَّره　　كدُميةٍ في حائط مصوَّره

قال الفيلسوف: زعموا أنَّه كان ملك من الملوك يُقال له بَرَهْمود،[٢] وكان له طائر يُقال له قُبَّرة، وكان ناطقًا كيِّسًا، ومعه فرخ له، فأمر الملك بقُبَّرة وبفرخِه فجُعِلا في مكان عند امرأة هي سيدة نسائه، وأمرها بالاستيصاء به، وأنَّ امرأة الملك ولدت غلامًا، فلمَّا شبَّ قليلًا أَلِفَ الفرخ الغلام، فكانا يلعبان جميعًا ويأكلان معًا، وكان قبَّرة يذهب إلى الجبل كل يوم فيجيء بثمرتين من فاكهة لا تُعرف فيُطعِم إحداهما فرخَه، والأُخرى ابنَ الملك، فأسرع ذلك في نباتهما وقوَّتهما حتى استبان ذلك للملك، فزاد قبَّرة عنده كرامة، حتى إذا كان ذات يوم وقبَّرةُ غائب في ابتغاء الثمرتين إذ وثب فرخ قبَّرة في حجر الغلام، فغضب الغلام من ذلك وضرب بالفرخ الأرض فقتله.

فلمَّا جاء قبَّرة ورأى فرخه مقتولًا حزن وصاح وقال: قُبحًا للملوك الذين لا عهدَ لهم ولا وفاءَ! وويلٌ لمن ابتُلِيَ بصحبتهم! فإنهم لا حميمَ لهم ولا حريمَ، ولا يحبُّون أحدًا، ولا يكرُم عليهم إلَّا أن يطمعوا عنده في غَناء فيقرِّبوه عند ذلك ويكرموه، فإذا قضوا منه حاجتهم فلا وُدَّ ولا حِفاظَ، ولا الإحسان يجزون به، ولا الذنب يَعفون عنه، الذين إنما أمرهم الفخرُ والرياء والسمعة، الذين كلُّ عظيمٍ من الذنوب يركبونه، وهو عندهم صغير حقير هيِّن. ثم قال: لأنتقِمَنَّ اليوم من الكَفور الذي لا رحمةَ له، الغادر بإلفه وتِرْبه، وصاحب ملاعبته ومواكلته، ثم وثب في وجه الغلام ففقأ عينيه برجليه، ثم طار فوقع على مكانٍ مُشرِف.

فبلغ الملك ذلك وما فعل بابنه، فجزع جزعًا شديدًا، وطمع أن يحتال لقبَّرة فيظفر به، فركب إليه ووقف عنده وناداه ودعاه باسمه، وقال: أنت آمِن فأقبِل إلينا؛ فأبى ذلك

---

[٢] في النسخة السريانية الحديثة وبعض النسخ العربية أنَّ هذا الملك كان في كشمير، وكأنها محرفة أو مبدلة من الاسم الذي في السريانية القديمة: «كامبليا»، واسم الملك في النسخ العربية المطبوعة: «بريدون»، وفي الفارسية: «ابن مدين»، وفي السريانية الحديثة: «برمزير»، وفي القديمة: «برمشرين»، ويُظنُّ أن هذه الصيغ كلها ترجع إلى السنسكريتية: «بَرَهَمَدتَّا». ومن البيِّن أنَّ أقرب الأسماء إلى الأصل السنسكريتي ما في نسختنا: «برهمود»، وتوافقها منظومة ابن الهبارية:

قال نعم كان لبَرْهمود　　الملك المعظَّم المحسود

قبَّرة وقال: أيها الملك، إن الغادر لا يُجاز له بغدره، وإن أخطأه عاجل العقوبة لم يخطِئه آجلها، حتى تدركَ الأعقابَ وأعقابَ الأعقابِ، وإن ابنك غدر بابني، فعجَّلت له العقوبة.

قال الملك: قد — لعمري — فعلنا ذلك بك، فانتقمت منَّا، فليس لنا قِبَلك ولا لك قِبَلنا وترٌ مطلوب، فارجع إلينا آمنًا، قال قبَّرة: لستُ راجعًا إليك، فإن ذوي الرأي قد نُهوا عن قُرب الموتور، وقالوا: لا يزيدَنك لطفُ الحقود ولينُه وتكرِمتُه إلَّا وحشة منه، فإنك لا تجدُ للموتور الحقود أمانًا هو أوثقُ من الذعرِ والبعد عنه والاحتراس. وكان يُقال: إنَّ العاقل إنما يَعُدُّ أبويه من الأصدقاء، ويعدُّ الإخوة من الرفقاء، والأزواج إلفًا، والبنين ذِكرًا، والبنات خصيمات، والأقارب غرماء، ويعدُّ نفسه فردًا وحيدًا، وأنا اليوم الفرد الوحيد قد تزوَّدت من عندكم من الحزنِ عِبئًا ثقيلًا لا يحمله معي أحد، وأنا ذاهب فعليك السلام.

فقال الملك: إنك لو لم تكن اجتزيت منَّا ما صنعنا بك، ولو كان صنيعك بنا من غير ابتداءٍ منَّا إليك بالغدر كان الأمر كما ذكرت، فأمَّا إذ كنَّا نحن بدأناك فما ذنبك؟ وما الذي يمنعك من الثقة بنا؟ فهلمَّ فارجع فإنك آمِن، قال قبَّرة: إنَّ للأحقاد في القلوب لمواقعَ مُوجِعة خفيَّة، فالألسن لا تصدُق عن القلوب، والقلبُ أعدل على القلبِ شهادةً من اللسان، وقد علمتُ أنَّ قلبي لا يشهد للسانك، ولا قلبك للساني؛ قال الملك: ألست تعلمُ أنَّ الضغائن والأحقاد تكون بين كثيرٍ من الناس، فمن كان له عقل كان على إماتة الحقد أحرصَ منه على تربيته؟ قال قبَّرة: إن ذلك لكَمَا ذكرْتَ، وليس ذو الرأي مع ذلك بحقيقٍ أن يظنَّ بالموتور أنَّه ناسٍ ما وتره به ومنصرفٌ عنه، وذو الرأي جديرٌ بأن يتخوَّف الحيَل والخُدَع، ويعلم أنَّ كثيرًا من الأعداء لا يُستطاع بالشدَّة والمُكابرة حتى يُصاد بالرفق والمُلاينة كما يُصاد الفيلُ الوحشيُّ بالفيلِ الداجنِ. قال الملك: إنَّ الكريم لا يترك إلفه، ولا يقطع إخوانه، ولا يُضيع الحِفاظ، وإن هو خاف على نفسه، حتى إنَّ هذا الخُلق ليكون في أوضع الدواب منزلة، وقد عرفنا أنَّ ناسًا يذبحون الكلاب ويأكلونها، فيرى ذلك الكلب الذي قد ألفهم، فيمنعه إلفه إياهم من أن يُفارقهم، قال قُبَّرة: إنَّ الأحقاد مخوفة حيثُ كانت، وأشدُّها ما كان في أنفُس الملوك، فإن الملوك يدينون بالانتقام، ويرون الطلب بالوتر مكرُمة وفخرًا، ولا ينبغي للعاقل أن يغترَّ بسكون الحقود، فإنما مَثَل الحقد في القلب، ما لم يجد مُتحرَّكًا، مثَل الجمر المكنون ما لم يجد حطبًا، فلا يزال الحقد يتطلَّع إلى العِلل كما تبتغي النار الحطب، فإذا وجد عِلَّةً استَعَرَ استعار النار، فلا يُطفئه ماءٌ ولا كلامٌ ولا لين ولا رفقٌ ولا خضوعٌ ولا تضرُّعٌ ولا شيء دون تلف الأنفس، مع أنه رُبَّ واترٍ يطمع في مراجعة الموتور لما يرجو أن يقدر عليه من النفع له والدفع عنه، ولكني

أضعف من أن أقدر لك على ما يُذهب ما في نفسك، ولو كانت نفسك لي على ما تقول كان ذلك عنِّي مغيَّبًا، فأنا لا أزال في خوفٍ وسوءِ ظنٍّ ما اصطحبنا، وليس الرأي إلَّا الفراق، وأنا أقرأ عليك السلام.

قال الملك: قد علمت أنه لا يستطيع أحدٌ لأحدٍ ضرًّا ولا نفعًا، وأنه لا شيءَ من الأشياء صغيرًا ولا كبيرًا يصيب أحدًا إلَّا بقَدَرٍ مقدور، وكما أنَّ خَلْقَ ما يُخلق وولادةَ ما يُولد وبقاء ما يبقى ليس إلى الخلائق منه شيء، كذلك فناء ما يفنى وهلاك ما يهلِك، فليس لك عندي فيما صنعت بابني ولا لابني في هلاك فرخك ذنب، إنما كان ذلك قدرًا مقدورًا، وكنَّا له عِللًا، فلا تؤاخذنا بما أتاك به القدر. قال قبَّرة: إن أمر القدر لَكَمَا ذكرت، ولكن ليس ذلك حقيقًا أن يُمنع الحازم مِنْ توقِّي المخوف والاحتراس من المحترَس منه، ولكنه يجمع تصديقًا بالقدر وأخذًا بالقوَّةِ والحزمِ، وأنا أعلم أنك تحدِّثُني بغير ما في نفسك، والأمر فيما بيني وبينك غيرُ صغيرٍ، إنَّ ابنك قتل فرخي، وفقأتُ أنا عينيه، فأنت الآن تُريد بي القتل، وتخاتلني عن نفسي لتشتفي منِّي، والنفس تأبى الموت، وقد كان يُقال: الفاقةُ بلاء، والحزنُ بلاء، وقربُ العدوِّ بلاء، وفراقُ الأحبةِ بلاء، والسقمُ بلاء، والهرم بلاء، ورأس البلايا كلها الموت، وليس أحد أعلمَ بما في نفس الموجَع المحزون ممَّن ذاق مِثلَ ما به، وأنا بما في نفسك منِّي عالمٌ؛ للمثال الذي عندي من ذلك، فلا خيرَ لي في صحبتك؛ فإنَّك لن تذكر صنيعي بابنك ولن أذكر صنيع ابنك بفرخي إلَّا أَحْدَثَ ذلك لقلوبنا تغيُّرًا.

قال الملك: إنه لا خيرَ فيمن لا يستطيع الإعراض عمَّا في نفسه، ويميته ويتناساه، حتى لا يذكر منه شيئًا، ولا يكون له في نفسه موقع؛ قال قبَّرة: إنَّ الرجل الذي في باطن قدمه قُرحة إن هو حرص على خفَّة المشي فلا بدَّ أن ينكأها، والرجل الرمِد إذا استقبل الريح فقد تعرَّض لإنكاء عينيه، وكذلك الموتور إذا دنا من عدوِّه فقد عرَّض نفسه للهَلَكة، ولا يستطيع صاحب الدنيا إلَّا توقِّيَ المتالف وتقديرَ الأمور وقلَّةَ الاتكال على القوَّةِ والحيلة، وقلَّة الاغترار بمن لا يأمن، فإنه من اتكل على قوَّته حمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف، ومن سلك الطريق المخوف فقد سعى في حتف نفسه، ومن لا يقدِّر طعامه وشرابه فحمل على نفسه وأعضائه ما لا يطيق فربَّما قتل نفسه، ومن لم يُقدِّر لقمته فأعظَمَها فوق ما يسع فوه غصَّ بها فمات، ومن اغترَّ بكلامِ عدوِّه وضيَّع الحذر فهو أعدى لنفسه من عدوِّه، وليس على الرجل النظرُ في القدَر الذي لا يدري ما يأتيه منه وما يُصرف عنه، ولكن عليه العمل بالحزم، والأخذ بالقوة في أمره، ومحاسبة نفسه في ذلك، والعاقل لا يُخيف أحدًا ما استطاع، ولا يقيمُ على الخوفِ وهو يجدُ مذهبًا، وأنا كثيرُ



المذاهبِ أرجو ألَّا أتوجَّه في وجهٍ منها إلَّا وجدت فيه ما يغنيني؛ فإنَّ خلالًا خمسًا مَن تَزودهنَّ بلَّغْنَه في كل وجه وطريق، وقرَّبن له البعيد، وآنسْنَ له الغربة، وأكسَبْنَه المعيشة والإخوان: كفُّ الأذى، وحُسنُ الأدب، ومجانبةُ الريبة، وكرمُ الخلُق، والنبلُ في العملِ، وإذا خاف العاقل على نفسه طابت نفسه عن الأهل والولد والوطن؛ فإنَّه يرجو في ذلك خلَفًا ولا يرجو من النفس خَلَفًا، وشرُّ المال ما لا يُنفَق منه، وشرُّ الأزواج التي لا تُواتي البعل، وشرُّ الولد العاصي، وشرُّ الإخوان الخاذل لإخوانه، وشرُّ الملوك الذي يخافه البريء، وشرُّ البلاد بلادٌ ليس فيها أمن ولا خصب، وإنه لا أمن بي أيها الملك معك، ولا طمأنينةَ لنفسي في جوارِك.

ثم ودَّع الملك وطار.

باب الأسد وابن آوى

قال الملك للفيلسوف: قد سمعتُ هذا المثل، فاضرب لي مثل الملوك فيما بينهم وبين قرابينهم، وفي مراجعةِ من يراجَع منهم بعد عقوبة أو جفوة تكون عن ذَنْبٍ يُذنِبه أو ظُلمٍ يُظلَمه.

قال الفيلسوف: إنَّ الملك لو كان لا يراجع مَن أصابته جفوة أو عقوبة عن جرم اجترمه أو ظلم ظُلِمَه أضرَّ ذلك بالأمور والأعمال، ولكن الملك حقيقٌ أن ينظر في حال من ابُتليَ بشيءٍ من ذلك وما عنده من الغَناء الذي يرجو منه النفع، فإنْ كَانَ ممن يُستعان به ويوثق برأيه وأمانته كان الملك حقيقًا بالحرص على مراجعته؛ فإنَّ المُلْك لا يستطاع إلَّا بالوزراء والأعوان، ولا يُنتفع بالوزراء والأعوان إلَّا بالمودَّة والنصيحة، ولا مودَّةَ ولا نصيحةَ إلَّا مع أصالة الرأي والعفاف، وأعمال الملك كثيرة، ومَن يحتاج إليه من العمَّال والأعوان كثير، ومَن يجمع منهم الذي ذكرت من النصيحة وأصالة الرأي والعفاف قليل، وإنما السبب في الوجه الذي به يستقيم العملُ أن يكون الملك عالِمًا بمودة مَن يُريد الاستعانة به، وما عند كل رجلٍ منهم من الرأي والغناء، وما فيه من العيوب، فإذا استقرَّ ذلك عنده من عِلْمه أو علم غيره، وعَلِم ما يستقيم به وجَّهَ لكلٍّ عمل مَن قد عرف أنَّ عنده من الأمانة والنجدة والرأي ما يستقل بذلك العمل، وأنَّ الذي فيه من العيب لا يضرُّ بذلك العمل، ويتحفظ من أن يوجِّه أحدًا في وجه لا يحتاج فيه إلى مُروءة إن كانت عنده، ولا تؤمن عيوبه وعاقبة ما يكره منه، ثم على الملك بعد ذلك تعاهُد عمَّاله والتفقُّد لأمورهم حتى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء، ثم عليهم بعد ذلك[١] ألَّا

[١] جملة «ثم عليهم – مسيئًا.» ساقطة من الأصل، ونُقِلَت عن شيخو.

يتركوا مُحسِنًا بغيرِ جزاء، ولا يقرُّوا مسيئًا ولا عاجزًا على العجز والإساءة، فإنهم إن ضيَّعوا ذلك وتهاونوا به تهاون المحسن واجترأ المسيء ففسد الأمر وضاع العمل، ومثَل ذلك مثَل الأسد وابن آوى. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض كذا وكذا ابن آوى، وكان متألِّهًا متعفِّفًا، وكان مع ذئاب وثعالب وبنات آوى، ولم يكن يصنع ما يصنعون ولا يُغِير كما يُغِيرون، ولا يأكل لحمًا، فخاصمته تلك السباع وقُلنَ له: لا نرضى بسيرتك ولا برأيك الذي أنت عليه، مع أن تألُّهك لا يُغني عنك شيئًا، وأنت لا تستطيع أن تكون إلَّا كأحدنا فتسعى معنا وتفعل فعلنا، فما الذي يُشبه كفَّك عن الدماء وتركك اللحم؛ قال ابن آوى: إنَّ صحبتي إياكم لا تؤثِّمني إن لم أؤثِّم نفسي؛ لأنَّ الآثام ليست من قِبَل الأماكن والأصحاب، ولكنها من قِبَل القلوب والأعمال، فلو كان صاحبُ المكان الصالح يكون عمله فيه صالحًا، وصاحبُ المكان الشرِّ يكون عمله فيه سيِّئًا، إذن كان مَن قَتَل الناسك في محرابه لم يأثم، ومن استحياه في معركة القتال أثِم، وإنما صحِبتكم بنفسي،[٢] ولم يصحبكم منِّي قلبٌ ولا عمل؛ لأني أعرف ثمرة الأعمال.

فثبت ابن آوى على حاله تلك، وشُهِر بالنسك والتألُّه حتى بلغ من الصدق والعفاف والأمانة أفضلَ ما بلغ أحدٌ من النسَّاك، وبلغ ذلك أسدًا كان ملكَ السباع بتلك الناحية، فرغِب فيه وأرسل إليه وكلَّمه وفتَّشه ودعاه إلى صحبته، فقال له: إنَّ مُلكي عظيم وأعمالي كثيرة، وأنا إلى الأعوان محتاج، وقد بلغني عنك نُبل وعفاف، ثم قدمتَ عليَّ فازددتُ بك إعجابًا، وفيك رغبةً، وأنا مُوَلِّيك من عملي جسيمًا، ورافعٌ منزلتك إلى منزلة الأشراف، وجاعلٌ لك منِّي خاصة. قال ابن آوى: إنَّ الملوك أحقُّ باختيار الأعوان فيما يهتمُّون به من أعمالهم وأمورهم مِن غير أن يُكرِهوا على ذلك أحدًا؛ لأنَّ المُكرَه لا يستطيع المبالغة في العمل، وأنا لعمل السلطان كاره، وليست لي به تجربة، ولا بالسلطان رفق، وأنت ملك السباع، وعندك من أجناس السباع عددٌ كثير، وفيهم أهل نبل وقوَّة، ولهم على العمل حرص، ولهم به رفق، فإن استعملتهم أغنَوا عنك، واغتبطوا لأنفسهم بما أصابوا من

[٢] «وإنما صحبتكم بنفسي.» كذلك جاءت في النسخ الأخرى، والأشبه بالصواب ما في المنظومة:

وإنما صحبتكم بجسمي ليس بقلبي وبصدق عزمي

ذلك. قال الأسد: دع عنك هذا فإني غير مُعفيك من العمل؛ قال ابن آوى: إنما يستطيع العملَ وصحبةَ السلطان رجلان لستُ بواحدٍ منهما: إمَّا فاجرٌ مُصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته، وإمَّا رجلٌ مَهين مغفَّل لا يَحسُده أحد، فأمَّا من أراد أن يصحب السلطان بالصدق والنصيحة والعفاف لا يخلط ذلك بمصانعة فقلَّما يستقيم له صحبتهم؛ لأنه يجمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد، أمَّا الصديق فينافسه في منزلته ويبغي عليه فيها ويعاديه، وأمَّا عدوُّ السلطان فيضغَن عليه بنصيحته لسلطانه وغَنائه عنه، فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان كان قد تعرَّض لهلاكه. قال الأسد: لا يكونَنَّ بغيُ أصحابي عليك وحسدُهم لك مما يَعرِض في قلبك، فإني كافيك ذلك، وبالغٌ بك في الكرامة والإحسان غاية همَّتك، قال ابن آوى: إذا كان الملك يريد الإحسان بي فليدَعني أعيش في هذه البرية آمنًا من أن أُحسَد، فإني قليل الهمِّ، راضٍ بمعيشتي من الماء والحشيش، وقد علمت أنَّ صاحب السلطان يصل إليه في ساعة واحدة من الأذى والخوف ما لا يصل إلى غيره طول دهره، وأنَّ قليلَ الغذاء في أمن وطمأنينة خيرٌ من كثيره في خوفٍ ونصب. قال الأسد: قد سمعتُ كلامك فلا تخافنَّ شيئًا مما أراك تتخوَّفه، ولا بدَّ من الاستعانة بك، قال ابن آوى: إن أراد الملك بي هذا فليجعل لي عهدًا، إن بغى عليَّ أحدٌ عنده ممن هو فوقي خوفًا على منزلته أو ممن هو دوني لينازعني منزلتي؛ فذَكَر عند الملك منهم ذاكرٌ بلسانه أو بلسانِ غيره ما يُريد به تحميل الملك عليَّ ألَّا يعجَل عليَّ وأن يتثبَّت فيما يُرفع إليه ويُذكر له من ذلك، ويفحص عنه ثم يقضي فيه بما بدا له، فإذا أنا وثقت من الملك بذلك أعَنته بنفسي، وعملت له فيما ولَّاني بنصيحة واجتهاد وحرصٍ على ألَّا أجعل على نفسي سبيلًا؛ قال الأسد: ذلك لك.

فولَّاه خزانته، واختصَّه دون أصحابه بالرأي والمشورة والمنزلة، وازداد به على الأيام عُجبًا، فزاده كرامةً وعملًا، فثقل ذلك على من كان يُطيف بالأسد من قرابينه وأصحابه وعُمَّاله، وعادَوه وحسدوه وَأْتَمَرُوا ليحمِّلوا عليه الأسد ويُهلكوه، فلمَّا اجتمعوا على ذلك من كيدهم دبَّروا ذات يوم للحمٍ كان الأسد استطرفه واستطابه، فأمره برفعه في موضع طعامه ليُعاد إليه، فسرقوه ثم أرسلوا به إلى بيتِ ابن آوى فخبَّئوه في موضعٍ لا يطَّلع عليه أحد، فلمَّا كان من الغد ودعا الأسد بغدائه فَقَدَ ذلك اللحم، والتمسه فلم يجده، وابنُ آوى غائبٌ والقومُ الذين أرادوا المكر به حضور، فلمَّا رأوا الأسد قد احتشد في طلب اللحم وغضب نظر بعضهم إلى بعضٍ فقال أحدهم قول المخبر الناصح: إنه لا بدَّ لنا أن نُخبِر الملك بعلمنا فيما يضرُّ به وينفعه، وإن شقَّ ذلك على مَن شقَّ عليه، إنه بلغني أن

ابن آوى كان ذهب باللحم إلى منزله، قال آخر: أراه شبيهًا أن يكون فعل ذلك، ولكن انظروا وافحصوا فإن معرفة الخلائق شديدة، قال آخر: أجَلْ، لعمري ما تكاد السرائر يُطَّلع عليها، ولكن إن فحصتم فوجدتم ذلك في منزل ابن آوى فكل شيءٍ كان يُذكَر لنا من عيوبه وخيانته حقٌّ، وحقيقٌ أن نحذره ونصدِّق كلَّ ما كان قيل لنا فيه، فقال آخر: كيف يسلم مَن خاتَل السلطان، وكيف يخفى ذلك له، ومخاتلةُ الأصحاب لا تكاد تخفى؟ قال آخر: لقد أخبرني مخبر عن ابن آوى بأمرٍ عظيم، فما وقع في نفسي حتى سمعت كلامكم، قال آخر: لم يَخْفَ عليَّ أمره وخبثه أولَ ما رأيته، وقد قلت مرارًا واستشهدت فلانًا: إنَّ هذا المخادع المتخشِّع يوشِك أن يفتِّش عن خيانة فاحشة وذنبٍ عظيم، قال آخر: لئن كان هذا المتألِّه المتخشِّع الذي يرينا أن عمله عملُ النسَّاك خان هذه الخيانة، إنَّ ذلك لمن أعجب العجب، قال آخر: لئن وُجِد هذا الأمر حقًّا فإنها ليست خيانة فقط، بل مع الخيانة كفرُ النعمة والجرأةُ على الذنوب، قال آخر: أنتم أهل العدل والفضل، ولا أستطيع أن أكذبكم، ولكن يستبين صدق هذا من كذبه لو قد أرسل الملك إلى بيت ابن آوى ففتشه، قال آخر: إن كان منزله مفتَّشًا فالعجَل؛ فإن عيونه وجواسيسه مبثوثة بكل مكان، قال آخر: قد علمت أن ابن آوى لو فُتِّش منزله واطُّلِع على عيوبه وخيانته سيحتال بمكره حتى يُشبِّه على الملك فيعذِره.

فلم يزالوا بهذا الكلام وأشباهه حتى وقع ذلك في نفس الأسد، وحقَّق الاتهام لابن آوى، فدعا به فقال: ما صنعتَ باللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به؟ قال: دفعته إلى فلان صاحب الطعام — وكان ممن تابع القوم — فسأله الملك عن اللحم، فقال: ما دفع إليَّ شيئًا، فوجَّه الأسد أمناءه إلى بيت ابن آوى فوُجِد اللحم في بيته فأتوا به الأسد، فدنا إلى الأسد ذئبٌ لم يكن ليتكلَّم بشيءٍ من تلك الأمور، وكان يُظهِر أنه من أهل العدل الذين لا يتكلَّمون إلَّا فيما صحَّ عندهم واستبان لهم أنه حقٌّ، فقال: أما إذا اطَّلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفوَنَّ عنه، فإنه إن عفا عنه لم يَعُد أحد يُطلع الملك على خيانة خائن ولا ذنب مذنب؛ فأمر الأسد بابن آوى أن يُخرَج من عنده ويُحتفظ به، فقال عند ذلك بعض جلساء الأسد: إني لأعجب من رأي الملك ومعرفته بالأمور، كيف يخفى عليه أمر هذا المخادع؟ وقال آخر: فأعجب من هذا أني لا أراه إلَّا سيصفح عنه بعد الذي ظهر عليه منه.

ثم إنَّ الأسد أرسل إلى ابن آوى بعضهم لينظر ما يكون من عُذرِه، فجاء الأسد منه برسالةٍ كذِب، فغضب الأسد من ذلك، وأمر بابن آوى أن يُقتل، وبلغ ذلك أمَّ الأسد

فعلمت أنَّ الأسد قد عَجِل في أمره، فأرسلت إلى الذين أُمِروا بقتله أن يؤخِّروه، ودخلت على الأسد فقالت له: لأيِّ ذنبٍ أمرت بابن آوى أن يُقتل؟ فأخبرها الأسدُ بالأمر، فقالت له: قد عَجِلت يا بُنَيَّ، وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة. والأناة والتثبُّت، ولا يزال يجتني ثمرة الندامة وضعف الرأي من لم يتثبَّت في الأمور؛ وليس أحدٌ أحوجَ إلى التؤدة والتأني من الملوك؛ فإنَّ المرأة بزوجها، والولد بوالديه، والمتعلم بالمعلِّم، والجند بالقائد، والناسك بالدين، والعامة بالملوك، والملوك بالتقوى، والتقوى بالعقل، والعقل بالتثبُّت، ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه وإنزاله إيَّاهم منازلَهم، واتهامُ بعضهم على بعض، فإنه إن وجد بعضُهم إلى هلاك بعضٍ سبيلًا، وإلى تهجين بلاء المبُلين وإحسان المحسنين، والتغطية على إساءة المسيئين، لم يَدَعوا ذلك، وذلك سريعٌ في إضاعة الأمر، وجلبِ عظيم الخطر والضرر، وقد كنتَ بلوت ابن آوى واختبرته قبل استعانتك به وتفويضك إليه فلم تزل عنه راضيًا، تزيدك الأيام له استصلاحًا، وإليه استرسالًا، وفيه رغبةً.

فأمرت بقتله في طابَق من لحم فقدتَه، فعسى أصحابُك أن يكونوا قد ألزموه من ذنبه باطلًا، لحسدهم له وتعاونهم عليه، واعلم أن الملوك إذا وَكَلوا إلى غيرهم ما ينبغي لهم مباشرته بنفوسهم، وألزموا نفوسهم ما ينبغي لهم تفويضه إلى الكُفاة ضاعت أُمورهم ودعوا الفساد إلى أنفسهم، والملوك يحتاجون إلى النظر في وجوهٍ شتَّى، فإذا آثروا النظر في بعض تلك الوجوه على بعضٍ لم يأمنوا خطأ البصر وزلل الرأي، كصاحب الخمر إذا أراد شراءها احتاج إلى اختبار لونها وطعمها وريحها، فإنْ هو آثر بالاختبار بعض ذلك دون بعضٍ لم يأمن الغُبن والخسران، وكالرجل الذي يرى بين عينيه شعرًا من المرض وليس بشعر، فلا يتثبَّت في القضاء أنه ليس بشعر من المرض، ويعلم أنه لو كان شعرًا أبصره غيره كما أبصره هو ليخبره ويعتبر مرضه، وكاليراعة يراها الجاهل في ظُلمة الليل فيقضي عليها بالمُعاينة، قبل أن يلمسها، أنها نار، فإذا لمسها تبين له خطأ قضائه، وقد كنتَ حقيقًا أن تنظر في خطأ ابن آوى نظر متثبِّت فتعلمَ أنه — إذ لم يأكل اللحم الذي كنتَ ربَّما أمرت له بالكثيرِ منه فكان يجعله في طعامك وطعام جندك — ليس بخليقٍ لسرقة قليلٍ من اللحم أمرته بالاحتفاظ به، فافحص عن أمره فإنه لم يزل ذلك[٣] عادةَ

[٣] جملة: «لم يزل ذلك عادة الأرذال والأنذال حسدُ أهل المروءة.» فيها رائحة العبارة الفارسية، يؤتى باسم الإشارة ثم يفسَّر.

الأرذال والأنذالِ؛ حسدُ أهل المروءة والفضل واستثقالهم، ولم يزل جُهَّال الناس يحسُدون علماءهم، ولئامُهم يحسدون كِرامهم، وشِرارهم يحسدون خِيارهم، ولابن آوى مروءة وفضل، فعسى أعداؤه من أصحابك فطنوا لموضع ذلك اللحم فجعلوه في منزله من غير علمٍ منه، فإن الحدأة إذا أصابت البَضعة من اللحم نافسها فيها كثيرٌ من الطير، والكلبَ إذا كان في فيه العظم تعاون عليه عِدَّةٌ من الكلاب، وإنَّ خصماء ابن آوى لم ينظروا فيما يضرُّك ولم يرغبوا فيه عنك إلَّا لعاجل منفعة أنفسهم، فانظر أنتَ فيما ينفعك لنفسك إن لم ينظر لك أحد، ولا تمالئهم على ما يضرُّك؛ فإنَّ أعظم الأشياءِ ضررًا على الناس عامةً وعلى الولاة خاصةً أمران: أن يُحرَموا صالحَ الأعوان والوزراء والإخوان، وأن يكون وزراؤهم وإخوانهم غير ذوي مروءة ولا غَناء، ولم يزل غَناء ابنِ آوى عنك عظيمًا، يؤثر منفعتك على هواه، ويشتري راحتك بنصَبه، ورضاك بسَخَطه، لا يطوي عنك أمرًا، ولا يكتمك سرًّا، ولا يرى شيئًا احتمله منك أو بذله لك عظيمًا، فمن كان من الأصحاب هذه صفته؛ فإنما منزلتُه منزلةُ الآباء والأبناء والإخوان.

فبينما أمُّ الأسد في كلامها إذ دخل على الأسد بعضُ من كان مَكر بابن آوى فأطلَع الأسد على أمره، فلمَّا علمت أمُّ الأسد أنَّ الأسد قد اطَّلع على براءة ابن آوى قالت للأسد: أما إذا اطَّلعت على براءة ابن آوى وجرأة أصحابك عليه، فلا ترضَينَّ بذلك منهم، ولا تَدَعنَّ تشتيت ذاتِ بينهم حتى تنقطع منك الشفقةُ عليهم، فيتخذوك مركبًا فتعوَّدَهم الاحتمال منك وتجرِّئهم على ضرِّك وشينك، ولا تغترنَّ بسلطانك عليهم؛ فيدعوك ذلك إلى استصغارهم والتهاون بأمرهم فإن الحشيش الضعيف إذا جُمَع فُتِل منه الحبل القوي الذي يوثَق به الفيل المغتلم الشديد، فأعِد لابن آوى منزلته وخاصَّته، ولا يؤيِسنَّك من مُناصحته ما فرَط إليه منك من الإساءة؛ فإنَّه ليس كل من أُسيءَ إليه ينبغي أن يُتَخوَّف غِشُّه وعداوته، ويؤيَس من نصيحته ومودَّته، لكن ينبغي أن يُنزَل الناسُ في ذلك على اختلاف ما بينهم، فإنَّ منهم من إذا ظُفر بقطيعته كان الرأي أن يُغتنَم ذلك منه ويُمتنع من معاودته، ومنهم من لا ينبغي تركه وقطعه على كل حال. فمن عُرِف بالشرارة ولؤم العهد، وقلة الوفاء والشكر، والبعد من الورع والرحمة، والجحود لثواب الآخرة وعقابها، والحسد وإفراط الشره والحرص، والسرعة إلى سوءِ الظن والقطيعة، والإبطاء عن المعاودة والمراجعة، فقطعُه أحزم للرأي؛ ومن عُرِف بالصلاح وكرم العهد، والشكر والوفاء والمحبة للناس، والسلامة من الحسد والحقد، والبعد من الأذى، والاحتمال

للأصحاب والإخوان وإن ثقلت عليه منهم المئونة، فهذا حقيقٌ أن تُغتنَم صحبته وصلته ويُمتنَع من قطيعته.

واحذر من الخلطاء الثمانية: الكفور النعمة الغادر بما يُعهد إليه، والذي لا يؤمِن بيوم الحساب والثواب والعقاب، والمفرِط في حرصه وهمِّه وغضبه، ومن يُسخِطه اليسير بغير علَّة، ومن لا يرضى بشيءٍ وإن كان كثيرًا جسيمًا، وذو المكر الداهي الغامض مكرًا، واللَّهِج بالزنا والخمر، والسيئُ الظنِّ المتلوِّن المتهجِّم القليل الحياء. واعتقد من الخلطاء والأصحاب: الشكورَ النعمة الوفيَّ العهد، والكريم عند تصاريف الأمور، وذا الدين المتقي الورع، والمستريح الصدر بالخيرات، والعالم الديِّن المُحب الخير للناس، والرحيم القليل الحقد الصافح عن ذنوب أخلائه المحافظ عليهم غير الناسي لودِّهم، والمختَبَر بالعفة والحياء.

فلمَّا ظهر للأسد براءةَ ابن آوى مما قُرِف به ازداد له تكرِمة، وبه ثقة، فدعاه واعتذر إليه مما كان منه في أمره، وقال له: إنَّ الذي كان من الأمر قد زاد فيما كان من ثقتي بك ثقة، وزاد ظنِّي بك إلى ما كان من حسنه حسنًا، فأقم على ما كنتَ عليه من أمرنا وعملنا. قال ابن آوى: إني قائلٌ لك أيها الملك قولًا فلا يَغلُظنَّ عليك، فإن أحقَّ مَن قَبِل من أهل الحجج الحكَّام، وإنك إن كنت أحدثت بي ثقة وحسنَ ظن فليس شيئًا تفضَّلت به عليَّ فتعتدَّه من نفسك صنيعةً عندي أو طَوْلًا عليَّ، ولكن قد أحدثتُ بك أيها الملك سوءَ ظن، وقلة ثقة، لما ظهر لي من سرعة استماعك لأهل الكذب، وإفسادك الكثير من حُسن البلاء الذي لا تنكره بالقليل الحقير من القذف الذي لا تعرفه، وتقلبك إليَّ بالبائقة والجائحة قبل التثبُّت والإعذار، فقد صيَّرْتني في حدٍّ لا تثق بي ولا أثق بك، لما صيَّرت لهم عليَّ من السبُل؛ لأنه لا ينبغي للمَلك أن يثق بهذه الأصناف ممن قد عوقب العقوبة الكبيرة عن غير جُرم، ومَن ناله الضرُّ العظيم منهم، ومن عزلوه عن ولاية وعمل كان في يديه، ومن سلبوه أمواله وعقاره، ومن كان في الثقة عندهم فأقصوه وقطعوا طمعه بغير سبب، وذي المروءة والنبل إن نُزِّل غير منزلته، أو قدِّم عليه أكفاؤه ونظراؤه والمظلوم الطالب للنصَفة غير المنصَف، ومن يرجو المنفعة والصلاح بمضرَّة السلطان، ومن استُقبِل بما يكره في المحافل، وذي الحرص القليل التبرع، والمذنب الراجي للعفو فلم يُعفَ عنه، فهذه الأصناف أعداء الملك وأعدائي، وقد صار لهم السبيل إليَّ والاستخفاف بي والجرأة عليَّ. قال الأسد: ما أخشن كلامك وأغلظه؛ قال ابن آوى: أيها الملك، لا يغلظنَّ عليك ولا يَخْشُن الحق والصدق إن خفَّ عليك الكذب والباطل مما حُمِّلت به عليَّ، ولا

تحملنَّ جوابي لك والغلظة في محاورتي إياك على سفه رأي وقلَّة بصر بما أقول، ولكن قد قلت ذلك لخصلتين: منهما أن في القصاص تسلية الضغائن وإطلاقًا لمنعقد الحقد، وأحببت أن أُخرج ما في نفسي مما وترتني به ليسلم لك صدري من الضِّغن ولتخلص لك منه سلامة العتب، ومنهما أني أحببت أن تكون أنت الحاكم على نفسك، وألا أكون أنا الحاكم عليك، مع أني لم أجترئ على هذه المقالة حتى استعهدتك من نفسك. قال الأسد: أوَلم أحسن التثبُّت في أمرك؟ قال ابن آوى: إنما كان التثبُّت من أمِّ الملك، وكان التعجيل بقتلي من قِبَلك أيها الملك، قال الأسد: ألم تزعم أن التجاوز عن إساءة العمد أفضل ما يكون من الإحسان؟ فكيف لا يكون ذلك لأهل الخروج عن الخطأ على الكره إلى الإحسان على علم؟ قال ابن آوى: إني لم أقل ما قلت لأوقف الملك على إساءة في أمري، ولا على الخطأ في أمره وحكمه في شأني، ولكني أيضًا قد تخوَّفت موضعًا حدث لأهل المكر يجدون به فيما بيني وبينك مدخلًا. قال الأسد: وما ذاك الموضع؟ قال: يُقال لك أيها الملك: قد دخلتْ قلب ابن آوى عليك ضغينةٌ فيما أدخلتَ عليه من التهمة والوحشة، وما أشربت به قلبه من الإشراف على الهَلَكة، فقال كذا وكذا، وهذا سبب مظنون بالملوك ممن أصابته منهم عقوبة أو جفوة أو تغيُّر منزلة أو عُزِل عن سلطان أو أُوثِرَ غيره عليه ممن هو دونه في المنزلة والحال.

قال الأسد: إنك لست ممن يصدَّق عليه القبيح، وقد عرفتك بالأثر الحسن، وإنك عندنا ممن يَشكر الحسنة ويحتمل السيئة ويُذكر جميع ما أبلى، فلا يعرض بك تخوُّف لقبولي فيك قبيحًا يأتي به آتٍ، ولا يَسُؤُ ظنك ما حسن ظننا فيك، وأَقِمْ على ما ولَّيناك من أمرنا؛ فإنَّا منزلوك منزلة الكرام الأخيار، والكريم تنسيه الخَلَّةُ الواحدة من الإحسان ألف خَلَّةٍ من الإساءة.

وأضعف له الملك الكرامة، وازداد به ثقة وإليه تفويضًا وبه اغتباطًا حتى هلك.

باب السائح والصواغ

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت مَثَل الملوك فيما يجري بينهم وبين قرابينهم، فأخبرني عن الملك، إلى من ينبغي أن يصنع المعروف؟ ومن يحق له أن يثق به؟

قال الفيلسوف: إنَّ الملوك وغيرهم جُدُر أن يأتوا الخير إلى أهله، وأن يُؤَملوا من كان عنده شكر، ولا ينظروا إلى أقاربهم وأهل خاصَّتهم، ولا إلى أشراف الناس وأغنيائهم وذوي القوَّة منهم، ولا يمتنعوا أن يصنعوا المعروف إلى أهلِ الضعف والجَهد والفاقة؛ فإنَّ الرأي في ذلك أن يجرِّبوا ويختبروا صغار الناس وعظماءهم، في شكرهم وحفظهم الودَّ، وفي غدرهم وقلَّة شكرهم، ثم يكون عملهم في ذلك على قدرِ الذي يبدو لهم؛ فإنَّ الطبيب الرفيق لا يداوي المرضى بالمعاينة لهم فقط، ولكنه ينظر إلى البول ويَجسُّ العروق، ثم يكون العلاج على المعرفة وقدرها، ويحقُّ على المرء اللبيب إذا وجد قومًا لهم وفاءٌ وشكرٌ أن يحسن فيما بينه وبينهم لعلَّه يحتاج إليهم يومًا من الدهر فيكافئوه؛ فإنَّ العاقل ربما حذر الناس ولم يأمن على نفسه أحدًا منه، وأخذ ابن عِرس فأدخله كمَّه والطيرَ فوضَعه على يده[1] وقد قيل: ينبغي لذي العقل ألَّا يحقِّر صغيرًا ولا كبيرًا من الناس ولا من البهائم، ولكنَّه جدير أن يبلُوَهم ويكون ما يصنع إليهم على قدر الذي يرى منهم،

[1] «وأخذ ابن عِرس فأدخله في كمه، والطير فوضعه على يده»، هذه الجملة ليست في نسختنا، وقد نقلناها من شيخو بعد تصحيحها؛ لأنَّ السياق يقتضيها، ولأنَّ النسخ متفقة على معناها، والمراد أن الإنسان قد يحذر الناس ويأمن الحيوان فيدخله في كمه أو يضعه على يده؛ وفي اليازجي: «وأخذ ابن عِرس فأدخله في كمِّه وأخرجه من الآخر، وأخذ الطير الجارح فوضعه على يده، فإذا صاد شيئًا أبقى له منه نصيبًا»، وقريبٌ منه في طبارة والمصرية.

وقد مضى في ذلك مثلٌ ضربه بعض الحكماء، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّ أناسًا انطلقوا إلى مغار فحفروا فيه زُبْية للسباع، فوقع فيها رجل صائغ وبَبْر وحيَّة وقرد، فلم يَهِجْن ذلك الرجل ولم يجدوا لهم مخلِّصًا، فمرَّ رجلٌ سائح بهم فاطَّلع فيها، فلمَّا رآهم فكَّر في نفسه وقال: ما أراني مقدِّمًا لآخرتي شيئًا أفضلَ من أن أخَلِّص هذا الإنسان من بين هؤلاء الأعداء، فأخذ حبلًا فدلَّاه فتعلَّق به القرد لِخفَّته فأخرجه، ثم دلَّاه الثانية فتشبَّث به البَبْر فأخرجه، ثم دلَّاه الثالثة فالتوَت به الحيَّة فأخرجها، فشكرنَ له صنيعه، وقُلْن: لا تخرج هذا الإنسان من الزُّبية، فإنه ليس في الأرض أقلُّ شكرًا من الإنسان، ولا سيما هذا الرجلُ خاصةً. وقال القرد: إنَّ وطني في جبل كذا وكذا إلى جانب مدينة يقال لها بَراجون.[٢] وقال البَبْر: وأنا أيضًا في أَجَمة إلى جانبها. وقالت الحية: وأنا أيضًا في سور تلك المدينة، فإن أتيتها يومًا من الدهر أو مررت بها فاحتجت إلينا فنادِنا حتى نخرج إليك ونُجازيك بما أوليتنا وأتيت إلينا. ثم إن السَّيَّاح أدلى الحبل إلى الصائغ، ولم يلتفت إلى ما ذكره القرد والبَبْر والحيَّة من قلَّة شكرِه، واستخرجه فسجد له وأثنى عليه وقال له: إنك قد أوليتني معروفًا جسيمًا، وأنا حقيقٌ بشكره وحفظه، فإن قُضيَ لك أن تأتي مدينة براجون — وهي المدينة التي ذكرها القرد وصاحباه — فسل عني؛ فإنَّ منزلي بها، لعلِّي أجازيك بجميل ما كان منك إليَّ.

ومضى كلٌّ واحدٍ منهما لوجهه، ومكث السيَّاح حينًا ثم عرضت له حاجة نحو تلك المدينة، فسار إليها فلقيه القرد وسجد له وقبَّل يديه ورجليه واعتذر إليه، وقال: إني لا أملك شيئًا، ولكن أنظرني ساعة حتى آتيك ما تصيب منه. فمضى القرد ولم يلبث أن جاءه بفاكهةٍ طيِّبةٍ فوضعها بين يديه، فأكل منها حاجته، ثم توجَّه نحو المدينة فاستقبله البَبْر فحيَّاه وسجد له وقال: قد أوليتني جميلًا، فلا تبرح حتى أرجع إليك، وذهب إلى ابنة الملك فقتلها وأخذ حليها وأتاه به فدفعه إليه من غير أن يُعلمه، فقال السيَّاح في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا وصنعَته بي، فكيف لو انتهيت إلى الصوَّاغ؟ فإنه إن كان مُعسرًا لا شيءَ له فإنَّ أقلَّ ما يصنع أن يبيع لي هذا الحَلْي بثمنه، فيعطيني بعضه ويأخذ بعضه.

[٢] اسم هذه المدينة في النسخ العربية المطبوعة إلَّا نسخة شيخو: «نوادرخت»، وليست مسمَّاة في السريانية.

ثم إنَّ السيَّاح دخل المدينة فأتى منزل الصوَّاغ، فرحَّب به وأدخله منزله، فلمَّا بصُر بالحَلْي عرفه فقال: اطمئن حتى آتيك بشيءٍ تأكله، فإني لا أرضى لك بما في منزلي، فانطلق الصائغ حتى أتى الملك فقال: إنَّ الرجل الذي قتل ابنتك وأخذ حليها قد أخذتُه، وهو محبوسٌ عندي، فلا تطالبنَّ به أحدًا، فإني قد ظفرت به ومعه الحلي، فأرسل الملك بأصحابه مع الصوَّاغ، فهجموا على السيَّاح فأخذوه وأتوا به إلى الملك، فلمَّا رأى الحلي معه أمر به أن يعذَّب وأن يُطاف به في المدينة ثم يُصلب، فلمَّا فُعل به ذلك وطِيفَ به المدينة، جعل يبكي ويقول بأعلى صوته: لو أني أطعت القرد والببر والحية فيما أمرنني به لم يصبني هذا البلاء، فسمعت بذلك الحية فخرجت من جُحرِها، فلمَّا بصُرت به اشتدَّ عليها أمره، وفكَّرت في الاحتيال لخلاصه، فانطلقت إلى ابن الملك فلدغته على رجله، فبلغ الملك ذلك فدعوا له أهل العلم لَيرقوه فلم يُغنوا عنه شيئًا، فنظروا له في النجوم واحتالوا له حتى تكلَّم فقال: إني لا أبرأ حتى يأتيني هذا السائح فيرقيني ويمسح بيده عليَّ، فإنك أيها الملك أمرت بقتله ظلمًا وعدوانًا.

وقد كانت الحيَّة تقدَّمت إلى أختٍ لها من الجن فأخبرتها بخبرِ السائح وفَعاله بها وما قد أصابه، فذهبت إلى ابن الملك فأرته ذلك في منامه فنطق به بحضرة المنجِّمين، فانطلقت الحية إلى السيَّاح فأعلمته بذلك وقالت له: ألم أنْهَكَ عن هذا الإنسان فلم تطعني؟ وأعطته شجرة تنفع من سُمِّها، وقالت له: إذا صرتَ إلى الملك فارقِ الغلام واسقِه من هذه الشجرة فإنه يبرأ، واصدُق الملك الحديث فإنك تنجو إن شاء الله. فلما سمع الملك ذلك من ابنه: أنَّ شفائي[٣] عند الناسك الذي أخذتَه وأمرت بعذابه، أمر الملك أن يُكَف عن عقوبة الناسك وأن يؤتى به، فأُتيَ به، فأمره أن يَرقي ابنه، فقال: لستُ أحسن ما أمرتني به، ولكن أدعو الله — عزَّ وجلَّ — بدعوةٍ أرجو أن يكون فيها شفاءُ ما به؛ فقال الملك: إنما دعوتك لتخبرني بحاجتك في هذه المدينة، وما أَقْدَمَكَها، فقال السيَّاح وقصَّ عليه أمره، وما كان من صنعه إلى الصوَّاغ والقرد والحيَّة والببر، والذي قلن له في أمر الصوَّاغ، وما حمله على أن يأتي مدينته؛ ثم قال: اللهمَّ إن كنت تعلم أنِّي صادق فيما ذكرت فعجِّل لابن الملك إبراءه مما هو فيه والشفاء والعافية، فبرئ الغلام مما كان

[٣] «فلمَّا سمع الملك ذلك من ابنه: أنَّ شفائي»، في الجمع بين «ذلك» و«أنَّ» في هذه الجملة محاكاة للعبارة الفارسية، وقد تقدم أمثال هذا (انظر المقدمة).

به وكُشِف عنه الألم، فأعطى الملك السيَّاح، ووصله وأحسن جائزته، وأمرَ بالصَّائغ أن يُضرب حتى يموت ويُصلب.

ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنع الصائغ بالسيَّاح وكفره به — بعد استنقاذه إياه من المكروه — ومكافأة البهائم له وتخليص بعضها له من القتل عبرةٌ للمعتبر، وفكرةٌ لمن يفكِّر، وأدبٌ في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم قرُبوا أم بعُدوا؛ لما في ذلك من صوابِ الرأي وجلبِ الخير وصرف المكروه.

باب ابن الملك وأصحابه

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرتَ ما يحقُّ على الملك من التوخِّي بمعروفه أهلَ الشكر قرُبوا أم بعُدوا، فأخبرني ما بالُ الرجل السفيه يصيبُ الرفعة والشرف، والحكيم اللبيب لا يخلو من الهمِّ والجَهد؟

قال الفيلسوف: كما أنَّ الرجل لا يُبصر إلَّا بعينيه ولا يسمع إلَّا بأذنيه، كذلك العلم إنما تمامه الحلم والعقل والتثبُّت، غير أنَّ القضاء والقدر يغلبان كل شيء، وإنما يُريدان أدنى علَّة[1] فيموِّلان صاحبها أو يهلكانه، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ ابن الملك الذي رُئيَ على باب مدينة يُقال لها مَطون[2] جالِسًا وقد كتب على الباب:

إنَّ العقل والجمال والاجتهاد والقوة وما سوى ذلك إنما مِلاكه القضاء والقدر.

[1] «وإنما يريدان أدنى علة ... إلخ.» ليس في النسخ المطبوعة هذه الجملة أو ما يقابلها. وفي نسخة شيخو: «فإنما يزيدان عليه فيميلان صاحبه أو يهلكانه»، وفي نسختنا: «يريدان أدنا عله»، وهي محرَّفة عن «يريدان أدنى علة»، ودليل هذا ما في منظومة ابن الهبارية:

لكنه يريد أدنى سببٍ ... وموجبٌ يوجب كل موجب

[2] اسم المدينة في النسخ الأخرى إلَّا نسخة شيخو: «مطرون»، وفي شيخو: «مطون»، وفي شيخو: «مطون»، وفي منظومة ابن الهبارية: «قطون»، وفي الفارسية: «نسطور»، وفي نسختنا: «مطرن». والظاهر أن الراء فيها محرَّفة عن الواو؛ لاتفاق النسخ على هذا الحرف، وليس في السريانية تسمية للمدينة.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّ أربعةَ نفرٍ اصطحبوا: أحدهم ابن ملك، والآخر ابن تاجر، والآخر ابن شريف مِن أتمِّ الناس حُسنًا وجمالًا، والآخر ابن أكَّار. وكانوا جميعًا محتاجين قد أصابهم ضُرٌّ وجَهد، لا يملكون شيئًا إلَّا ما عليهم من ثيابهم؛ فبينما هم يمشُون إذ قال ابنُ الملك: إنَّ أمر الدنيا كله بقدر، قال ابن التاجر: العقل أفضل من كل شيء، قال ابن الشريف: الجمال خير مما ذكرتم، قال ابن الأكَّار: الاجتهاد أفضل من ذلك كله. ثم مضوا نحو مدينة يُقال لها مَطون، فلمَّا انتهوا إلى تلك المدينة أقاموا في ناحية منها، وقالوا لابن الأكَّار: انطلق فاطلب لنا باجتهادك اليوم طعامًا ليومنا هذا، فانطلق ابن الأكَّار يسأل: أيُّ عملٍ إذا عمله الرجل من غُدوة إلى الليل كَسَبه ما يُشبِع أربعة نفر؟ فقيل له: ليس شيءٌ أعزَّ من الحطب، وكان على رأس فرسخ منها، فتوجه إليه فحمل طُنًّا من حطب، فجاء به فباعه بنصف درهم، ثم اشترى به ما يُصلح أصحابه، وكتب على باب المدينة: «اجتهاد يوم واحد تبلغ قيمته نصف درهم»، وأتاهم بما اشترى فأكلوه.

فلمَّا أصبحوا قالوا لابن الشريف: انطلق فاكسِب لنا بجمالك بعض ما يَقُوتنا اليوم، فانطلق ففكَّر في نفسه، وقال: لست أعرفُ شيئًا من الأعمال وأستحي أن أرجع إلى أصحابي بغيرِ شيءٍ، وهمَّ أن يُفارقهم، فأسند ظهره إلى شجرةٍ في المدينة، فبينما هو مهموم إذ مرَّت به امرأة لبعض عظماءِ أهل المدينة فأعجبها جماله، فأرسلت إليه جاريتها فأتت به إلى منزلها، ثم أمرتْ به فنُظِّف، ثم خلا بها يومه كله في نعيم وسرور، فلمَّا أمسى أمرت له بخمسمائة دينار، فلمَّا قبضها توجَّه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة:

جمال يومٍ واحدٍ بخمسمائة دينار

فلمَّا أصبحوا قالوا لابن التاجر: انطلق أنت اليوم فاكسِب لنا بعقلك وتجارتك شيئًا، فذهب ابن التاجر، فما لبث قليلًا حتى أبصر سفينة عظيمة في البحر قد أرست إلى الشط غير بعيدٍ من المدينة، وقد خرج إليها أناسٌ كثيرٌ ليشتروا ما فيها، فساوموا أصحابها، ثم قال بعضهم لبعض: انصرفوا يومكم هذا حتى يكسُد عليهم ويُرخِصوه علينا، فجاء ابن التاجر فاشترى ما فيها بمائة ألف دينار، فلمَّا بلغ القوم ذلك أتوه فأربحوه مائة ألف درهم، فأخذها منهم وأحال صاحبَ السفينة على التجار، ورجع إلى أصحابه، فلمَّا مرَّ بباب المدينة كتب عليه: «عقل يومٍ واحدٍ بمائة ألف درهم.»

فلمَّا أصبحوا في اليوم الرابع، قالوا لابن الملك: انطلق أنت اليوم فاكسب لنا شيئًا، فذهب حتى أتى باب المدينة، فجلس على دُكَّانٍ بالباب، فقُضيَ أنَّ ملك المدينة هلك في ذلك اليوم، ولم يخلف ولدًا ولا أخًا ولا قرابةً، فمرُّوا عليه بالجنازة فبصُروا به لا يتحرَّك ولا ينحاش ولا يحزن لموت الملك، فسأله رجل فقال:[3] من أنت؟ وما الذي يقعدك على باب المدينة لا يحزُنك موت الملك؟ فلم يجبه، فشتمه وطرده، فلمَّا مضوا رجع إلى مكانه، فلمَّا انصرفوا رآه الذي طرده فقال: ألَم أنْهَكَ عن هذا الموضع، وأتقدم إليك؟ فأخذه وحبسه.

ثم إنهم اجتمعوا ليُملِّكوا عليهم رجلًا يختارونه، فقام الذي كان أمر بالفتى إلى الحبس فحدَّثهم بقصَّته، وقال: إني أتخوَّف أن يكون عَينًا علينا لعدوِّنا، فبعثوا إليه فأتوا به فسألوه مَن هو، وما أمره، وما الذي أقدمه بلدهم؟ فقال: أنا ابن أصطَهر ملك أرض قورماه،[4] تُوُفِّيَ والدي فغلبني أخي على المُلك، وأنا أكبر منه، فهربت منه حذَرًا على نفسي، فعرفه من كان وطئ أرضهم فأثنوا عليه، وملَّكوه عليهم، وكان سنَّتهم إذا ملَّكوا الرجل طافوا به على الفيل الأبيض، وتركوا[5] التاج على رأسه وجالوا به المدينة، فلما مرَّ على باب المدينة فأبصر ما كتبه أصحابه أمرَ أن يُكتب مع ذلك:

إنَّ الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب المرء من خيرٍ وشرٍّ فبقضاءٍ وقدرٍ، اعتبروا ذلك بما ساقه الله إليَّ من الخيرِ والسعادةِ.

ثم إنَّ الملك أتى مجلسه وقعد على سرير ملكه، وأرسل إلى أصحابه فأتوه فموَّلهم وأعطاهم وأغناهم، ثم جمع الناس والعمَّال وذوي الرأي من أهل مملكته؛ فقال: أمَّا أصحابي فقد استيقنوا أنَّ الذي رزقهم الله من الخير إنما كان بقدَرٍ فأعان عليه ببعض ما ذكروا، وأمَّا أنا فإنَّ الذي منحني الله ورزقني ووهبه لي لم يكن من الجمال، ولا من العقل، ولا من الاجتهاد، وما كنت أرجو — إذ طردني أخي — أنْ أُصيب هذه المنزلة، ولا أن أكون بها؛ لأنِّي قد رأيتُ من أهل هذه الأرض مَن هو أفضل منِّي جمالًا وحُسنًا، وعلمت أنَّ فيها مَن هو أكمل منِّي عقلًا ورأيًا وأشدُّ اجتهادًا، فساقني القضاء والقدر

[3] «فسأله رجل فقال»: هذه الجملة تذكر بالتعبير الفارسي: «بر سيده كفت.»

[4] اسم المدينة في نسخة شيخو: «قروناد»، وفي النسخ الأخرى: «قويران»، وليست مسماة في السريانية.

[5] «وتركوا التاج على رأسه.» استعمال «تركوا» هنا يُشبه التعبير الفارسي «كذاشتند».



إلى أن اغتربت فمُلِّكت أمرًا قد علمه الله وقدَّره، وقد كنت راضيًا أن أعيش بحال خشونة وضيق معيشة؛ فقام سيَّاح كان في جمعهم ذلك فقال: أيها الملك، قد تكلَّمتَ بحلم وعقل فحَسُن ظننا بك، وعَظُمَ رجاؤنا فيك، وعرفنا ما ذكرت، وصدَّقناك فيما وصفت، وعلِمنا أنك كنتَ لِما ساق الله إليك من ذلك أهلًا بفضلٍ قَسَمه لك، وتابَع نعمه عليك؛ فإنَّ أسعد الناس في الدنيا والآخرة وأولاهم بالسرور فيها مَن رزقه الله ما رزقك، وجعل عنده مثل ما عندك، وقد أرانا الله الذي نحبُّ إذ مُلِّكت علينا، فنحمد اللهَ على ما أكرمَنَا به من ذلك وامتنَّ به علينا. وقام سيَّاح آخر فأثنى على الله تعالى ومجَّده وذكر آلاءه وقال: أيها الملك، إني قد كنت — وأنا غلامٌ قبل أن أكون سائحًا — أخدم رجلًا من أشراف الناس، فلما بدا لي أن أرفض الدنيا فارقته، وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين، فأردت أن أتصدَّق بأحدهما وأُنفِق الآخر، فقلتُ: أليس أعظَم الأجر أن أشتري نفسًا بدينار وأعتقها لوجه الله؟ فأتيت السوق فوجدت مع صيَّادٍ حمامتين، فساومته بهما فأبى أن يبيعهما بأقلَّ

من دينارين، فجهِدت على أن يعطينيهما بدينارٍ فأبى، فقلتُ: لعلهما أن يكونا زوجين أو أخوين، فأخاف أن أعتق أحدهما فيموتُ الآخر، فاشتريتهما منه بالثمن الذي سمَّى، وأشفقت — إن أنا أرسلتهما في أرضٍ عامرةٍ — ألَّا يستطيعا أنْ يطيرا من الهُزال وما لقيا من الجَهد، فذهبت بهما إلى مكانٍ كثيرِ الرعي فسرَّحتهما فطارا فوقعا على شجرة، ثم انصرفت راجعًا، فقال أحدهما للآخر: لقد خلَّصنا هذا السائح من البلاء الذي كنَّا فيه، وإنَّا لحقيقان أن نُجازيه بفعله، فقالا لي: قد أتيتَ إلينا معروفًا، ونحنُ أحقُّ أن نشكرك به ونجازيك عليه، وإنَّ في أصل هذه الشجرة جَرَّة مملوءة دنانير، فاحتفِر عندها فخذها؛ فأتيت الشجرة وأنا في شكٍّ مما قالا، فلم أحفر إلَّا قليلًا حتى انتهيت إليها فاستخرجتها ودعوت الله لهما بالعافية وقلتُ لهما: إذا كان علمكما على ما أرى، وأنتما تطيران بين السماء والأرض، فكيف وقعتما في هذه الورطة التي نجيتكما منها؟ فقالا لي: أيها العاقل، أما تعلم أن القدر يغلب كل شيء، ولا يستطيع أحدٌ أن يجاوزه أو يقصِّر عنه!

ثم قال الفيلسوف للملك: ليعرف أهل النظر في الأمور والعمل بها أنَّ الأشياء كلها بقضاءٍ وقدرٍ، لا يجلب أحدٌ منها إلى نفسه خيرًا ولا يدفع عنها مكروهًا، وأنَّ ذلك كله من الله عز وجل، وأنَّ الله يفعل فيها ما أراد ويقضي فيها ما أحب، فلْتَسْكُن إلى ذلك الأنفُس، ولتطمئنَّ إليه القلوب؛ فإنَّ ذلك لِمَن ألهمه الله ووفَّق له، سعةٌ وراحةٌ.

باب اللبؤة والشعهر[١]

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت من أمر القضاء والقدر وغلبتهما للأشياء، فأخبرني عمَّن يدع ضرَّ غيره لما يُصيبه من الضرِّ، ويكون له فيما ينزل به واعظٌ وزاجرٌ عن ارتكاب الظلم والعدوان من غيره.

قال الفيلسوف: إنه لا يُقدِم على طلب ما يضرُّ الناس ويسوءهم إلَّا أهلُ الجهالة والسفه، وسوء النظر في عواقب الأمور في الدنيا والآخرة، وقِلَّة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة، ويلزمهم من تَبِعة ما اكتسبوا مما لا يُحيط به القول؛ فإن سلم بعضهم من بعضٍ لمنيَّة عرضت قبل نزول وبال ما صنعوا، اعتبر[٢] بهم الآخرون بما ينقطع فيه الكلام والوصف من الشدَّة وعظم الهول، ورُبَّما اتعظ الجاهل واعتبر بما يُصيبه من المكروه من غيره، فارتدع عن أن يبتلي أحدًا بمثل ذلك من الظلم والعدوان، ورجا نفع ما كفَّ عنه في الآخرة، ونظير ذلك حديث الأُسوار واللبُؤة والشَّعْهَر، فقال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّ لَبُؤة كانت في غيضة ولها شِبْلان، وأنها خرجت ذات يومٍ تطلب الصيد وخلَّفتهما، فمرَّ بهما أُسوار فرماهما حتى قتلهما، وسلخ

[١] في النسخ كلها إلَّا نسخة طبارة: «الشعهر»، ولم أجده في كتب اللغة. وفي نسخة طبارة: «الشغبر»، وهو كما في كتب اللغة ضربٌ من بنات آوى، وهذا الباب ناقصٌ من منظومة ابن الهبارية.

[٢] في الأصل: «اعتبروهم الآخرون»، وفي نسخة شيخو: «فإن سلم بعضهم من بعض لفتنة عرضت قبل نزول وبال ما صنعوا اغترَّ بهم الآخرون»، وفي نسخة اليازجي: «وإن سلم بعضهم من ضرر بعض باتفاق عرض له قبل أن ينزل به وبال ما صنع لم يسلم في كل مرة»، ونسخة طبارة والنسخ المصرية توافق نسختنا في المعنى، فاختلاف النسخ بين كلمة «منية» و«فتنة» وكلمة «اعتبر» و«اغتر».

جلودهما، ومضى بهما إلى منزله، ثمَّ إنَّ اللبؤة رجعت فرأت ما بِشِبليْها من الأمر الفظيع فصرخت وصاحت وتقلبت ظهرًا وبطنًا.

وكان إلى جانبها شعهر جارٌ لها، فلمَّا سمع بكاءها وصُراخها وجزعها خرج إليها فقال لها: ما هذا الذي أراه بك؟ وما جرى عليك؟ فأخبريني به لأشاركك فيه؛ قالت: إنَّ شبليَّ مرَّ عليهما أُسوار فقتلهما وأخذ جلودهما وألقاهما بالعَراء. قال الشعهر: لا تحزني ولا تصرُخي، وأنصِفي من نفسك، واعلَمي أنَّ هذا الأُسوار لم يأتِ إليك شيئًا وإلَّا وكنتِ ركبتِ من غيرك مثلَه، ولم تجدي من الأسف والحزن على شبليك شيئًا إلَّا وقد كان من كنت تفعلين بأحبابه ما تفعلينَ يجد مثلَه أو أفضل منه،[٣] فاصبري من غيرك على نحو ما صبر عليه غيرُك منك؛ فإنَّه قد قيل: كما تدين تُدان، وإن ثمرة العمل الثوابُ أو العقابُ، وهما على قدره في القِلَّة والكثرة، كالزَّارع إذا حصد الحصاد أُعطِيَ على قدر بذره. قالت اللبؤة: اشرح لي ما تقول وأوضحه، قال الشعهر: كم لكِ من العمر؟ قالت اللبؤة: مائة سنة؛ قال: ما الذي كان يقوتك ويُعيشك؟ قالت اللبؤة: لحوم الوحش؛ قال الشعهر: ومن كان يُطعمك ذلك؟ قالت اللبؤة: نفسي، قال: أما كان لتلك الوحوش آباء وأمهات؟ قالت اللبؤة: بلى، قال الشعهر: فما لنا لا نسمع من تلك الآباء والأمهات من الضجة والجزع والصراخ ما نسمع ونرى منك؟ أما إنه لم يصبك ذلك إلَّا لسوء نظرك في العواقب، وقلَّة تفكُّرك فيها، وجهالتك بما يرجع عليك من ضُرِّها! فلمَّا سمعت اللبؤة ذلك عرفت أنها هي اكتسبت ذلك على نفسها وجرَّته إليها، وأنها هي الظالمة الجائرة، وأنه مَن عمل بغير الحقِّ والعدل انتُقِم منه وأُديل عليه، فتركتْ الصيد وانصرفَت عن أكل اللحم إلى الثمار، وأخذت في الزهد والنسك والعبادة.

ثم إنَّ الشعهر — وكان عيشه على الثمار — رأى كثرة أكل اللبؤة إياها، فقال لها: لقد ظننتُ — لقلَّة الثمار وكثرة أكلك إياها — أنَّ الشجر لم يحمل إلا نزْرًا العام، ولمَّا رأيت أكلك لها — وأنت صاحبة لحم — ورفضَك رزقَك وما قسم الله لك، وتحوُّلك إلى رزق غيرك فانتقصته ودخلت عليه فيه، علمتُ أنَّ الشجر قد أثمر كما كان يُثمر فيما خلا، وأنما هذه النزورة في ذلك من قِبَلك، فويلٌ للشجر وللثمار ولمن كان عيشه منها!

[٣] في الأصل: «يجد مثله أو أمثل منه»، وفي شيخو: «أو أفضل منه»، وقد رجحنا رواية شيخو لأنَّ «أفضل» ربما تدل على الزيادة فقط، و«أمثل» لا تقال إلَّا في الخير.

فما أسرع هلاكهم ودمارهم إذ قد نازعهم في ذلك مَن لا حقَّ له فيه ولا نصيب! فتركت أكل الثمار وأقبلت على أكل العشب.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لأنَّ الجاهل رُبما انصرف لمكروهٍ يحلُّ به عن ضرِّ الناس، كاللبؤة التي تركت — بما لقيت من شبليها — أكلَ لحوم الوحش، ولقول الشعهر، أكل الثمار، وأقبلت على النسك والعبادة.

ثم قال الفيلسوف للملك: فالناسُ أحقُّ بحسن النظر في الأمر الذي لهم الحظُّ فيه؛ فإنه قد قيل: ما لا ترضاه لنفسك لا ترضه لغيرِك، وما لا تحبُّ أن يُصنع بك فلا تصنعه بغيرك؛ فإنَّ في ذلك العدل، وفي العدل رضا الله تعالى.

باب الناسك والضيف

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت من أمرِ من يدع ضُرَّ غيره لضرٍّ نفسه، فأخبرني عمَّن يدع عمله الذي يعرفه ويليق به ويطلب سواه فلا يقدر عليه، فيراجع الذي كان في يده من عمله فيفوته ويبقى حيران متلددًا.

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان في أرض يُقال لها الكَرخ ناسكٌ مجهتدٌ في النسك، فنزل به ضيفٌ ذات يوم فدعا له بتمرٍ ليُطرِفه به، فأكلا منه جميعًا، ثم إنَّ الضيف قال: ما أحلى هذا التمر وأطيبه! وليس في بلادي التي أسكنها نخلٌ، مع أنه إن لم يكن فيها فإنَّ هنالك من الثمار ما أكتفي به؛ فإنه من يقدر على التين وما أشبهه من حلو الفاكهة يُجزيه ويقضي منه حاجته، هذا مع وخامة التمرِ وقلة موافقته للجسد. قال الناسك: إنَّه لا يُعدُّ سعيدًا من احتاج إلى ما لا يجد وليس بمقدورٍ عليه، فتشرَهُ لذلك نفسُه، ويقلُّ عنه صبره، ويصل إليه من ثِقل ذلك واغتمامه ما يُضِرُّ به ويُدخِل المشقة عليه، وإنك أنت العظيمُ الجَدِّ الجزيلُ الحظِّ حين قنعت بما رُزِقت وزَهِدت فيما لا تظفر به ولا تدرك طَلِبتك منه. قال الضيف: وُفِّقت ورَشِدت، وقد سمعت منك كلامًا عِبرانيًّا أعجبني فاستحسنته، فلو علَّمتنيه! فإنَّ لي فيه رغبة، وأنا عليه حريص، فقال الناسك: ما أخلقَك أن تقع فيما تركتَ من كلامك وتكلَّفت من كلام العبرانية في مثل ما أصاب الغراب، قال الضيف: وكيف كان ذلك؟ قال الناسك: زعموا أن غرابًا رأى حَجَلة تدرُج، فأعجبته مِشيتها، فطمع في تعلُّمها، فراض نفسه فلم يقدر على إحكامها، فانصرف إلى مِشيته التي كان عليها فلم يُحسن، فبَقِيَ حيران مترددًا لم يدرك ما طلب ولم يحسن لما كان في يده الحِفْظَ.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك خليقٌ — إن تركت لسانك وتكلَّفت علمَ ما لا يُشاكلك من كلام العبرانية — ألَّا تدركه وأن تنسى الذي كان في يدك من غيره، فإنه قد قيل: يُعدُّ جاهلًا من حاول من الأمور ما لا يشبهه، وليس من أهله، لم يدركه آباؤه ولا أجداده من قبله، ولا يُعرَفون به.

ثم قال الفيلسوف للملك: فالولاة في قلَّةِ تعاهدهم للرعية في هذا وأشباهه ألومُ وأسوأُ تدبيرًا؛ لأنَّ تنقُّل الناس من بعض المنازل إلى بعضٍ فيه صعوبة ومشقة شديدة، ثم إنَّ الأشياء في ذلك تجري على منازل حتى تنتهي إلى الخطر الجسيم من مضادَّة الملك في ملكه.

فلمَّا انتهى الملك والفيلسوف إلى باب الناسك والضيف سكت الملك، وقال الفيلسوف: عشتَ أيها الملك ألف سنة، ومُلِّكت الأقاليم السبعة، وأُعطيت من كل شيءٍ سببًا، وبُلِّغته في سرور منك برعيتك، وقرة عينٍ منهم بك، ومساعدة من القضاء والقدر، فلقد كمل منك الحلم، وزكا منك العقل والقول والنية، فلا يوجد في رأيك نقصٌ ولا في قولك سقطٌ ولا في فعلك عيبٌ، وجُمِع فيك النجدة واللين، فلا توجَد جبانًا عند اللقاء، ولا ضيِّقَ الصدرِ فيما ينوبك من الأشياء.

وقد شرحت لك الأمور، ولخصت لك جواب ما سألتني عنه، واجتهدتُ لك في رأيي، ونظرتُ بمبلغ فطنتي في التماس قضاءِ حاجتِك، فاقض حقِّي بحسن النية منك بإعمال فكرِك وعقلك فيما وصفت لك، فإنَّ الآمرَ بالخيرِ ليس بأسعدَ به من المطيع له فيه، ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح له بها، ولا المعلِّم بأسعد بالعلمِ ممن تعلَّمه منه؛ فمن تدبَّر هذا الكتاب بعقله، وعمل فيه بأصالة رأيه، ثم فكَّر فيه، كان قِمنًا للمراتب العظام والأمور الجسام، والله يوفقك أيها الملك ويصلح منك ما كان فاسدًا.

فأمر الملك عند ذلك بفتح أبواب خزائنه، وأن يحكَّم فيها الفيلسوف فيأخذ ما احتكم من الأموال، ومن صنوفِ الدرِّ والجوهرِ والذهبِ والفضةِ، وألَّا يُمنع شيئًا من ذلك، وأقطعه إقطاعًا كثيرًا، ورفع درجته ومرتبته إلى الغاية التي لا يسمو إليها أحدٌ من نظرائه.